

عدد ممتاز

أجمل الإنشاء السبعة

عبد الحكيم قاسم

مختارات فصول



مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٥٢)

عدد ممتاز

مايو ١٩٨٨

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
تصدر عن
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

○ رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

○ رئيس التحرير

سامي خشبة

○ نائب رئيس التحرير

ابراهيم أصلان

○ مدير التحرير

نمر أديب

○ الاخراج الفني

راجيه حسين

الغلاف للفنان سعد عبد الوهاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

أيام الإنسان السبعة

رواية

عبد الحكيم قاسم

حلم حياتي

كل امل

مراكبي مشتاقه القلاع

تهفو الى المرافئ البعيده

الحضرة

طول عمر الولد عبد العزيز وهو يحب صلاة المغرب ، فهي
تأتى فى وقت يكون فيه النهار رقيقا ، الشمس غاربة والأضواء
لينّة ، وربما حزينّة قليلا ، والأب الحاج كريم يقول فى وقار
وترتيل :

— المغرب جوهرة فالتقطوها ..

فاذا لم تبادر بالصلاة ضاعت مسحة الضوء الشفيفة النديّة
من الأفق وكبس الظلام ..

ويفرغ الأب من صلاة المغرب ، وينهض ليجلس فى مكانه من
الأريكة فى شرفة الدوار على جبينه تراب من أثر السجود ،
وفمه مشغول بالتسايح ، كم هو طيب وحبيب ومهيب ذلك الأب
الحاج كريم .

لا يجلس أحد فى مكانه من الأريكة أبدا حتى ولو كان غائبا ،
ولو فعل فانما يكون متوترا متدلى الساقين ، منحنيا الى الامام
واضعا كفيه على ركبتيه .. ذلك دوار الحاج كريم عن أبيه ، يقوم
على رأس حارة كلها آله وعصبته ، وهو رئيسهم وهم محبوه
وطائعوه ومباهون به .

يطوى الولد عبد العزيز الحصر الأبيض ويقيمه فى ركن . ثم
يلبد فى جوار أبيه كقطعة صغيرة ، صغيرة ودودة ، وجسده
النحيل مشبع بالشوق الى مباهج المساء .

ما أبأس النهار ، حينما تنعقد وقدة الشمس ويصل ضوءها
الى كل ركن قاسيا وحازما وينتصب الرجال فى الحقول صارمين
دؤوبين وتسمى النساء بقلل الماء وصرر الارغفة صامتات ، حينئذ
لا يكون ثمة مكان للكلمات العذاب ولا للحكايا ، تلك وقتها صدر
المساء .

ما أعذب الحاج كريم فى الاماسى ، ولكنه فى النهار رهيب ،
يتناول مقود بهيمته فى يد قاسية ، ويسوط ظهريهما ، ويفجر
سلاح المحراث باطن الأرض والبهيمتان تتلويان تحت النير والرغوة
البيضاء تتساقط من خطميهما على الأرض المتشققة ، وحوله
العيال والرجال جهمون منهمكون لا يلوون على شيء .

الدور فى النهار كثيبة غارقة فى الضوء والغبار ، والشوارع
ساكنة ، وقلب عبد العزيز ثقيل لكن الدور الآن شفيفة يترقرق
عليها بهاء الشفق ..

يلد الولد فى جنب أبيه يستمع للتسايح ، كلمات مبهمّة
لا يدرك سرها ، لكنها مفاتيح تفجر فى خياله تصورات هائلة عن
رجال ليسوا كالرجال ، ربما هم نحاف يرتدون أكثر الثياب رثالة،
لكنهم يقفون فى أركان الدنيا ، أو يسسرون تطوى المسافات
الشاسعة تحت أقدامهم كالسطح ، ويمدون أيديهم فيمنحون البرء
للمرضى ويملؤون الضروع باللبن والمخازن بالحبوب .. يحيون بين
الناس لا تستطيع تمييزهم ، ثم يموتون فيولد النور وتبنى القباب
فى المدائن ، وتمتلئ الطرقات بالناس كاسراب النمل حاملين زادهم
الى موالد الشيوخ .

يلد الولد فى جنب أبيه يسمع للصوت العميق الذى يخرج
من قلب الحاج كريم وهو يرتجف بالنشوة والترقب لمباهج
ذلك المساء .

وحينما يفرغ الأب من تسابيحہ يکوم مسبحته ويضعها في جيبه ويخط بكفه على باطن قدمه الراقدة تحت ساقه المثنية ، ويتنهد هاتفا باسم السلطان ، وجهه أسمر سمين متناسق اللامع وعيناه البنيتان طائران يفيان في الآفاق الوردية من شفق المساء . في هذه اللحظة يتوقع عبد العزيز أن يأمره أبوه باحضار الصباح ، ففي هذه الليلة يأتي كل شيء في أوانه . . ويعود الولد باللبسة الكبيرة ، ملمعة الزجاجاة عامرة بالكروسين ، ويضيئها الأب يعود ثقاب ويحملها الولد الى ردهة الدوار الكبيرة ويعتلى كرسيها حتى يصل بها الى الفانوس الكبير المدلى من السقف ويفلق عليها بابه ، وينتشر على الحيطان المبيضة نور الفانوس الأصفر الكاوي ، تصحو النقوش والزخرفات وتكحل بقطرات لامعة من الضوء ، وترسم على الأرضية المبلطة دائرة كبيرة من الظلال تروح وتجىء متأرجحة مع اهتزاز الفانوس .

وما تكاد دائرة الظلال تهدأ مستقرة تحت الفانوس ومستطيل الضوء الأصفر خارج من باب الصالة ، وقاسم الشرفة الى صفتين معتمتين ، ثم منحدر الى الطريق ، حتى يبدأ الناس يدبون عائدين من المسجد اثر صلاة العشاء متكسرين كاشباح واهنة وفي أفواههم بقايا تسابيح ، يمرون بشرفة الدوار يقرأون السلام مخافتين ، ثم يمشون تبتلعهم عتمة الحارة ، ثمة في الدور الكئيبة تنتظرهم الغرف المظلمة والنوم الى الصباح ، أما أصحاب الحاج كريم فأمامهم مباح المساء .

— السلام عليكم .

— عليكم السلام ورحمة الله .

عاصفة صغيرة من الود والضحك الرائق ثم يصفد الرجل الدرجات القليلة الى الشرفة ويسلم على الحاج كريم ويجلس الى

جواره على الدكة ، ويداعب رقبة الولد النحيلة ويحس عبد العزيز
بيرودة اليد التي مازالت رطبة بالوضوء .

ورغم الظلام يرى عبد العزيز التماعة الشوق في عيون أبيه
وهو يقول :

- تصلى انشاء الله فى الحرم الشريف يا شيخ احمد .

ويرد هذا داعيا بخشوع :

- وانت معنا انشاء الله يا عم الحاج .

وفى كل حين ينحرف رجل من الطريق المار بجوار الشرفة
ثم يصعد الدرجات القليلة الى حيث ينتهى به المجلس ثم يكون
السلام والكلمات القليلة والتحيات الطيبات حتى يلتئم شمل
الصحاب ..

فى كل مساء يلتئم شمل هؤلاء الصحاب ، عملوا طول النهار
فى الأرض حتى تشققت ايديهم وصاحوا وصرخوا فى الأولاد
والنساء وساطوا البهائم وعميت عيونهم بالفضب العارم ، وفى
المساء لبسوا الجلابيب المغسولة وصلوا العشاء جماعة فى المسجد
الجامع وقالوا من قلوبهم آمين خلف الامام ثم جاءوا الى الدوار .

هم الآن طيبون حكماء ينظرون الى كد اليوم بوداعة وبيتسمون
نادمين على عصفهم الفاضب بالنساء والولدان والبهائم ، لكنها
قسوة الحياة وخشونة النهار ، وذلك السر الكبير المبهم الكامن
فى صدر الأرض المغمم بالخصوبة وهم يدبون فوقها حيارى
مهمومين غاضبين فى وقدة النهار .

لذلك خلق الله المساء وأخفى الشمس فى طيات المجهول لميقات
معلوم ، ولو كانت الدنيا نهارا دائما وكذا لا ينقطع ، لانتقلب النامس
الى شياطين وما عرفوا الله .. لايد من هداة كل مساء ، يدهشون

فيها لعجائب النهار المدبر ويتسمون لخشونته ويتساءلون ملحقين
عن سر النماء والذبول .

والحاج كريم سيد المزارعين ، الأرض امراته المطاوعة وهو ربها
القاسى :

- ان مكانش سلاحك فى قلب الأرض .. مافيش من وراها
رجا ... !

ويبهرون ويتسمون ، لكنهم يؤمنون ..

لأبد من هداة كل مساء يحكون فيها ويبسطون قلوبهم كالأكف
المعطاة يدور الكلام وتفتح الحكايا ، ففى كل صدر قلب ، وفى
كل قلب همه الفريد وهو فى رحلة الحياة يرى ويسمع ويتألم أو
يرضى ، وفى المساء يأتى الى مجتمع الاخوان .

كل وجه من هذه الوجوه مطبوع فى خيال الولد عبد العزيز
بتفاصيله الدقيقة لا يختلط بمن عداه ، ولكل مزاج عرفه والفه
وتعلق به وأحبه .

أحمد بدوى أول القادمين الى جلسة المساء ، الشاب الذكى ،
قارئ الكتب للاخوان ، وجهه المستدير الطفلى المتورد الوجنات
الضيق العيون ، المبتسم دائما .. وعلى خليل الدقيق المحساذر
صاحب دكان البقالة ، وآخر من يأتى الى مجلس الاخوان ، فانه
يتأنى فى صلاته ويتم أركانها ، أكرش نحيل الكتفين والذراعين
هضيم الوجه شاحب لا يتكلم الا قليلا ولا يطلق الضحك ، انما
يتسم فى هدوء ، والدماء القليلة تشوب شحوب وجنتيه ..
ومحمد كامل الطويل الاسمر ، العريض المنكبين ، قائد المرتلين
والذاكرين فى الليالى الذى وخط الشيب رأسه ولم يعقب بعد
خلفا ...

والعراقي الأطرش الذي لا يسمع ولا يتكلم وكل صلته بالحياة
عينان حادتان سريعتان يعرف بهما الكلمات وهي تتسكور على
الشفاه ويجيب بكلمات مهشمة تثير الضحك أكثر مما تدل على
شيء . . !

ومحمد العايق الدقيق الجرم ، ذو اليدين الناصعتين ،
الأنيق الفائح دائماً بالعطر ، زير النساء وزوج اللصة روايح .

وعمر فرهود الجمال ، فى النهار يصاحب جملة الهائل ،
يشبك مقوده فى ذراعه ويناوله الطعام بلا انقطاع ، وفى الإذكار
يطير لبه ويتناثر الرفاء من فمه ويمسك به الرجال حتى يهدأ ، وفى
الولد يحمل صحاحير الزاد على جملة الى المدينة .

وسليم الشركسى النجار ، ثمالة اسرة أتلف أدمغتها جنون
غريب ، يجلس ساكناً لا يتكلم ، إنما يعلق على ما يقال ساخطاً ،
أو يضحك راضياً .

كثيرون هم كل منهم عالم بذاته عالم حبيب ينتظره الولد
عبد العزيز كل مساء يشرب حديثهم بنهم لا يهدأ شيء ما يجمعهم
فى مودقة وثيقة عميقة وهموم اليوم حينما تطرح فى جلسة المساء
تقودهم فى درب واحد نحو الزمن القديم والصور الضبابية عن
الايام الطيبات الثرية بالخير ، وعن الرجال الذين قالوا أحكم
الكلمات وأكلوا أحسن الطعام وملكوا قوة الهبة تمنح البرء
للمرضى تملأ الضروع باللبن والمخازن بالحبوب، وتقودهم نحو البلاد
البعيدة ، هنالك الصحاب وحكايات اللقاءات المتباعدة العامرة
بالحب العظيم ، وهنالك الأماكن الغريبة والمزارات المهولة التي
تستحق أن تشد إليها الرجال مقابر الأولياء والصالحين فى المدائن
الكبيرة . . حينئذ يتخلق وراء عالم الحياة اليومية المحدود ، عالم
آخر رائع لا نهائى يفجر الأشواق ويزحم القلوب بالوجد .

كل مساء سفر فى عالم غريب ، وبطل رحلة المساء هو الحاج كريم ، الاب الكبير ، سافر كثيرا وسمع كثيرا وحينما يشرع فى الكلام ، فان عيناه تسبحان فى الفضاء المضاء بالضوء الأصفر الباهت ، وتطل النفوش من الحيطان بعيونها البراقة .. يتنهد صافقا باطن قدمه اليسرى الراقدة على إفخذه اليمنى وهو متربع فى مكانه من الأريكة ..

— والله يا رجاله .. وحق من أماته ..

تخشع القلوب وتطرق الرؤوس ويحكى الحاج كريم عن رجل من أصحابه أو عن شيخ من شيوخه أو عن حاكم نطق فى حضرته بالحق لم يخش شيئا ، وفى نهاية الحديث تمصص الشفاه ، وتهينم بالكلمات الغريبة .. لقد حاز الحاج محمد والد الحاج كريم أطيانا شاسعة وبهائم وخيلا ، ثم عصفت الأزمة والوفاء للاخوان بكل شيء .. وقتها كان الحاج كريم شابا غضا يدور على صهوة فرسه كالأمير .. ما الناس الا حراس ما لا يملكون ، وغاية الحياة ما بعد الحياة ، عالم ضبابى مسحور رائق يشعل الوجد ، والحاج كريم يضيء مصباحه كل مساء للاخوان ويضيء المجلس بالكلام الطيب ... ما أسعد من فتح قلبه للمودة والصفاء ، وفداينه القليلة كثيرة بركة الله .

ويحكى أحمد بدوى عن ولديه الصغيرين ، لو كانا قد عاشا بلغا الآن عمر عبد العزيز ، فى ذلك اليوم لم يكن وجه أحمد بدوى مبتسما ، كان غارقا فى الدموع ، ولم تكن قامته القصيرة مكينة كما هى دائما ، كان واهنا متهدما ، يسنده من الجانبين انسان من الصحاب .

حينما يتذكر عبد العزيز هذه الأيام يفرق فى الحزن والسكون أيام الوباء .. كانت أياما رهيبة .. جاء العم الشاب الى الحاج كريم ..

— الموت بعيدى على السطوح من دار لدار يا حج كريم ..
عاوزين نحمل عيالنا وحالنا ونظير ..

اشقاء الحاج كريم وعياله مرعوبين ينظرون اليه .. وهو لا يتخلى أبدا عن جلبابه الكشميرى الكبير ولا عن عمامته ، يجوب الدور —
يمسح القىء والبراز بكفيه ، ويحمل فرائس الوباء على كتفه الى العربات ، والناس مجفلون متباعدون خوف العدوى ، والعربات تحمل المصابين وتطلق زمارتها مبارحة القرية بناس لا يعودون ، موتى بلا مقابر ، يلقي بهم فى حفر ترودم بالجير الحى .

وكان صباح العيد الكبير حزينا ، الشمس ذهبية والشوارع مكنوسة ومرشوشة والقرية يلفها الخوف والسكون ، وجاء احمد بدوى وفى يديه ولداه الصغيران أربعة اقدام صفيرة بيضاء ، فى شباشب جديدة حمراء ، وفى المساء مائتا .. يا لله .

يحكى أحمد بدوى عن ولديه .. ويحكى محمد كامل عن امراته «صديقة» الطويلة السمراء الواسعة العينين ، تمشى كسيرة مثقلة بالذنوب ، لم يأت الى الدوار شيخ أو مجذوب الا وسأله محمد كامل ، والا أوصاه الشيخ بدعاء يقوله اذا أتى امراته ، ويحكى محمد كامل — ذليل الصوت — انه لم يفعل الدعاء أبدا ، فى المساء فى ظلام الغرفة حينما يأتى صديقه وجهه الأسمر القاتم ووجنتيه الدابطين ينكس راسه .. ربما .. كل شيء بميقات .

فى كل قلب همه الفريد ، لكن القلوب قد يسيطر عليها لون من الميل الرقيق ، حينئذ يعذب صوت أحمد بدوى وهو يحكى عن تلك التى أحبها ، وعرفت حبهما أشجار الجميز على الترع الطويلة .. لكن أباهما زوجها فى قرية بعيدة .. سكت مقهورا ولكنهما قالت له أن تزوج فاطمة واستوص بها خيرا ، هو الآن يحب امراته البيضاء ذات الشال الكحلى ، يحبها فهى طيبة مطاوعة ، ويذكر

صاحبه بالخير . . لكن مابال القلوب تعصى أحيانا - كالحمز
النكدة - وتأبى ان تنقاد فى طريق الوقار والكلم الصالح ،
وتتشوق للهدر والكلام الفاضح ، فتميل الدفة ناحية العايق ، حينئذ
تبسم شفتاه عن أسنان أهلكتها الكيوف ، وعيناه اللتان ربما
أضر بهما الدخان المتصاعد من الجوزة ، تلتهب الجلسة بالضحك
وراء حكاية عن زوجته اللصة روايح وعشيقته الجازية ليست
حراما معاشرته للجازية فلقد وهبت نفسها له - على خليل يشحب
من مهارات العايق - لكن الجازية وهبت على أى حال - كنزا من
اللحم الأبيض والعيون المكحولة ، يوازى كنزا وهبت له روايح من
كل شىء يمكن أن يسرق وينقل ، تدور الجازية وراءه فى الموالد ،
فى دهليز ضيق مظلم ، ضبطهما الحاج كريم فزعق فيه فهب من
فوقها مدعورا يعدل عمامته ، ونظر اليه الحاج كريم وهو يتميز
غيطا :

— سايب الناس وداير تلعب يابن الكلب .

وسوى العايق ثيابه ملهوجا :

— حاضر يا عم . .

وانطلق يقدم للناس الطعام والقهوة ، ويبادر الى ما يحتاج الى
اصلاح من كlobات . . يحكى العايق ، ويطرق الحاج كريم تعففا ،
ويكتم ضحكه فيهزه الضحك المكثوم هزا ، ويتقافز الولد عبد
العزيز فى مكانه من السرور .

العايق ليست له أرض فيما عدا قراطين على حافة السكة ،
يرتدى جلبابا ناصعا مثل الباشا ويضع على رأسه شمسية غالية
ويذهب كل عصر ليتفقد «الأرض» والقربة كلها تضحك ، وهو
ليس فلاحا ، انما هو فراش يضىء الكlobات فى المآتم والأفراح ،
وامراته تسرق له كل شىء ، يأكل كل يوم لحما ودجاجا وبطا

مسروقا ، ويتمطر ويلبس أفخر الثياب ولا يأبه لأحد ، يمتلئ قلب
عبد العزيز ضحكا وهو يتذكر العايق واقفا وسط المآثم نحيفا
دقيق الحجم يرتدى قفطانا لامعا من الشاهى وفى يده ابريق القهوة
- لا يسميه ابريقا - بل يقول عليه « سلاحا » يرفع يده الى اعلى
بالسلاح ويده الاخرى ممدودة بالفنجال وينزل سيل القهوة قاطعا
هذه المسافة الطويلة لكنه لا يخطئ أبدا طريقه الى الفنجال ..
وبكل أنفة وكبرياء يمد يده للناس واحدا وراء الآخر بالقهوة من
شرب شرب ، ومن رفض بايماءة من رأسه تجاوزه بحركة رشيقة
من يده ، يطير بها الفنجال الى الشخص التالى دون ان تنسكب
منه قطرة واحدة .. هكذا هو يمشى وسط اكبر المآثم منتشيا
كالديك ومتجهما ينظر الى الكلوبات كأنه شاويش الداورية الذى
يمر على الخفراء الساهرين .

الولد عبد العزيز ، يحب العايق وتكاته وسخرياته بالشركس
وفرهود الناس يقولون عليه كلاما كثيرا فامراته لصة وهو يأكل
ويلبس من الحرام ، الكلام يصك قلب عبد العزيز حينما يأتى
على خليل الى الحاج كريم .. على خليل لا يتكلم الا قليلا ، ويعرف
الناس العناء على وجهه قبل ان ينطق ينكس رأسه وتزداد اكتافه
هزالا ، يحل الصمت وتنصرف الى ناحيته كل العيون وترتبت عليه
عيون الحاج كريم بحنان :

- يا عم الحاج .. العايق كل عيشته حرام .

- يا على .. بيعوص ايده جاز وينور لنا لمبة فى فرحنا
وميتمنا ..

- عيشته حرام ..

- ربنا سايعه فى ملكه .. وفى طريقه .. ما اقدرش
اطرده .

لكن على خليل يلح :

— عيشته حرام فى حرام ..

ويكتسب وجهه صفرة خوف يعرفها عبد العزيز فى وجهه على خليل حينما يجلس مستمعا الى الواعظ ، ذلك العملاق الهائل الذى يقف وسط جمع الفلاحين يصرخ بأعلى صوته ويقول اشياء مرعبة عن نار الجحيم وعن الكاذبين والسارقين والزانيين .. صفرة وجهه على خليل وهو يتكلم تخيف عبد العزيز فلم يحب هذا الواعظ أبدا ، ربما أحب حمارته أكثر ، تلك الحمارة الدقيقة الحجم البيضاء ، كان عبد العزيز يظنها طفلة فى الحمير لكنه عرف انها عجوز وهكذا ، ومع ذلك ظل يكره ان يرى جرم الواعظ الهائل يثقلها حتى ليكاد يكسر ظهرها .. يأمره ابوه فيقتادها رفيقا بها الى الزريبة هناك تقف ساكنة تنتهد الى جوار حمارتهم الضخمة السمراء ويتصور عبد العزيز ان الحمارتين ستفرقان فى حديث ودود بعد خروجه .

يظل الحاج كريم يحاور على خليل حتى يذهب خوفه ، ويعيد البهجة الواهنة الى وجهه ، ويفرح عبد العزيز بدفاع الحاج كريم عن محمد العايق .. ذلك الرجل الأبيض الدقيق الجرم الطغلى الحجم كحمارة الواعظ تماما .. كم يمتلىء قلبه اشفاقا عليهما الحمارة النحيلة والعايق الخطاء ..

وقد يطير العبت بكل وقار فيقف العراقى الاطرش وسط الحلبة بلحيته وعمامته ومسبحته الخشبية الكبيرة الحبات ويحكى ..
... كيف يحكى العراقى الاطرش ..؟ لفة خاصة به ، كلمات مهمشة تكمل معانيها حركات قرذية بيديه وجسده ، وتلعيب للمامح وجهه ، وصيحات وهمسات وقيام وقعود .

لكن يا الله .. لقد كان العراقى الاطرش ذئبا يلبد طول النهار

فوق جميزتهم على رأس الحقل لا يكلم أحدا ، حائر العينين مكشرا منفردا ، لا علاقة له إلا بأمه العجوز السوداء المكرمشة الوجه ، تم سقط مريضا ، وجلس القرفصاء على ظهر الفرن في الغرفة المظلمة في قاع الدار، لاتبرئه أحجبة الكتابين ولا وصفات العارفين، الى ان هبط القرية شيخ سبقته شهرة عريضة في معالجة الأرواح التي تعمر الأجساد وجاءت به الأم الى ابنها ، ومكث الشيخ في الدار شهورا ، قال ان العراقي قد عمل له عملا عويصا مكتوبا على ذرات الردة ، وان الردة التي كتب عليها قد نثرت على اركان الدنيا الاربع، وانه لا سبيل الى افساد هذا العمل الا اذا جمعت الردة المشؤمة وأحرقت، وان ذلك عمل شاق سوف يقوم به أعوان الشيخ وخدامه من الجن الصالحين .. وفي كل صباح كان يأتي بقليل من الردة ليقول هذا جمع من العراق ، هذا جمع من الحجاز ، والأيام تمر ، وهو جالس متربعا على ظهر الفرن لا يفطر الا بالفطير والعسل ، ولا يتغذى الا باللحم والطبيخ ، وفي كل آن يطلق بخورا ويكتب ادراكا تكلف مبالغ كبيرة ، وعلم الحاج كريم بالأمر ، فأخذ عباءته وعصاه - وعلى جانبيه اثنان من الاخوان - وقصد دار العراقي الاطرش ، قلب للشيخ بخوره وكسر آنيته وضربه وطرده من البلد والعراقي ينظر مذهولا ثم يضحك أخيرا ويأخذ الحاج كريم الى الدوار .. ثم الى الطريق ..

ليلتها جلس على الحصر مع المرتلين لا يدرى ماذا يدور حوله ثم بدأ يغمض عينيه ويحرك رأسه يمينا ويسارا مقلدا الدراويش على غير ايقاع وهو يهينم بأصوات غريبة .

ليلتها ضحك عبد العزيز من قلبه على العراقي ، لكن العراقي أصبح شيئا آخر يتكلم ، هي كلمات مهشمة لكنها تفييد بعض المعنى ، وأصبح يعمل في مشتل مصلحة البساتين ، واشترى دراجة وهام بهذه الدراجة حبا ، يزينها ، ويربط فيها الشرائط والأوراق

الحمراء والخضراء ، واذا تلف فيها شيء حزن وجاء للحاج كريم :
- الأكله عيانه بابا ..

فهو يدعو الحاج كريم أباه ، يحبه ويجلس بين يديه ضاحكا يكاد يطير فرحا ، وهام بالاخوان والطريق حبا ، بل انه أطلق لحيته واشترى لنفسه عمامة حمراء ، وحزاما أحمر يدور حول خصرته ويقسم عرض صدره من اليمين الى اليسار ومكتوب عليه بالنسيج الأخضر « لا اله الا الله محمد رسول الله » وهو يهيم بالشموع والبيارق والرايات يشتري منها ما يستطيع ، وفي صباح العيد يزين المسجد ، وفي غبشة الصباح المبكر ترى المسجد غارقا في ضوء الشموع ، في كل مكان مناديل ملونة ورايات ، والعراقي يكاد يجن سرورا ، طائرا في صحن الجامع ، يقبل الناس ، ويصيح مناديا المدد على السلطان .

يقف العراقي وسط الحلبة يحكى حكاية يومه في العمل بطريقته الخاصة يقلد كل الناس ، يضحك الاخوان على المفتش ، وعلى كل من صادفه ، وأغاظه أو سره .

وهكذا ، في كل مساء أمسية يطفأ بعدها المصباح ويعود الناس الى الدور .. لكن الليلة ليست كغيرها من الليالي ، انها ليلة جمعة ، وليلتا الجمعة والاثنين من الأسبوع ليلتان مباركتان تقرأ فيهما دلائل الخيرات وبردة البوصري وتكون حضرة مباركة .

فبعد أن يجتمع شمل الاخوان يتركون الشرفة الى الصالة الكبيرة حيث الفانوس الكبير وحيث الدكتان الهائلتان متقابلتان الى جوار الحائطين ، يجلس الحاج كريم في مكانه من الدكة ، ويتسم لأحد الجالسين :

- أفرش الحصر يا بني ..

- حاضر يا عم الحاج .

وتفرش الحصر البيضاء الناصعة على أرض الصالة المبلطة ..
سمعية البياض هذه الحصر ، تقسم صفاءها أحجية ومربعات
ملونة بالأحمر والأخضر ، حصر جميلة صنعها الرجل الصالح سيد
من محلة منوف .. كسير العينين لا يكاد يرى ، كسير الصوت ،
لا يكاد همسه يسمع لكن بيديه خشونة وصلابة غريبة كأنهما
اظلاف ، ربما ذلك من كثرة ما تد كان السمار على الخيطان فى
مهنة الحصر ..

إذا ما أعجبته تحفة من الحصر ، مصلى أو مفرش دكه طواها
وحملها على خاصرته - على طريقة أهل مهنته - وجاء بها من
قرينته الى الحاج كريم ، طريق طويل ، يقطعه مارا بالناس والحقول
والقرى ، تؤنسه الترائيل والتساييح ، يقرء الناس السلام حتى
العيال الذين يلعبون بالتراب .. وحينما يصل ويضع حمله يجلس
صفيرا ساكنا كحمامة لا يصدر منه الا صوت حسوات القهوة من
الفنجان المراكز الكبير .. ثم ينهض منصرفا .. ويعترض
الحاج كريم :

- ريقنا ما اتبل من لقاك يا شيخ سيد .

- ارادة ربنا ..

- لقمه .. !

- ما فيش نصيب ..

ويحزن الولد عبد العزيز لان هذا الضيف الرقيق لن يشارك
اباه طعامه ، وحينما يصافح يتساءل الولد .. ترى هل تكمن
ارادة الله فى صلابه هذه اليد العربية ؟ ..

فرشت الحصر التى صنعها الرجل الصالح سيد من محلة
منوف على أرض الصالة المبلطة ، وشقتها من منتصفها تماما أرائك
صغيرة واطئة وضعت عليها مصابيح الكيروسين الصغيرة وشموع
المراقى ، وأوان صغيرة فيها جمرات متقدة نثر عليها البخور ،

فانطلقت سحائبه وعطره واصطف الدراويش جالسين فى صفين الى هذه الارائك الصغيرة الواطئة وفى كل حين يفتح باب الدوار ويدلف ريفى يقرىء السلام ويتلفت محاذرا ثم يخلع نعله ويجلس حيث انتهى به الصف ، حتى اذا ما آن الاوان جىء بالصندوق الكبير من الغرفة الداخلية ، ذلك الصندوق الذى تحفظ به نسخ دلائل الخيرات وبردة البوصيرى وكذلك الوسيلة .. وثمة فى ذلك الصندوق أيضا كتب أخرى مهولة ..

يرقبه عبد العزيز محمولا على كتف أحد الدراويش حتى يستقر على الحصر عند رأس الصف من الجالسين .. يا له .. قد ينصرف الناس الى كد اليوم فى الحقول ، وتصبح الشوارع ساكنة قليلة العابرين ، ويثقل الفراغ قلبه .. فيتسلل الى الغرفة الداخلية حيث ذلك الصندوق الكبير يجذب غطاءه فينزلق كاشفا عن اكداس من الكتب صفراء الأوراق منمنمة الكتابة ، يتجاسر وهو خائف مرتعب ، ويخرج من الصندوق كتابا يبسطه أمام عينيه ويتأمل تلك النمنمات المرصوفة فى داب لا بكل ملء صفحات وصفحات ، يتأمل هذه الكتابة ولا يفلح فى استكناه سرها ، انه يذهب الى المدرسة وله كتبه ، صغيرة مرحلة كبيرة الكلمات تحكى حكايات لطيفة عن اولاد نظيفى الثياب وبنات صغيرات ذوات صفائر وشرائط ، لكن هذه الكتابة الغريبة هى همه الكبير ، لا تبوح له الا بالندر اليسير من حرف أو كلمة لا تكون معنى .. كيف اذن تتحول هذه الصحائف الصفراء الى سحر يخلق فى سماء مجلس الاخوان ، حينما يجلس الحاج كريم متربعا فى مكانه من الأريكة خابطا بكفه باطن قدمه اليسرى الراقدة على فخذه اليمنى ..

— المصاييح يا شيخ احمد يا بدوى .. نور المجلس بمناقب الصالحين ..

ويؤتى لأحمد بدوى بكتاب مناقب الصالحين ويقرأ مسرلاً
مترنماً ، تتفجر الصور الضبابية ، وتتحرك فى أربع أركان المعمورة
رجال ليسوا كالرجال ، تدق المسامير فى الأطراف ، وتجلد الظهور
بالسياط ، لكن شيئاً غريباً يظل بعيداً عن العذاب لا يدمى ..
وحيثما تدمع عيون الحاج كريم ، فان قلب عبد العزيز ينفطر فى
محاولة لاصطياد السر الخرافى .. الخبز الاسمر الخشن ، والملح
الاجاج ، والماء العكر ، والاثمال البالية وعيون كالطيور الفرية
لا تحط على مكان .. رجال ليسوا كالرجال ، ليست السيقان
كالسيقان ، انما هى مؤشرات تطوى تحتها المسافات الشاسعة
كالسط ، وليست الايدي كالايدي ، انما هى مؤشرات لتقدير
المقادير ..

يتجاسر عبد العزيز على الصندوق ويستخرج من جوفه مزيداً
يتأمل أغلفته ، فان بعضها يحمل رسوما يعترف منها محتوى
المجلدات ..

تلك بلا شك هى سيرة الهلالية ، وذلك الرسم على الغلاف هو
الحسن بن الربيع وأبا زيد ودياب بن غانم فى مجلس العرب ،
لكم أحب عبد العزيز الحسن بن الربيع ، كان رجلاً حكيماً رصيناً
حزيناً يستشف النكبات فى طيات الايام الآتيات ، واذا يترنم
أحمد بدوى بشعر حكمته فى المجلس تميل الرؤوس طرباً وتأسى ..
لكن مريم الصناع تثير فيه شجناً غريباً تلك المسيحية الدائبة
على اشغال الابرة ، تمخر بها السفن العباب وتباع فى الأسواق
وتدخل السعد على مشتريها بصناعة يدها واشغال ابرتها ..

وذلك القرد الذى يتحول كل آن الى أمير وسيم ، يا للضحك
لقد كبر عبد العزيز بعد ذلك وذهب الى المدرسة وتعلم كيف يقرأ
.. ثم مد يده وتناول الكتاب وطالع كأنما هو فى الفصل لكن
أباه الحاج كريم نهاه !

— ما هكذا يقرأ الشعر يا بنى ، انما يرتل ترتيلا ! ..
كل الكلام فى الصحائف الصفراء عندهم شعرا ، وكل
القراءة انما هى ترتيل وغناء .

ذلك هو حق السرور والأحزان .. الصندوق الكبير ..
وزعت نسخ دلائل الخيرات على الدراويش ..
كل من جلس على الحصر الأبيض الى الدكة الصغيرة درويش .
وحل نوع من الصمت الا مصمصات شفاه أو تسليك حناجر
وصفق الحاج كريم بيده ..

— استبدأ يا شيخ محمد يا كامل ..

فهو أكبر الدراويش سنا وأكملهم وقارا ، فارس الذكر فى
الليالى ، استبدأ بصوته العميق وخلفه جوقة الدراويش والترتيل
ينساب هادئا رتيبا والصلوات على النبى تترى عدد حبات الرمال
وعدد موج البحار ، وعدد ما كتبت الأقلام ، وعدد ما لم تكتب
الأقلام ، وحرارة الأصوات تزداد دفئا وقوة .. حتى تنتهى دلائل
الخيرات وقد تركت الدراويش أكثر رغبة فى تلاوة التراتيل ..
ويصفق الحاج كريم ويميل من الرضى ..

— استبدأ ببردة الأباصيرى يا شيخ أحمد يابدوى ..

أحمد بدوى ، الشاب الذكى ، الجميل الصوت ، قارئ الكتب
للاخوان فى المجالس هو الذى يليق لقيادة جوقة الدراويش فى
تلاوة شعر الأباصيرى ، فالبردة حافلة بالغناء ، وصوته حافل
بالألوان وهو القادر على أن يقود القراءة الى ذرى الانفعال .

— مدد ياسيدى يا أباصيرى ..

عيناه عالقتان بأشعة شاحبة هائمة فى سماء الردهة الكبيرة

— الوسيلة يا شيخ احمد .. الوسيلة يا ابنى ..

روح مشتاقة لا دواء لها الا التراتيل ، تحمل على أجنحة
الاصوات المبروكة الى سماوات الرواء ويجاوب قلب كوته النار .

— اللهم انفعنا بهم ..

ثم يبدأ أحمد بدوى فى قيادة الدراويش يقرأون الوسيلة ؛
كم يحب عبد العزيز الوسيلة وكم يحب ان ينصب مشدوها الى
أبيه الحاج :

— لما ينام الى قلوبهم فارغه .. يفضل الكرام صاحيين ..
يتقربوا لله بذكر أوليائه ..

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، نفس الله فى خلقه ، بضعة
من رسول الله انحسروا من صلبه عن فاطمة عبر الاجيال ، قلة هم
لكنهم أقرب خلق الله الى الله ، يتميزون بالعمائم الخضراء بين
الناس كم يحبهم الحاج كريم وكان أبوه كذلك يحبهم حتى لقد
تزوج واحدة منهم من الشرقية وحينما ماتت طار نعشها يكاد يقتلع
أكثاف الحاملين تريد أن تدفن فى جوار آله الصالحين لكن الجد
الكبير وقف بجوار النعش يبكى ويتوسل لها أن تبقى .. وما
استقر النعش الا بعد أن وعد ببناء مقام له قبة وهلال لاتزال ترى
قائمة فى مقبرة القرية الى اليوم ومن يومها والجد الكبير يتخذ
الشيخ والد زوجته شيخا له وهو له درويش ومريد ، وبعد الجد
اتخذ الحاج كريم ابن الشيخ الكبير شيخا له وهو درويش
ومريد ..

أبيات الوسيلة تعدد الأولياء وكراماتهم وصوت جوقة
الدراويش ملء بالرجاء والمذلة وهو يتوسل الى الله بالأولياء ..
وعبد العزيز يترقب البيت الذى يجىء فيه اسم شيخهم الحالى :

بمحمد بن الفضل معروف السنا
ليث الأفاضل والاماجد والنسدا
يا رب نور قلبه وطريقه
واجعله فى يوم المعاد لنا يدا
يخفق قلب عبد العزيز اذ يتذكر الشيخ ، ويتذكر وسامته ،
وصفاء ملامحه ووقاره وسكونه ..

واذ ينتهى أحمد بدوى من القراءة تبقى رأسه منكسة وحيات
عرق دقيقة تلمع فى أعلى جبينه والحاج كريم يهز رأسه على
الابقاع السابق كأنما دوى القراءة لايزال فى أذنيه .. يحل صمت
طويل لا تأمه الا مسح الجباه بذبول الجلايب حتى يؤذن صفق
الحاج كريم بكفيه ..

– الفواتيح يا شيخ محمد يا كامل ..

احتفال مهيب تختتم به كل حضرة يقوده محمد كامل مغمض
العينين يجلجل صوته مشيراً ومقترحاً ..

– الأربعة الأقطاب .. والأربعة الأنجاب .. والأربعة خلفات
النبي لهم منا الفاتحة ..

وبعده تنطلق الهمسات من الجالسين تقرأ الفاتحة فى ابهام
وغموض ..

– الفاتحة لأهل السماح ..

– الفاتحة ..

– الفاتحة ..

– الفاتحة لآخوان الطريق ، الحاضر منهم والغائب لهم منا
الفاتحة ..

ومن بعض الجوانب يأتي صوت متردد خجول :
- الفاتحة يا اخوانا لفلان ربنا يزيع غمته ..

ربما هو أخ مريض أو مكروب يلزم داره أو هو مسافر لقضاء حاجة ، يغمض محمد كامل عينيه ويصيغ الطلب ويأمر بالفاتحة .
ثم الموتى ... اخوان كانوا زهرات هذه الليالى ، ثم طواهم الموت فى القبور ، ولكن ذاكرة الدراويش لاتنساهم .. يقترح محمد كامل الفاتحة لكل منهم ، هم دار الدوام ونحن فى دار الزوال .. ما أسعدهم ، ختم الله حياتهم ختاماً صالحاً واختارهم لجواره ..

المقبرة فى ذهن كل اخوان الطريق ، دار البقاء السماء الشواهد ، شواهد طينية تتابع صامته .. فى صباح العيد حينما يجلجل صوت المبلغ رائعا يتردد صدها فى المسجد الجامع :
.. فاذا ما ارتقى الخطيب المنبر ..

وسبح لله وهلل وكبر ..
فالواجب على اهل المحضر ..
أن ينصتو للكلام ..

وينصتون حتى ينتهى الخطيب وينزل سلال المنبر صفيرا شاحبا مباركا وتنتهى صلاة العيد ، ويخرج الحاج كريم فى أبهى زينته ، وخلفه الاخوان وجموع اهل القرية صامتين لا ينبسون ، ماضين نحو المقابر لا يصفحون أحدا ولا يتكلمون ، لا سلام ولا كلام قبل تحية الراحلين ، فاذا كان الحاج كريم بازاء المقابر وخلفه الناس وقف جليلا ..

- السلام عليكم ورحمة الله دار قوم مؤمنين .. انتم السابقون ونحن اللاحقون ..

وحينما يهل الحاج كريم ووراءه جموع الناس على المقابر ،
تتسلل النساء عائدات ، هن الجزائى ثواكل الأولاد والبعول ، بتن
ليلة العيد كل واحدة أمام شاهد قبر ابنها أو بعلمها النائم فى التراب
- تؤانسف فى الليلة المباركة ، أما النساء السعيدات ، فقد أمضين
الليلة إفى القرية بين العيال أو فى حضن الزوج .

يتفرق الرجال فى طرقات المقبرة بين الشواهد يحيون الموتى
ويدعون لهم فان دعاء الحى للميت ينير قبره ويوسعف عليه يحيون
ويضعون الجريد الأخضر على القبور ويسقون الصبار . وفى الآخر
يجتمعون جميعا فى مقام زوجة الجد محمد ، وهناك يقيمون حضرة
صباحية ثم يهبون ثوابها للموتى .

وبعد أن تتم تحية الموتى على هذا النحو يصبحون فى حل من
السلام على بعضهم والكلام والتبريك بالعيد ..

هكذا قرئت الفواتح للقريب والبعيد للميت والحى ثم جلجل
صوت محمد كامل ..
- الخاتمة للنسب .

وقرئت هذه الفاتحة بالذات بصوت قسوى جهورى احتراما
وتبجيلا وبنهايتها انتهت الحضرة وتحرر الدراويش من سسمت
الجد الذى اتخذوه للقراءة وبدوا يستريحون فى جلستهم ويثرثرون
وصفقت أحقاق المضغ على الأكف ولفت السجائر وطار سحج
الدخان ودارت العيون بحثا عن النعال ..

وهكذا فى كل مساء من ليلتى الاثنين والجمعة حضرة مباركة
تقرأ فيها دلائل الخيرات ثم بردة الأباصيرة ثم الوسيلة ثم الفواتح
فى الختام ..

لكن هذه الليلة ليست ككل الليالى .. ذلك انه ذات عصر
كان الحاج كريم جالسا يشرب القهوة فى شرفة الدوار .. اذ أقبل

عليه سليم الشركسى النجار لابسا جلبابه الحريرى ولبدته البيضاء
وحذاءه البرتقالى الطويل الرقبة وعلى وجهه بقايا من غبار الطريق
ومسحة سرور تعرف على وجوه الأييين من الأسفار ..

ان سليم الشركسى ليس نجار سواقى او نوارج انما مهنته
صناعة مصاريع الأبواب والشبابيك وايدى السكاكين ومزاليج
الأبواب ، ولذلك فعدته لامعة صقيلة ولباسه مهندم ومزاجه
عصبى حاد .. وفيه الى جانب ذلك شىء يخيف ، ربما فى ومضات
عيونه ، او فيما يقال عن جد الشراكسة الكبير من انه كان فاسد
الدماغ يدمن المنزول ويأتى بفرائب التصرفات وعجيب الأقوال ،
وربما شىء من ريح هذا الجد يتفرع فى عروق الأبناء ووالحفدة اثر
لاستطيع امساكه لكنك تحسه وتخافه ..

وامرأة سليم الشركسى النجار فارعة بيضاء ولدت له ستا من
البنات وشوق الرجل لولد من صلبه زاد طبعه عصبية وحالطت
صوته نغمة قانطة وشده الطريق اليه .. وجابت امرأة النجار
ولدا أسموه شحاتا ، فكلنا شحاتين وان هى الا لقيمات ومتاع
الدنيا قليل .

صعد الرجل الدرجات ، على وجهه غبار الطريق ومسحة
السرور والحاج كريم عمره ما انتظر ان يقرأ السلام ، انما يسادر
مرحبا بالقادمين ..

— مرحبتين يا شركسى .

— وسلامين ياعم الحاج ، واحد من عندى وواحد من عند
الحباب .

وينغم الحاج كريم السرور الطائر حول اللقاء بخبظات كفه على
باطن قدمه ..

— هيه .. هيه .. هيه

يستعجل الحكاية والشركى يلم جلبابه الحريرى بحدر
ناصر هفهاف يلبسه شتاء وصيفا منذ ما يعى عبد العزيز يلبسه
فى الاسفار والأعياد واحتفالات الاخوان يخرج حق مدغته لا ينكش
الدخان فى الحق بقشه من الأرض كسائر الناس بل بمسمار جديد
مستقيم مدبب يعزم على الحاج كريم .

— قرئت لك الفاتحه فى السلطان .

— مدد ياسيدى يا سيد .

بخشوع نبرة تصك القلب

— وملت على الشيخ على .. الفرغ امتى .. قاللى الليلة الكبيرة
مثل النهاردة ..

وهلل الحاج كريم كانما رأى الهلال اول الشهر العربى ..

— مدد ياسيدى ياسيد مدد .. ناديت علينا يابو فراج وآد

احنا جاين ..

بدات الأنفاس المبروكة تسرب فى البلد وتوقظ القلوب ..
صدر عبد العزيز ضائق بقلب كالعصفور ، السيد البدوى ينادى
أولاده أو هم فى أسفارهم يدورون يدبون على البلاط المبلول فى
المسجد الكبير ويسألون الخدم متى الفرغ الكبير .. ؟ وتترى الأيام
ثم ينتشر الخبر فى الجرائد عند ذلك يكون الوعد اليقين ..

وفى هذا المساء كان العراقى الأطرش يصعد الدرجات الى
الشرفة ملهوجا عجولا ، وقبل السلام يدفع جريدة مطوية الى يد
الحاج كريم ويهتز كيان عبد العزيز ضحكا ، ويلكر أحمد
بدوى جنب العراقى .

— سلم الاول يابن الكلب

وعراقي الاطرش ينظر الى شفتي احمد بدوى ويعرف انه
يشتمه فيقول بكلمات مهشمة ..

— بس متقولش يابن الكلب .

ويضحكون جميعا ويضحك العراقي معهم ، ثم يقفز جاريا الى
المصالة ويستحضر كرسيًا يجلس عليه بين يدي الحاج كريم وهو
لا يزال يضحك ، ويطوى الحاج كريم الجريدة ويضعها بجوازه على
الدكة ، وبتحريك شفتيه وحركات يديه يفهم العراقي انه قرأ الخبر
وعرف ما فيه عصرا ..

حيث كان يصب قهوته من الكنكة النحاسية الصفراء في الفنجان
المزركش الكبير ، اذ طلع عليه الشيخ محمد الجمل كاتب الزراعة
مرتديا جلبابه البوابلين الافرنكي وطاقيته البفتة البيضاء ، وفي يده
المسبحة الكهرمان تدور بين أصابعه بسرعة كبيرة جدا .. لم الولد
عبد العزيز طرف ثوبه أدبا ، فان الشيخ محمد الجمل هو معلمه
وعلى يديه لقن مبادئ القراءة والحساب ، وربما شيء في عين كاتب
الزراعة المطموسة بالبياض يخيف ، لقد كان الناس يتساءلون
طويلا هل يستطيع الشيخ محمد الجمل أن يلاحق بالتسبيحات
حركات حبات المسبحة الدائرة بين أصابعه بسرعة غريبة ، أم يختلط
الكلام ويصبح لغوا لا ينبع من القلب ..

والحاج كريم يقول :

— سر القلب عند الله .

لكن الناس بقوا يتساءلون وآثر الاب ضيفه بالفنجال الاول من
قهوة العصر مليئا مختوما ، وفرد هذا جريدة كانت بيده مطوية ..

— يا عم الحاج .. اذن الله بهولد السلطان

وخبط بأصبعه على موضع الخبر من الصفحة

— اقرالى .. اقرالى .. كتابة الجونال بتزغلل عيني

.. (تقرر ان يكون الليلة الكبيرة ..) ..

وبعد ان فرغ اخذ الحاج كريم الجريدة وقربها من عينيه ، ثم
ابعدھا عنها لآخر ذراعھ ، وقرأ لنفسه محرکا شفتيھ ، ثم ركن
الجورنال بجانبه وصفق بيديه بعزم ..

— شئت ولبينا .. يا سلطان

ثم يترنم مسرورا

ياراحلين ليمة باياد

شو قتمو يوم الرحيل فؤادى

هكذا ينادى السيد البدوى اولاده، اما ساكن البرية فيما بعد
القرين شرقية ، سيدى سليم ابو مسلم العراقى ، الذى اتى من
العراق الى ارض مصر الطيبة فى بيارقة ورجاله ، واقام منفردا فى
الخلء، وكما كان مجلسه وسط الاخوان لايزال، ضريح واطىء منهمدم
الحيطان، وحوله بضعة قبور ، وتتناثر اكواخ ريفية هنا وهناك كأنما
تقوم على خدمة المتسامرين .. وفى الاماد الشاسعة حوله تتنفس
الرياح انفاسها الطلقة الجبارة .. فاذا ما كان المولد زرع الخلاء
ناسا وخياما وطبولا وخيولا ولحوم جديان وتاب السارقون والقتلة
وتجاوبت الافاق بالتراتيل ، يالهذا السيد ويا لسيرته الفسرية فى
نداء اولاده ..

— فى مولد العراقى يجى الراجل ابو جريدة .. مش كده ؟
اسود كانه مصنوع من اطر السيارات ، مفتول العضل كانه مهر
ادهم مستوفز على خلفتيه ، يسير ، بل يهرول حافيا وفى يده
جريدة طويلة ، فى طرفها قطعة من الورق مكتوب فيها موعد المولد
ومختومة بختم شيخ السجادة ، يدور يحوب المديريات السبع مناديا
على مولد العراقى ..

ومع استمرار البلح يترقبه عبد العزيز وذات ضحى ينشق عنه
الشارع مارقا كالفتون وقبالة الدوار يقف وينادى على المولد ثم
يصعد الى الشرفة قافزا الدرجات ملبيا دعوة الحاج كريم ويقدم
الطعام فيلتهمه بنهم يشرب اللبن الرائب من حافة الاناء ثم يهب
واقفا ويستبقه الحاج كريم ..

— استريح يا رجل شوية

— ما أقدرش يا عم الحاج .. فاضل اربع مديريات ..
ويختفى مع الطريق سالبا لب عبد العزيز ووجه الحاج كريم
فائض بالرضى ..

— مدد يا سيدى سليم يا عراقى

ومدد يا بنت الحسين .. يا نفيسة الدارين ..

كان عبد العزيز قميصا نحيلا تنام يده فى يد ابيه كعصفور أزغب
يستريح فى كف طرية دفيئة وهما أمام ضريح السيدة نفيسة ،
ويعد عبد العزيز بصره من شبك النحاس عبر زجاج شفيف صقيل،
ويبصر الشفوف تتدلى حول رأس القبر — زينة عروس ليلة العرس
— أحبها عبد العزيز وعرف عطرها الطيب .

ودائما يكون صباحا عذبا عندما يأتى ساعى البريد وينزل عن
حمامه قبالة الدوار ويسلم بأدب على الحاج كريم والخطاب دائما
من عند حسن . افندى الساكن فى شارع أمير الجيوش وزوجته
البيضاء الطيبة وابنته الرضيعة الملىء جسدها بدمامل صفيرة
يقفز قلب عبد العزيز ، ويدفع الحاج كريم المکتوب الى أحمد بدوى .

السلام عطر قلوب الاخوان والاوان آن البيت كبير ربع قديم
الحب فراش الاحباب والوساد .. وكلنا فى رحاب عروس الاولياء
والحاج كريم يكاد يجهش بالبكاء .

— اللهم لا تبعдна عن طريقك يا كريم

كيف يكون حال العالم من غير هذه المصاييح .. ؟

كان الحاج كريم متربعا على مكانه من الاريكه والدراويش صفاء
على الحصر البيضاء بازاء صف الاراتك الصغيرة امام مصاييح
الكروسين واوانى البخور وفى ايديهم نسخ دلائل الخيرات .

— ياولاد .. الجمعة الجايه نعمل الحضرة فى رحاب السلطان

ضحكت الوجوه الوضيئه بالسرور .. مدد ياسيدى ياسيد ..
ومدد يابو فراج

صفقت احقان دخان المضج على الاكف الايام القادمة واعدته
بالمباهج نضج الشوق تحت وطأة الظهيره فى ايام العمل الشاق
المتتابعة .. ياراحة الروح والقلب ياسلطان .

— المعاملة ناشفة اوى ياعم الحاج

احمد بدوى اجرا الدراويش على الحاج كريم .. يخطب يده
بنسخة دلائل الخيرات ويفكر ... لقد اخفى خمسين قرشا فى
حق فى الحائط لكن امراته عثرت عليهم واخذتهم .. ماذا يقول
لامراته المدللة ..

— تفرج يابنى .. تفرج

القلق الذى يرين كالسحب على الوجوه ويحلق على المجلس
لا يبدده الا كلام الحاج كريم العميق المؤمن ..

— تفرج يابنى .. تفرج

دائما (تفرج) تحزب الأزمات ونشتد تهرب النقود الى قيعان
بعيدة، ولكن فى الزمن المعلوم تشد الرحال الى المفاصل .. ويطرق
الحاج كريم قليلا أطرافه تنشر الصمت وتخلق بين — الحاضرين
التشوق للكلام ..

— والله .. وحق من اماته

الشيخ الكبير كانوا عائدين من مولد سيدى ابراهيم الدسوقي
قطارا تركوه وقطارا ينتظرونه فرش للشيخ على الرصيف فتمدد .

— يا حاج محمد

— نعم يا عمى

— عاوزين كازوزة

— عالحديدة .. يعلم الله يا عمى .. يادوب تذاكر الرجوع

— يا حاج محمد .. عاوزين كازوزة

ويشرب الشيخ الكازوزة

— ادفع يا حاج محمد

— منين يا عمى ..

ويغضب الشيخ ويشور ويطلع بالزجاجة الفارغة بعيدا فتطير
كانما نبت لها جناحان تطير وتقع وتتقافز الى أن تستقر واقفة على
قضيب القطار ، سليمة لا تضطرب ولا تميل يهلل الدراويش للكرامة
ويتقاطر الناس وتنتشر الحكاية ويزيد الزحام وتتكدس قطع العملة
الفضية على أفراس الشيخ الممدد الناس ذوى الحاجات يقبلون
يده ويطلبون الدعاء ..

— ادفع ثمن الكازوزة يا حاج محمد

وقتها كان الحاج كريم غلاما صغيرا يتقافز هكذا فى رحاب
الطريق .. لم ير عبد العزيز اشياء خارقة مثل هذه ، الشيخ
الحالى شاب وسيم مبارك لكنه لا يملك مثل هذه الكرامات العظيمة
ليت عبد العزيز رأى الشيوخ السالفين العظام مثل ما رأى الحاج
كريم وشاهد ، الشيخ الحالى سليل هؤلاء الاقطاب لكن الناس

تقسو قلوبها مع الزمان وينقص الله البركة من الوجود كل أن بمقدار .. لا ملاذ سوى الطريق .. خير كله خير .. احمل خرجك وعصاك وخبائك واقصد السلطان فهكذا فعل الرجل الصالح ودرويشه وفى الرحاب دق العصا ونشر الخباء وأوقد النار ونصب الاناء وقال له الدرويش ..

— يا عمى .. العدس قليل والاكلون كثير

ويقول الرجل الصالح :

— يا ولدى اذا كان السلطان قد ارسل لنا اولاده ولم يرسل لنا عدسا فأترد لهم فى الماء ..

ويزيد الدرويش الماء الى الاناء دون عدس فيكون ثريدا ما كان أشهى منه فكيف اذن يترك المريد الباب ليتسكع بالحيطان (المعاملة ناشقة) حقا لكنها سوف (تفرج) ..

سوف يرسله أبوه لينادى المتولى ساروخ ويأتى الرجل ليجلس على الدكة بجوار الحاج كريم نحىلا خشنا متحفظا جهما قليلا وقلب عبد العزيز واجف .. أشفاقا ..

— عاوزين ارشين يا ساروخ ..

— حاضر يا عم الحاج .. على عينى ..

ويأتى كاتب البلد طويل طرى العود واليدى ابخر ذو منظار يتدلى على أنفه .. رجل غريب يظل ، يجوس الدور يدخل ويخرج ، يجلس متربعا سائدا أوراقه على ركبته ويكتب مضيقا بين جفنيه ، يكتب فتنتقل الأرض والبهائم بين الناس والناس ينظرون اليه .. أين كان .. أين هو ذاهب .. من باع من اشترى .. وشرخه الأرض الرفيعة ملك الساروخ بجوار ملك الحاج كريم تزداد عرصا كل عام على حساب أرض الحاج كريم ..

القلق الذى يتكور يد العزيز لا تذيبه الا كلمات ابيه
العميقة المؤمنة وثماناً الطلبة ..

— مالناش فى نفسنا .. احنا حراس ..

وكل ما فى الدور للاقطاب ، الام والفصيل وما تقع عليه عيونهم
يذبح دون تأخير ، فاذا ما اصاب درويش خيرا جاء يزف البشرى
الى الحاج كريم .

— يا عم الحاج .

يقف الرجل خجولا فرحا بين يدى الحاج كريم .

— الجاموسة ولدت .

— مبروك عليك يا بنى .

كم يفرح الحاج كريم بالخير للاخوان .

— كفاية على اللبن .. العجل لاهل الله .

— الله يخلف عليك يا بنى .

وتكون ليلة رائعة فى دار ذلك الدرويش ، لكن هذا انما يكون
فى زوره الشيخ السنوية للبلد ، ليال مباركة ليس ابقى منها ابداً ..
يخرج الاخوان جميعا لاستقبال الشيخ على المحطة ، وعودون
على الطريق موكبا جليلا ، الاخوان وضيوفهم الاعزاء من الترقية
الشيخ فى المقدمة ومعه الحاج كريم ، رجلان جمعهما النسب
والطريق ، ووراء الرجلين يمشى الموكب ، كل رجل من الاخوان
يرحب بأحب الضيوف الى قلبه واثريهم عنده ، المستكاوى يكرع
بالضحك مع العايق، وعلى خليل يتصب بكليته الى حسن افندى،
والشيخ عباس انفرد بالشركسى النجار ، وصانع القهوة يبيتسم
مسلماً قباده لمحمد كامل ، وصانع الرقى زائع العينين لا يكف عن
التسييح ، الطريق مفروش بأحاديث الترحيب والمودة ..

ليال مباركة ليس أبهى منها أبدا ، كل لياله بدعى الشيخ ورهطه الى دار من دور الاخوان والمريدين تذبح النذور ويقدم الطعام ويقام الحضرة والاذكار ويكون سرور ترتج منه الحيطان .. لكن ليس أبهى من الليلة التي تقام فى دار على خليل أبدا ، يالها دار على خليل ، ما احبها الى قلب عبد العزيز ما تكاد تخطو من العتبة منحدرها الى وسط الدار حتى تجد السلم الطينى يدعوك صاعدا بك الى السطوح ، تندفع تجاه السلم لا تبالي بفتحة كهفية جنب الباب ، ربما هى غرفة المعاش او بها الفرن وموئل العيال فى ليالى الشتاء ، ربما ، لم يدخلها عبد العزيز أبدا ، وانما يندفع منها عيال على خليل العلولين وامراته الطويلة الفتية المتوردة الوجه كشرخة أرض خصبة ..

منى موكب الشيخ الى دار على خليل وثمة امام باب الدار باحة صغيرة تحيط بها الدور الواطئة دور قمبئة ليست شامخة كتلك التى تقع على الشارع الكبير ، دور قمبئة يصعد العيال والنساء من قيعانها الى الشارع ليروا موكب الشيخ القادم نحو دار على خليل ..

ويصعد الشيخ وورواه الاخوان على السلم الطينى الى السطوح ، مكان لطيف فرش بالحصر البيض وتطريه ربح بحرية ، وفى الشباك صينية النحاس فيها قلال جديدة مغطاة بأغطية من البلاستيك حمراء وخضراء وليمونية احضرها معه من طنطا .. ما أنق على خليل والطف حاجياته .. وفى كل آن يصعد رجل او امرأة السلم يحمل طفله الصغير ويأخذه منه على خليل ويذهب به الى الشيخ .. دار على خليل فى حارة فقيرة ، يحبونه ، كان هو الآخر فقيرا ثم فتح الله عليه لا يستطيعون اقامة الليالى ودعوة الشيخ ..

فاذا ما حل بدار على خليل اتوا بالعيال طالبين البركة يأخذ على خليل العيال الى الشيخ يمسح رؤوسهم ويتفل فى أفواههم ، وفى الفرفة يعكف كاتب التعاويذ والتمائم على كتابة الرقى والأحبة للنساء العواقر واللاتى يموت أطفالهن ، زيارة الشيخ لدار عى خليل عيد للحارة كلها ، وهو واقف يجول بنظرانه ربما احد من ضيوفه يريد شيئاً ويهيب به الشيخ بلسانه الشرفاوى .

— اجسد يا على .. استريح .. احنا مبسوطين .. مش ناجص حاجة ..

يبتسم على خليل خجلاً وينزل الى وسط الدار .. هناك يذبح الحاج كريم الذبيحة وهى تتلوى بقوة خارقة فى وثاقها ، والرجال حولها يشدون اطراف الحبل بحول وانصراف ورهبة ، يضع ركبته على رقبته ، لا يكون وجهه هكذا الا اذ يذبح او يحرق او يؤدب المرأة او الولد ، تمرق السكين فى الحلقوم مما يلى نهاية الفكين ، ويطرطش الدم الأرض واطراف جلايب الرجال ، وتبرطش البنات كعوبهن فى دماء الذبيحة ، دافعات ذبول الجلايب عن السيقان والجسد ينتفض على الأرض والحاج كريم يبتسم وحوله الرجال .. ويخبط بصفحة السكر على الجسد المرتجف ثم لا يصبر ، يتناول خلفيتها ويثقبها من ثمة يولج عمود الحديد ليفسح بين الجلد واللحم مجالا ، سوف تنفخ ثم تعلق فى السقف ويقف الحاج كريم امامها يسلمها ويقطعها .. انه يعرف الأشياء جميعا ، شملول فى كل حرفة ذلك الاب الكبير ..

الباحة أمام باب الدار وقدة من النور زرعت الأرض عيالا والأسطح حول الباحة نساء وبناتا ، والعايق فى قفطانه الزاهى وغمامته مثل الباشا — لولا ابرة التسليك المرشوقة خلف اذنه — يدور ينظر الى الكلوبات جهما فاذا نعتت عين واحد منها

انى له فورا بالسلم الكبير وقفز عليه كالقرد وعالج الكلوب مكشرا
كانما يلومه او يقرص اذنه فيتدفق النور والطنين ..

فرشت الحصر البيضاء امتداد شاسع من الفرش المبوثة اتي
كل رجل وكل امرأة من داره بشيء انضم الى البساط الكبير ..
الناس يحبون على خليل يحدقون به ويكلمونه ضاحكين ، وجهه
شاحب بالضوء الابيض انه طبيب وديع يدفع الاطفال برفق وهم
يتزاحمون شكسين ..

شق الفراش الشاسع بصف الاراتك الواطئة صفان هائلان
من الدراويش ، الليلة هم كثيرن ، كثيرون جدا رجال جاءوا من
اعماق الدور على وجوههم جدية طبية ، يخلع الرجل نعله ويطويه
ويضعه امامه على الحصر ويجلس خاشعا والصفان يطولان
تقلصت الاراتك الصغيرة واصبح صفها قصيرا بين العدد الكبير
من الناس ..

العراقي يتعجل السرور لابسا عمامته الحمراء ، وحزامه
الذى يدور حوله وسطه ويشق صدره ويحمل فى يده مبخرته
وينادى بأعلى صوته على المدد من السلطان ثم يضع مبخرته على
الأرض وينخرط فى ذكر عنيف يطوح بنفسه يمينا وشمالا مع
ايقاع صوته ..

— الله حى .. الله حى ..

ثم يكتشف انه وحيد فيضحك ويضحك الناس والعيال
والنساء ، ينطلق يجرى حاملا مبخرته ضاحكا ومناديا على المدد
من السلطان ..

والعيال بعيدا يقيمون اذكارا صغيرة زائفة تدور للحظات ثم
تنفض لتنبت فى مكان آخر بين الضحك والجري والتجاذب
والتقاذف بما يقع عليه اليد . أما الصبيان العاقلون فيجلسون

صفوفا صفوفا متتالية خلف الدراويش صفوفا تغطى الفراش
حتى تتجاوزته وتفتersh الأرض الرطبة من المساء .. اما النساء
ففى الاطراف قليلة الضوء وعلى السطوح تبرق عيونهن وحليهن
وهمسانهن وضحكاتهن اطارا بعيدا غامضا لحضرة المساء ..

يأتى الحاج كريم فيحل الصمت ، يمشى الهوينا فى عباءته
وعصاه تبعثر الهسهسات .. يقف ساكنا لحظة يكاد يقف قلب
عبد العزيز عن الخفقان ثم يجلجل صوت الحاج كريم واضحا
كان الله يتكلم ..

— اباريق نور نازلة من السماء على دارك يا على يا خليل .

ويجمد وجه على خليل كأنه مصنوع من الشمع وتنطلق
زغرودة نشق السماء كاللهب ويقول الحاج كريم بصوت خافت لكنه
مسموع :

— استبد يا شيخ محمد يا كامل ..

انه اليوم فى أبهى زينته لف شالا أبيض على طاقيته من
صوف الفخم الأحمر وسدل لفاعا على كتفيه ووجهه حليق وكتفاه
عربضان كأحد أولياء الله فى صور تباع فى الأسواق ، أغمض
عينيه ، اكتسى وجهه مهابة جليلة نم خرج صوته عميقا ووراءه
كورس الدراويش فى تدفق هادىء رصين .. « أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى أفضل صلاة
على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله عدد معلوماتك ومداد
كلماتك » .. عالم شاسع صحارى ورمال وبحار وانهار واشجار
وسحب وذرات وكتل فى صدر كل مخلوق — مهما دق ولو كان
هباءة طائرة فى شعاع شمس — قلب دافىء نابض يسبح باسم الله
ويصلى على أسعد مخلوقات الله .. ومع الرحلة القريبة فى أقطار
الكون فى الافلاك البعيدة وفى الأعماق السحيقة تضطرم القلوب

بالاشواق وتلتهب التلاوة وتسقى الزغاريد أجوار الفضاء .

ويتميز بين أصوات الكورس صوت احمد بدوى الرفيع النافذ
وببدا يفرض نفسه بين طيات نهر الكورس المتدفق ويميل بجماع
الأصوات نحو مذهب مياد بالتلوين والدلال وتبدأ الكلمات تتجسد
وتتضح تبكى الحروف ويتدال الكلم أو ترقص المقاطع فى المعنى
الباهر .. وما تنتهى دلائل الخبرات الا وقد خفت القلوب حتى
لتكاد تطير بالأجساد فى النور ..

ماكر والله احمد بدوى لا يستلم الدراويش الا عرقانين محوحي
الصوت من قراءة الدلائل يأخذهم الى آفاق البردة اللانهائية
والنساء سكرانات على السطوح والرجال مبادون فى الصفين
كالاعواد والشيخ يطل من الشباك ..

— تانى يا بدوى .. تانى يا حبيبى .. هواك ونغماتك
يابدوى .. من عند الله ..
فى احدى يديه نسخة البرده ، يده طائرتان فى الهواء ،
جسده يميل ويعلو ..

يا نفس لا تقنطى من ذلة عظمت

ان الكبائر فى الففران كاللعم

ذات الرجفة التى دبّت فى قلب عبد العزيز حينما رأى
الكلمات تدب فيها الروح اذ يسقط عليها النور أحمر وأخضر
ملونا بألوان زجاج المسجد وكفه مخنوقة فى يد والده الذى
يشير له ..

— شايف يا ولد .. اقرأ .. البرده كلها مكتوبة على جدران
المسجد ..

مسجد الأباصيرى فى الاسكندرية وريح البحر تهب مألحة
والحروف يقظانة فى الضوء الملون ..

يالانمى فى الهوى العذرى معذرة
منى اليك ولو انصفت لم تلم

فى صوت احمد بدوى بحة المداحين حينما يتصدرون ردهة
الدوار فى المساء والناس زحام جالسين عند أقدامهم وصفق
الدفوف يهز الجدران وقلب عبد العزيز أكثر ارهاقا من دف محمى
على النار اليلة مداحين هذه أم ذكر حضرة امام باب دارعلى خليل،
أم نور الفانوس يزدهى بالسرور لاقتراب فرح السلطان .. ؟

رفعت الارائك الصغيرة مما بين الصفين نهض محمد كامل
واقفا فوقف الصغان جميعا ، أسرع العيال والصبيان وتسللوا بين
الأرجل والأجساد وافترشوا الحصر جالسين بين الصفين الواقفين
الكلوبات ابهى ماتكون نورا والسسطوح مثقلة بالبسات وزغاريد
متفرقة متعجلة سرور الذكر الوشيك . .

على راس الصفين وقف السنهوتى عازف السببب وصاحب
زار القرية نحيل كان ثوبه مقام على خيزرانتين مياتين ، شاحب
كأنه ميت واقف غائر العينين لا يفيق من الأفيون الا لينفخ فى
السببب كيف تزوج السنهوتى من هذه المرأة الزنجية السوداء
الضخمة تمسك دفا هائلا وتقف الى جواره ضاحكة عن أسنان
صحيحة ناصعة البياض . .

توسط محمد كامل الصفين ورفع يده لاعلى هاتفا . .

— الله . .

وانهى التنهيدة العميقة بصفقة قوية على كفه . . هكذا بدا
الابقاع هادئا عميقا تتردد فيه كلمة الله رتيبة متباعدة على تقاسيم
ينفخها السنهوتى فى السببب وعلى وعشات من شخايل الدف . .
انزاحت اكمام جلباب السنهوتى الهفافة الناصعة البياض عن
زراعين نحيلتين مشعرين وأغمضت المرأة عينين ساجيتين مع

الايقاع .. هذان الاثنان السنهوتى وامراته ، هذا السببب الذى لا يجاوز طوله شبرا وهذا الدف الكبير ياسران النساء فى القرى البعيدة فيأتين متشحات بالسواد حدرات مترددات يخضن الحوارى اللتوية حتى يصلن الى دار السنهوتى حيث يقام الزار كل اثنين وجمعة من الاسبوع ..

اصبح الذكر جنونا، محمد كامل فى الوسط طائر الدرامين يصفق كفاه بقوة وفى ايقاع سريع محموم ، السنهوتى يصب فى السببب روحا مجنونة .. طار غطاء راسه وطار ت خصصات شعره السوداء، وجسده النحيل يرتجف مع الايقاع، نبحات صادرة من قلوب عشرات الذاكرين معا على الايقاع تصك الحيطان ضربات الاقدام فى الأرض تهز القرية من جذورها صفان من الأجساد المتصببة بالعرق يميلون معا يلتون معا ، يستقيمون معا يقعون معا ينهضون معا فى نسق مزلزل لا يختل ، امرأة السنهوتى تضرب قلب الدف بكف سوداء ضخمة ، قلب الدف المرهف على النار ، ليس فى الدنيا كلها سوى صوت الدف والسببب ونبحات صدور الذاكرين ودق اقدمهم ، صوت جبار يسحق كلكلة كل قلب ..

عبد العزيز يحس بالخوف ، لكنه خوف رائع كذلك الذى أحسه عندما كان عند عمته فى القرية البعيدة ، هناك زوجها أبوه فى دار كبيرة طرقاتها طويلة معتمة الجد الكبير لاهل الدار مدفون فى وسطها ، وهم يضعون على القبرة لمة لاتطفأ ابدا وحينما يمرون ينظرون ناحية القبر محاذرين ، قوم غير عاديين ، ابتهم الكبيرة العانس جسدها عامر بالأرواح آتوها بالدفوف الكبار وبدأ الصك الرهيب والخوف الرائع ، ضمت العممة عبد العزيز الى صدرها امسكت ذيل جلبابه وعقدته عقدة قالت ان ذلك يحميه من الأرواح .. عبد العزيز يود الآن لو يعقد ذيل جلبابه ليحميه من صك الدفوف الرهيب .

ورفع محمد كامل ذراعيه لأعلى هائفا لختام الذكر .

— الله ..

ارتعشت شخايل الدف حتى سكن ، تسحبت أذيال السبب
انطلقت عواصف الزعاريد من السطوح . وقف الذاكرون يكادون
يسقطون اعياءا .. عمر فرهود انجذب فما يستطيع احد ايقافه
أو السيطرة عليه .. العائق الخبيث يقول :

— سيوه .. مش حيسكت الا لو شافته مراته .. هو قايل
لها أنا بنجذب فى الذكر وهى مش مصدقاه ..

ويضحك عن اسنانه السوداء ، السنهوتى يمسح بمنديله
الأبيض نابا القصر المثقب الذى بلله لعبه لكن عراقى الأطرش
لا يزال منهمكا فى الذكر وحده لم يسمع بانتهائه ، نبهه واحد ،
جلده من ذراعه ، حينما اكتشف الوضع شتم الناس جاريا فى كل
اتجاه ليدارى كسوفه ..

حيطان ردهة الدوار عليها بصمات ليال وليال ، وصوت أحمد
بدوى فيه عطر ليال السرور ، عطر الطريق ..

— حرما جميعا يا مشايخ ..

— التجلى كان نازل الليلة ..

— نفحات السلطان يا مم ..

— ربنا ما يحرمنا من رحابه ..

وأخرجت المناديل لتمسح حبات العرق من الوجوه ، وفى
همسات مجعدة قرئت الفواتح للاخوان البعيدين والقريبين والأحياء
والميتين ، الاخوان هم صحبة الحياة ورحلتها القصيرة الدنيا من
غيرهم بطعم التراب ..

المستعجل على النوم قام وبقي ساهرا مع الحاج كريم الخلاء
من اخوان الطريق .. لفائف الدخان واحقاق المضغ .. تمددت
السيقان على الحصر ما التزام الوقار وقد انتهت حضرة
المساء ..؟ يدور الكلام هينا حالما ..

— السفر باذن الله يوم الأحد ..

السفر الى السلطان ، الطريق ، طنطا بيت الخدمة ، لقاء
الإخوان . الفرح وليلته الكبيرة ، الكلام يترقرق يصنع حلم الأيام
القادمة فى ضوء الفانوس الذى بدأ يخفت ونعس ذباته ..

آخر المنصرفين هو دائما احمد بدوى ، يتسم .

— تصبح على خير يا عم الحاج .

وحينما يفلق وراء انصرافه باب الدوار الكبير تصبح الردهة
موحشة يثوب الحاج كريم الى الدار فى يده المصباح والعصا
وخلفه عبد العزيز .. الليل هدأة مخيفة تسلم الى النهار ، نها
الجهمين الصائحين ، لو كانت سهرة المساء شيئا لا ينهى .. ؟!

الخبير

الغرفة مخنوقة بانفاس النائمين ، الضوء مخنوق على الحيطان
بتهاويل الظلال ، والمصباح عين ناعسة على الحائط ، عمدان السرير
النحاس الأربع الشاهقة تجثم على حيطان الغرفة وسقفها ، الأنفاس
تتردد فى غير ما نظام ، حيوان ضخم راقد تحت اكداش النعاس ،
حببات العرق على الجباه ، - الاجساد المتعرية من الزحام والحرارة
العالم الفامض المهول بالظلال والعتامة ورائحة اناء البول الحمضبة
يتسرب الى دماغ عبد العزيز فى نومه يهوش احلامه ، هولة ضخمة
ذات شعر تمتد لتخنقه ، يستيقظ مروعوبا يزيح يد والده السمينه
المشعره المنداه بالعرق عن وجهه ويدور بعينيه ، حمدا لله انه حلم ،
اغمض عينيه مره أخرى لكنه يقظ تماما ، تلملم الحاج كريم بجوار
ابنه عبد العزيز على السرير ، استقام جالسا ، سوى جلباب النوم
على فخذه العاريين انحدر نازلا من على السرير ، على الأرض الأولاد
متكومون على حصير ، داس بين الاجساد بجذر حتى وصل الى
مشجب الملابس خلع جلباب نومه وقف عاريا تماما ، ظهره تجاه عبد
العزيز فتح الولد عينيه ، الاب العارى ، ثنيات اللحم عند خاصرته،
اغمض عبد العزيز عينيه مره أخرى ، لبس الرجل ثيابه ثم خرج الى
المسجد .

عبد العزيز يتقلب قلقا أخواته يتقلبن على الحصير اغمض عينه
حتى لا يرى عريهن ، دفن وجهه فى الوادة والاحساس بالاثم برعبه ،
سمع صوت الأم .

- اصحى يابت انت وهيا .. الفجر لاح .. وانا خبيز

قمن جالسات يسوين ملابسهن ويفركن النعاس من عيونهن
وبفطين الصغار من العيال ، نزل عبد العزيز من على السرير ، لبس
الطاقية فى رأسه زر طوق جلبابه وخرج الى وسط الدار ، ضوء
اللمبة ذات الشعلة ثابت لا هواء يحركه وحوله هالة صغيره من النور
رفيا عدا ذلك الظلام والسكون ونجمات الصبح تنكدس فى مربع
عار من سقيفه وسط الدار ، جلس على المصطبة ، أصوات غامضة
تأتى من بعيد ، الحمام تنحرك فى البنانى قرب السقف ، البهائم
تجتو طعامها ، الحماماء السمراء الكبيره تنهد فى ارتياح ، الدار
عليها سقف من الحطب وفروع الشجر به كثير من اعشاش العصافير ،
لعل صغارها تحلم ، الذكور والاناث تتحاضن ، تزقزق بهده ، ثمة
ثعابين ايضا فى العريشة الثعبان يبتلع العصفوره دون ان يمضغها ،
يتسلل اليها ثم تجدها فى جوفه متكور هكذا بوضوح فى جسده
الطويل المسحوب .

خرجت أم عبد العزيز تحكم طرحتها حول رأسها ذراعاها
متحاضنتان على صدرها وكفاها مدسوستان تحت إبطيها ، تناولت
لمبة ذات شعلة من رف طينى فى الحائط اشعلتها من اللمبة الاولى
اخذتها مشتعلة اخرجت المفاتيح من صدرها — لا تتخلى أبدا عن
هذه المفاتيح — فتحت غرفة المعاش وغابت هناك .

فتحت الغرفة الأخرى بابها عند رأس المصطبة تماما ، خرجت
منها زوجة الحاج كريم الأخرى تحمل فى يدها ابريق فخار اسود ،
حالمًا برزت من الباب كان وجهها فى وجه عبد العزيز تماما . .

— صباح الخير

— صباح النور

سمراء متغضنة الوجه واسعة العيون ، يعرف عبد العزيز سعة
عيونها فى اخوانه غير الشقيقات، ولكن وجناتها ذبيلة ، مشيت تحمل

ابريقها الاسود الى الركن الذى يقوم فيه الزير ، نديها ضخمان وساقها نحيلان ملتويان تندفع فى مشيتها ٠٠ قطرات ماء تسع من الزير متباعدة تسقط فى اناء تحته فتحدث صوتا ٠٠ بدات تصب الماء بالكوز فى ابريقها ، الماء يرن فى تجويف الابريق ، ظهرها نحيل ٠٠ استدارت ، عيناها واسعتان ووجنتاتها ذابلة ، تقول عنها أم عبد العزيز انها تشتري الصابون النقاش لتبدو أحلى فى عيون الحاج كريم ، ذات مرة وجدوا فى غرفتها ورقة ملفوفة فيها قطعة صابون نقاش حمراء تنفش ملامح الوجه وتجعله متوردا تتكحل ويزدهى وجهها وتجلس على عتبة بابها يدخل الحاج كريم ويخرج دون أن ينظر ناحيتها ٠٠ وفى المساء تلمع زجاجة مصباحها وتترعب على فراشها التنظيف سائدة ذقنها على يدها ، يتسلل عبد العزيز الى غرفتها - عندما كان صغيرا - ترضعه وتقبله وتحكى له حوايت الغول والغولة وبائع الباذنجان ٠٠ أخذت ابريقها ومشت نحو المرحاض ، طهورة نظيفة الثوب ، بعد ذلك سوف تصلى ، لاتعرف شيئا من أمور المعاش توكل اليها الاشياء التى لاتقتضى مهارة ولا التفاتا ، حتى عبد العزيز لم يعد ينظر ناحيتها وهى جالسة على العتبة ، يحس نظراتها الحائرة ولكنه لاينظر ناحيتها ٠٠

عادت بابريقها الدار ساكنة لايسمع سوى كركبة أمه فى غرفة المعاش وصوت تلاوة الزوجة الأخرى فى صلاتها وهمهمة الحمام فى البناتى وقطرات الماء الساقطة من الزبر يصيغ سمعه ويدبر رأسه كالدجاجة المتشوقة ٠٠ فى هامش السكون والعتمة هذه الوسوسات غير ذات المعنى تولد فى عروقه شيئا كالخدر يسرح الى قلبه ويتكور ثقيلًا بزدحم صدره يرزح على أنفاسه وحلقه، يحرق فى شعلة اللمة طويلا، الكلام يترقرق فى داخله كالدموع ، لو كان يقدر لكتب كلاما كبيرا حربنا مثل تلك السطور التى ارسلتها بطلا الرواية الى محبوبها وارسلت معها خصلات من شعرها سقطت من عنائها فى حبه ٠٠ لكنه لا يستطيع ، الكلام فى صدره كنتف من

السحاب لا يستطيع الامساك بها ، فقط يجتلى خياله بالصصور
المتوتره الحزينه ، مثل صورة وجه المسافر الى حبيبها تطل من
شباك العربيه تتعجل المسافه بقطر قلبها القلق ..

عند عبد العزيز بضعة كتب قليله فى شباك الغرفه يجثم
التراب على اغلفتها ، كم يتمنى لو عاش وحيدا فى مكان ما، وحيدا
بعيدا عن كل شيء ، لكنه يتذكرها، غدirtاها وعيناها وابتناسمتها
الرائقه . . زمان . . حينما كان بعد طفلا صغيرا كان ينتظر العيد
فى شوق وليله العيد يبقى ساكنا عازلا نفسه عن ضجة العيال
مصيخا السمع . . ثم فجأه يسمع زمارة العربيه ويندفع خارجا يفتح
الباب الكبير، وتنزل هى من العربيه مع أبيها وامها صغيره لطيفه مثل
العرائس التى تعرض فى نوافذ الدكاكين وطول أجازة العيد لايفارقها
يلاعبها ويعنى بها الى أن تسافر فيبقى حزينا منتظرا عودتهم فى العيد
الأخر . . لقد مرض ابوها ومات وهى الآن تسكن حارتهم مع امها
وهما يسافران معا الى المدرسه فى طنطا كل يوم لكنه مع ذلك
مشتاق اليها دائما ..

وحينما يقف على باب الحارة يكاد صدره يتفجر بالشوق يركز
بصره بقوة على المنحنى حيث تلتوى الحارة وتغيب يركز بصره
معدبا مشتاقا فاذا بها خارجه كمعجزه نبي وفسستانها طائر عن
ساقها .

غلب عبد العزيز الابتسام وهو جالس بحلم على المصطبة
تصورها وهى طائره هكذا كالفراشة ، يملأ قلبه سرورا ويفلحه
الابتسام . . هى وكتبه المقبره فى الشباك ووريقاته الصغيره التى
فيها فتات قلبه . . لكم يود ان يعيش وحيدا لكنه مع ذلك يحب
الاشياء جميعا حمارتهم السمراء وامراه ابية القديمه الطيبه .

بدأت البنات تخرج من كلا الغرفتين الى غرفة المعاش وهناك
بدأ يعلو صوت الكركبة والكلمات التى لاتزال ناعسه واوامر ام عبد

العزیز المقتضبة، وضحكات صغيرة خافتة، وفي كل آن تخرج واحدة من البنات - فى يدها لمبة ذات شعلة - تذهب وتجىء فى وسط الدار تقضى حاجة أو أخرى ثم تعود الى غرفة المعاش .

ثم خرجت ام عبد العزیز وبدأت تصعد السلم ذى السياج والدرجات من خشب الجميز الغليظ ، قصيرة مليئة تذاك الدرجات بقدميها اللبة على رأسها وهى تحمل نفسها بأشياء وأشياء ، فى كلتا يديها وتحت ابطيها لو كان لها عشرة اذرع لطلبت مزيدا .

تفكر عبد العزیز فى أبيه الحاج كريم .. لعله عاد بالأمس من سهرته مع الاخوان فى الدوار وطلب اليها أن تخبز زوادة السلطان، ولابد أنها غضبت الى أقصى حدود الغضب ، وأكدت ان المخازن

خالية من الحبوب والدقيق وأن الجرار ليس فيها رائحة السمن .. وأن قطرات اللبن التى تنزى من أخلاف الجاموسة لا تكفى حتى لبل ظمأ العيال .. وأنه قد آن الاوان لأن يكف الحاج كريم عن بعثرة رزق أولاده على الموالد والضيوف وأنه يكفيه أن يملأ سلالا يحمله فى يده الى طنطا مثل الباقيين وأن هاتان الصحارتان الكبيرتان ستظلان تنزحان من الدار حتى تصبح وليس فيها لقمة لطفل ..

ولابد أن الحاج كريم تربع على السرير النحاس الكبير وطفق يكلمها ساعات عن الخبز للسلطان وعن العيال والدار وعن البركة التى بسرها تسير هذه المركب الواهنة القلاع المثقلة بالأحمال تسير فى نهر الحياة بأنفاس أولياء الله .. كلاما عذبا مؤثرا وهى متفرصة على الحصر عند أقدام السرير ، عنيدة لاتلقى بتعليقات جافة مقتضبة عن رعا طنطا وشذاذ الخلق الذى يلقي فى أفواههم بقوت العيال ..

فى الزمن الماضى كان يعصف بها اذا عارضته فيما يريد وكان
عراكهما يربعه فيصرخ مدعورا ويحملة الناس بعيدا حتى ينجلي
العراك .. لازالت اثار هذا الخوف فى نفسه مثل اثار جرح
اندمل ، حزين قليلا من اجل ابيه لم يعد يعصف بها كما كان يفعل
فى الماضى لانت شراسته امام عنادها او اذعانها المكره الذى
ينتظر الفرصة ليعلن الرفض .

سنين طويلة والعالمان لا يلتقيان .. عالم الحاج كريم الملق
على اجنحة الكرامات والبركة والبدل للاخوان كخير سبيل لتكثير
القليل ونبريكة ، وعالمها المحدود بالجرار والقذور ومخازن الحبوب
تخفى امرها اذا امتلأت لكنها تظل تدمدم غاضبة اذا نقصت
ا وفرغت ..

انها تحارب بقامتها القصيرة المكيئة ووجهها الابيض المستدير
الجهم ، وعيونها الضيقة التى تحرق دائما فى الأرض ، تحارب
ضد شيء ما خرابا محققا تنوهمه قادماتصوره فى كلماتها واوامرها
الحازمة للبنات وتحذيرهن من الاهمال والفوضى والقاء الفتات
وتصوره فى نظرات عيونها السريعة اللماحة المفتشة فى كل ركن
باحثة عن الخطأ أو التقصير .. وتلقى بتصورها كل آن فى وجه
الحاج كريم مهددة ، أما هو فانه يبتسم ويهز راسه مطمئنا ان له
ثقة غير محدودة فى الآت الكف التى تبذل لا تنضب أبدا ، والدار
التي يأكل فيها الضيفان لا تخرب أبدا .. عالمان منفصلان ، زوجان
غريبان ، كيف اذن يختلسان معا ساعات فى هذه الدار المزدحمة
بالعيال والبهائم ليتضاجعا ويكدسا الاطفال كل عام بلا انقطاع ..

وقف عبد العزيز على باب غرفة المعاش تضيئها لمبة ذات
شعلة او بالأحرى تصنع فرجات من الضوء بين مساحات الظلال
التي ترسمها الأشياء المتزاحمة فى الغرفة وفى الفراغ فيما يلى
السقف احبال معلقة عليها حزم البصل والثوم ، وفى الحائط

تدق اوتاد تعلق فيها الزنا بيل ، بجوار الحيطان تنف مخازن الطين
المليئة بالدقيق ، وفي كل شبر من ارض الغرفة توجد جرة او قدر
او اناء او قص او صحن ، والغرفة مظلمة ليلا ونهارا ، فليس فيها
نافذة واحدة ، لاحد من الرجال يدخل هذه الغرفة ، ان فيها معاش
اهل الدار وام عبد العزيز لاتتخلى عن مفتاحها أبدا ، كيف يتحرك
داخلها دون أن يتعثرن فى شيء .

اللبة ذات الشعلة ضوءها هزيل وخط مستقيم من دخانها
يصعد حتى يصطدم بالسقف وحولها على الأواني والجرار ضوء
أصفر شاحب وعلى الحيطان ظلال طويلة ، الأم تتحرك وعلى وجهها
جدية صارمة والبنات حولها ينتظرن تعليماتها هؤلاء بناتها وبنات
الزوجة الأخرى لكنهن يطعننها ولا يأبهن لامهن كثيرا ربما يكرهنها
لكنهن مرتبطات بها ، تعلمهن وتعصف بهن يمررن ثم يعدن اليها
.. عيونهن ناعسة والظلال والضوء الشاحب يجعلها تبدو ناعسة
أكثر اوامر أم عبد العزيز مهموسة مكتومة لكنها نافذة البنات
يتحركن فى كل اتجاه بين اكداس الأشياء المتراخمة جو حلم مفزع
يدسسن أيديهن فى الجرار أو يرفعن على رؤوسهن الأواني
ليجلبن الماء .

دائما يبدأ الاعداد للخبيز قبل الفجر حينما كان عبد العزيز
صغيرا كان يسمع حكايات عن قيام البنات مع الأم للاعداد للخبيز
البنات يسعين فى ظلام الدار وسط كرات من الضوء يحكن الطرح
حول رؤوسهن يضحكن ضحكات صغيرة وتشجع واحدة منهن
الأخرى ..

— اتجدعنى .. يمكن ينوبك من المولد حنة حلاوه ..

— حلاوه ؟ .. حلاوة ايه ياختى ، والنبي ان ماخذونى معاهم
ما آتى حاطه ايدى فى شفله فى الدار دى أبدا .

وتتدخل أم عبد العزيز حازمة وفى كلامها رنة ساخرة :

— خدى بالك من اللى فى ايدك ياروح امك .. حتروحى
ياختى .. الدار كلها حتقعد عالجمال وتروح طنططا .. بس ..
بالله يا حبيبتي ..

جلست أم عبد العزيز وسط غرفة المعاش وحولها شوالى
اللبن ، تلك الاوانى المخروطية من الفخار التى يشخب فيها سيال
اللبن من اخلاف البهائم ، بدأت تنتقى الشوالى التى حلب فيها
اللبن من يومين أو ثلاثة تلك تتكون على وجهها طبقة كثيفة مختومة
من القشده ، تحسسها بيدها فتأكد من تمامها وتنحيها وهناك
شوالى حلب فيها اللبن مساء أمس أو قبل فجر اليوم ومازال
حليبا والرغوه على وجه الشليه هشه لم تختم .

بمهارة فائقة وخفة بدأت تجمع القشده من على وجه الشوالى
المختومه وتلقى بها فى برام الفخار وعبد العزيز جالس على قفص
مقلوب وجهه بين كفيه والبنات فى حلقة حولها يتأملنها ويتعلمن
منها .. انها ابنة موظف فى الحكومة نشأت فى المدينة ، حينما
نزوجها الحاج كريم لم تكن تدرى عن أمور الفلاحين شيئا كانت
بيضاء وجميله لازال فى وجهها المستدير السمن الابيض وسامة
واضحة ، حاصرتها نساء دار الحاج محمد والد الحاج كريم
وعزلنها وعابرنها بجوارب بشئون المعاش .. الآن هى مرجع النساء
فى خفايا الدور وأسرار اللبى والطبيع ..

يدها مليئه بكمية هائلة من القشده لوحت بها فى وجهه
عبد العزيز :

— شوف قشطة جاموستنا يا عبد العزيز .. صلاة النبى ..
بسم الله الرحمن الرحيم .. سى سى يا عبد العزيز وصلى
عالنبي ..

فخورة ببهيمتها تخاف عليها من الحسد ، أول ما جاءت هذه الجاموسة الى الدار ، لم تدع الرجال يدخولنها من العتبه الا بعد ان بيضت بالدقيق جبهتها .. فى الاول كان سمك القشده على وجه الشيله زفى رقة ورقة السيجارة لكنها لم تسكت ظلت تجرب وتبحث عن «دولاب» جاموستها ، المراه الخائيه من لاتعرف دولاب بهيمتها ، جربت كل شىء حتى اتكشف لها « الدولاب » واستقر تعلم البنات فى حزم ووضوح تفسل الشليه بماء الترمه بفلاف قنديل الدره ويلقى الفسيل بجوار حائط لا يلقى به فى عرض الطريق والا داسته الاقدام وفيه بقايا لبن من الحلاب السابق ، وهذا حرام يضر بالجاموسة ، ثى تكفى الشوالى قائمة على جنوبها جهة الشرق حتى تجف ثم تدس فى فرن محمى بشبن الفول وروث الجاموس الجاف ، وحينما تخرج الشليه من الفرن يحلب فيها اللبن توا قبل ان يفسد ما أجرى من تطهير يشخب اللبن فى الشليه من اخلاف الجاموسة ويحدثا خشيشا وتكون الرغوة فائرة بيضاء دافئه تتجمد بعد ذلك وتصبح قشده .. واذا توعكت الجاموسة او نقص حلابها او فسد قشدها فانها تقوم قبل الفجر وتجرى تدور على سبعة ابواب شرقية تترك عليها من قشده جاموستها ، فاذا ما اشرقت الشمس وانصهرت القشده وسالت فان لبن الجاموسة يسيل نهرا باذن الله أصبحت تعرف الاسرار كلها هذه الكاهنه الصغيره ليس هذا ما فتن الحاج كريم عندا تزوجها انما فتنه فتاة صغيرة جالسه على كتبه فى صالة بيت والدها فى المدينة تطرز قماشا فى يدها ..

اجتمع فى برام الفخار قدر كبير من القشده جمع اللبن الرائب فى الشوالى فى وعاء كبير واللبن الحليب فى وعاء آخر اخذته احدى البنات الى الكانون حيث تشتعل تحته النار ليغلى عدد كبير من الشوالى اخذ الى خارج غرفة المعاش حتى يرد فى الصباح الى اصحابه لابد أن خبر خبيز المولد قد انتشر فى البلد فانت كل

واحدة الى دار الحاج كريم بحلاب بهيمتها مشاركة فى زوادة مولد السيد ..

لابد ان الشبيخة زينب ابنة الماذون قد عرفت موعد الخبيز من ام عبد العزيز ثم دارت به على الدور فرحة بأن لديها شيئا يقال هذه الفتاة العجوز ماكينة كلام لا تكف ابدا يضحك عبدالعزيز اذ يذكر كيف تاتى الى زيارة أمه تجلس بجوارها على المصطبة وتبدأ فى الكلام لا تكف ابدا تنام ام عبد العزيز جالسة وتذهب البنات الى الغرف وتصبح الدار ساكنة اما هذه فلا تكف ابدا .. ماذا تفعل ان لم تتكلم ، لم يعلموها شيئا من امور المعاش قالوا لن تتزحزح فهى عوراء ضامرة قاتمة اللون قبيحة الامر فى البنات غريب فابنة ام صباح الفقيرة تنمو كالزروع المسكر يمتلىء فرعها وتتورد وجناتها وينتصب ثدياها شامخين ولكن زينب هذه ابنة الماذون تضمر مثل نبتة فصلت عن أمها قالوا لن تتزوج ، فوهبها للقرآن حتى حفظته ودارت تقرأه للنسوان فى المآتم ، ولكن ما ابعد الايام بين موت رجل وآخر ماذا تفعل انها تدور على الناس فى الدور تلم ثوبها حذر النجاسة ثم تجلس وتبدأ تحكى لاشئ يوقفها .. كبر اخوتها وتزوجوا وأصبح لكل واحد دار ، وكبرت اخواتها وتزوجن وتركن الدار ، اما هى ففى غرفتها الصغيرة وخن اراتبها ، يلدن كثيرا هؤلاء الارانب رعندها كيس قماش صغير تضعه فى صدرها عامر دائما بالنقود ولقد اقترض منها عبدالعزيز مرة خمسة عشر قرشا وذهب الى طنطا ليرى فيلما وكادت تكون فضيحة حين طالبته وعجز عن الدفع شبت اخواته منه سخريه لولا تسامح الحاج كريم الذى دفع المبلغ مبتسما .

لابد ان زينب هذه دارت على الدور ناشرة ما تعرفه عن موعد الخبيز وامرأة احمد بدوى تضع البذور مكان ما يحفر زوجها بفاسه الصغير فى باطن الخط وتردم بيدها رفع رأسه ونظر اليها مبتسما فتورد وجهها خجلا وقالت له :

- حوى حلاب الجاموسة الليله دار عم الحاج كريم .. عشان
الخبيز ..

وهو ابتسم قائلا :

- الله يبارك لك فيها ..

وفى المساء جاءت حاملة على رأسها حلاب جاموستها ، وفى
يدها ابنها الصغير عوض الله به عليها من صغيرها اللذين ماتا فى
وباء الكوليرا ، متوردة الخدود نضيضة الشنايا قبل عبد العزيز
خدود ولدها . ياما جاءت بهذا الولد وهو رضيع الى ام عبدالعزيز
تبكى والولد يصرخ ويتأوه وام عبد العزيز تضعه فى حجرها
وتتحسس جسده من تحت ثيابه وتحرك اعضاءه وتجس جسده
ثم تطلب بيضة تكسرها فى يدها وتسرب بياضها من بين اصابعها
وتستبقى صفارها فى راحة كفها وتضعها على جسد الولد العارى
تماما ، تخرج الصفار على جلده القرمزى وتدور بهذا الصفار
مدحرجا على كل جسده وفى مكان معين ينفجر فتكبسه على ذات
المكان بالردة . وتربط عليه وفى الصباح يكون قد برئ .. لا بد
انها مدت يدها بحلاب جاموستها مكسوفة الى امرأة الحاج كريم
ثم أنصرفت مسرعة ..

ضحكت احدى اخوات عبد العزيز وهى تقول له :

- عارف داهه شلية مين ؟ شلية روايح ..

وضحك جميعا فرحات كأنما عشرين على صندوق ملء
بالاشياء اللطيفة .. نعم فسيرة روايح يمكن أن تسليهن الى الصباح
اكيد هذا اللبن حرام ليس من المعقول ان تسرق شلية لبن ، لكنها
على الأقل قدمت لجاموستها عشاء حراما من حقول الجيران ..
لكن السيد البدوى واسع البطن لا يهتمه الحرام فان امرأة سرق
دجاجة لتذبحها لاولادها وعند الكانون لم تجد الدجاجة المذبوحة

ووجدت « الأقرع » قابعا ينظر سألت عن الدجاجة فتح فمه نظرت
فى داخل جوفه وجدت بحرا شاسعا على وجهه تعوم الدجاجة
المذبوحة ، ابتلعها حتى لايسمن الاولاد من طعام حرام ، فيصيرون
قساة أشقياء ..

– فيه واحد فى بطنه بحر .

– ابو .. مش يقولوا : يا بحر طامى ياسيد يابدوى ..

– بحر طامى يعنى .. يعنى ..

– ماتعقدش تقول يعنى يعنى .. هى الحكايه كده وخلاص .

وفى طنطا على اى حال ناس تاكل الزلط ، سياتلون هذه
القراقيش ولو عجنت بالكىروسين .. يضحكن ، ويضحكن على
اهل حارة الزعائرة حيث دار روايح، انهم يمسكون قلوبهم بأيديهم
هذه الأيام فان سفرة العايق الى طنطا سوف تكلفهم كثيرا ..
يحكون عن ولدى « طراوة » اللذان يعيشان فى دار واحدة ، وكان
عندهما ذكر من البط هائلا له عرف قان كلما خرج امام باب الدار
يخطر مباهيا ويفتح بقوة تكلم عنه حالمين ..

– ادخل الدار يا سبع .. صلاة النبى من العين ..

– ليلتك حبقى قل ..

ايام طويلة والذكر العزيز يطعم ، يدس فى حوصلته الأذرة
والفول ، حتى عميت عيناه من سمائه ثم فجأة اختفى ، بحثوا عنه
فى كل مكان هم يخمنون طبعاً اين هو لكنهم يبحثون لعل وعسى
.. ثم اذا به خارجا يخطر ويفتح من دار روايح وولدى طراوه
جالسين على مصطبتهما امام باب الدار ، يودان لو أخذه الى
دارهما لو قتلوا روايح .. لكن من يستطيع ؟ لا رجل فى البلد
يقدر على المجاذفة انها عندئذ تقبض على خصيته حتى ترغمه على

الركوع على ركبته وتجعله فرجة لعابري السبيل يقولون سوف تموت يوما وينبت الريش فى وجهها بما سرقت من طيور كما حدث لامها التى كانت لصة أكثر خطورة ومهارة الف مرة من روايح .

لكن البنات اذ يتحدثن عن شوق .. الحاجة شوق ، حلاب جاموستها ملء شلية هائلة مختوم بطبقة كثيفة من القشدة .. اذ تتحدث البنات عن الحاجة شوق يكن مبهورات واسعات العيون بالاعجاب وعلى اطراف شفاههن ابتسامات خبيثة فرحة ..

— عيني على شلبتك يا حاجة شوق ..

— عندها جاموسه مفترينه ..

كل شيء فى دارها الكبيره كثير ، مات عنها زوجها فقامت بمعاش الدار ورعاية الفيط بهمة الرجال وهى بين عيالها .. الاب والام .

واذ يزورها الحاج كريم يهتف مناديا : يا ستار ..

وتخرج اليه طويلة ناهضة الصدر كأنما لم تلد ولم ترضع .. واسعة العيون .. سمراء ندية الوجه ضاحكة ..

— اهلا بالحبايب .. مرحبه يا حج كريم .. رجل عزيزه ..
ويترك لها يده تقبلها مرتين وثلاثا ويربت على كتفها ويقبل راسها .. يجلس على مصطبة وسط الدار فيما يلى الباب وتجلس هى على الأرض بين يديه تنكش بعود فى يدها تحكى ، وينصت الحاج كريم ، كلامها مرتب وهادىء ، وحينما يتكلم الحاج كريم تنظر اليه ضاحكة العيون ..

احيانا يتمنى عبد العزيز لو كانت الحاجة شوق هى امه .. حينما كان طفلا يذهب مع ابيه الى دارها لتضمه اليها ، لازال

يحب حنان ضمها له لا يذكر ان امه ضمته او دللته كطفل ، طول عمرها جهمه منهمكه فى شغل الدار ، وبالليل تنام كالحجر من فرط التعب ..

حينما يعود الحاج كريم الى الدار يحب عبد العزيز انه مشتاق للكلام الودود ، ولكن امراته تثير النكد وتتكلم بعصبية عن الخراب المحتوم ، ما اغرب ما تكلمه شوق ونضحك عيونها فى وجهه ، لقد ذهب الى الحجاز معا ، كانا فتيين يقومان على خدمة سائر الحجاج حبا وكرامة لا يفتآن يتكلمان عن هذا ، ويهز الحاج كريم رأسه مؤمنا وهى تقول له :

— ربنا مش هيفضحك أبدا يا حج كريم .. بيتك انشاء الله هيتنه مفتوح ..

البنات يعرفن ميل الحاج كريم الى الحاجة شوق وعبد العزيز يعرفه يتسمون فى خبث وتواطؤ ويحزم تامر ام عبد العزيز بترك الثروة والالتفات الى مافى الايدى ..

طشت كبير ملء بالدقيق الأبيض المنخول المتكوم هشنا ناعما تقوم ام عبد العزيز الى جرة الملح تدس بداها وتستخرج الخميرة ، هنا تحفظها ، لا تفرط فيها أبدا تضعها فى العجين وتأخذ منه قطعة بدلها تحتفظ فى جرة الملح ، وهكذا فان هذه الخميرة المبروكة تنتقل من عجينة الى — عجينة منذ متى لا أحد يعلم لاتغيرها لأحد أبدا تحيطها بالأسرار والغموض ، اذ ابتها بماء دافىء فى اناء صغير ، حفرت حفرة عميقة فى الدقيق الأبيض ثم صبت الخميرة الدافئة فى الحفرة باناء وقداسة وارتجاف وهى تبسمل ، البنات حول طشت الدقيق على وجهن اهتمام غير عادى يبسملن هامسات بشقاء مرتجفة وسائل الخميرة الدافىء ينساب فى حفرة الدقيق حتى عبد العزيز نفسه بسمل باهتمام ، بنت واقفة بين يديها اناء الطيب المفلئ تدفق سيل اللبن يخرج منه البخار فوق الخميرة فى

الحفرة التى فى الدقيق حينما افعمت الحفرة باللبن الكبين عليها
يعجن العجين بأيديهن ، الأذرع تدك الى المرافق ثم تخلص بصعوبة
الكل يعمل .. الماهرة تضحك من الصائبة وتعايرها الخصل تتدلى
على الجباه ، الضحكات والأنفاس المبهورة وصوت أذرع ترتطم
بالعجين أطواق الثياب تبدى الاثداء الصغيرة والحلمات السمراء
الدقيقة ، حمى العجين تميتهن من الضحك ..

ـ بس با ست أنت وهى .

يخلصن أذرعهن ويمسحن ما عليها من عجين وتسرى أم عبد
العزيز وجه العجين بيدها .. وهى تبسمل والبنات مجهذات
يتنفسن بصعوبة غطين طشوت العجين ورصت واحدا اثر واحد،
خبزا وقرقيشى سوف تخبز وتملا بها صحارتين تحملان على جمل
عمر فرهود وترسل بيت الخدمة فى طنطا .

الآن لاشئ يعمل سوى انتظار اختمار العجين ، جلست البنات
كل واحدة فى مكانها بين اكداس الاشياء صامتات واللمبة
ترسل على وجوههن الضوء الخابى والظلال ، خرجت أم عبد
العزيز ربما لتطمئن على الصفار النائمين بالغرفة الأخرى أو لآى شئ
آخر فهى ابدا لا تجلس فى مكانها ساكنة تنتظر .. طشوت العجين
مغطاة بالثياب ، ملايين البكتريا تعمل عملها الآن فى العجين .. أو
سر خميرة أم عبد العزيز .. ان الحياة الكامنة الفاضة فى جوف
العجين تخلق جوا غريبا فى الغرفة ، البنات مائلات الرؤوس على
الاكف يتكلمن مخافتات كدجاجات يبتن فى خن .

ما الذى جاب سيرة امرأة عمر فرهود الجمال ، المرأة الطيبة
الدقيقة الحجم الناعمة الصوت . كان أبوها فقيها ، مات تاركا
لها ستة قراريط فى الحقل وترك فى صدرها كلام الله .. وترك
لها كتاب أبى محشر ..

ذلك الكتاب الغريب الذى يضم بين دفتيه صنوف السحر والعمل ، من وصل الى سره وفك رموزه سخرت له الجن وأصبح قادرا على أن يفعل مايشاء ، يوقع العقول فى الخبيل ويزرع كراهية النساء فى قلوب الرجال ، ويربط الذكور عن الاناث ، ويستطيع أيضا ان يرى المرضى ، ويداوى تفزع الاطفال وصراخهم فى الليل ، لقد رأى عبد العزيز هذا الكتاب ورأى فى صحائفه الصفراء الجداول المقسمة فى خاناتها الرموز والاشكال القريبة وقرأ فيه عن مواد تمزج وأشياء تحرق ومسابر تدق ، وأشكال من الورق على هيئة الرجال والنساء تخزق عيونها بالابر ولفائف من كل شيء عظام الموتى وريش الطيور وجلود الثعابين تدس تحت الاعتبار ليخطو من عليها من يراد به الشر والخير .. وقرأ كل هذا عبد العزيز وهو لا يصدق شيء منه ولكن الرعب يلابسه ويصك قلبه وتتكلم احدى الاخوات - خائفة واسعة العيون غارقة الملامح فى الظلال والضوء الشاحب ..

— بس الوليه دى ما بتعملش بالشر أبدا .

انما تذهب اليها النساء بشيء من ثياب عيالهن فتقيس هذا الأنر بالشبر والقيراط وتعقد فيه العقد ثم تقيس العقد وتقرأ التعاويذ والتسابيح الى أن تعرف تماما علة المصاب فتصف الأحجية والبخور وما يثرّب وما يدلك به الخسد .. وهكذا هى لا تعمل عملا يضر بأحد .. تهتف احدى البنات ضاحكة :

— ماسمعتوش على عمر فرهود وعلى اللى جرى له ...

وتهتف البنات فى نفس واحد .

— ايه .. ؟

انفرد مرة بكتاب ابى محشر ، اراد أن يجرب ما فيه طفق يقرأ التعاويذ دونما معرفة بما فعل فان هو الا جمال لا خبرة له

بشيء من أمور الكتب ، وتصادف أن ما قرأ كان تعاويذ تدعو جن
الخدمة الى الحضور فحضروا بين يديه وانتظروا أن يأمرهم بشي،
أو يصرفهم لكنه أرتبك ولم يفتح الله عليه شيء يقوله ويبدو أن
الجن قد اغتاظوا فقلبوه زرع رأسه فى الأرض واشرعت أرجله الى
السقف ، وسقط ثوبه عن عورتيه ، وغرقت البنات فى الضحك
والأخت تحكى عن دخول امراته عليه وكيف تصرفت بسرعة فصرفت
الجان وانتقلت عمر فرهود .. هو هكذا يقع دائما فى الخطأ وهى
به عطوفه يلجأ اليها كالطفل ..

لكن إحدى البنات كانت ساكه لا تشارك البنات ضحكهن
واسعة العيون شاحبة الوجه بالخوف ، قالت فى صوت سلب
مرعوش ..

— انا خايفه

شمل الصمت الجالسين جميعا تسمع عبد العزيز انه لا يصدق
بالعفارت لكن الخوف يتسلل الى قلبه ، خارج غرفة المعاش خارج
الدائرة الصغيرة من الضوء الشاحب يقبع الظلام والسكون ،
السكون الملىء بالهمسات الغريبه .. حاول أن يسيطر على مخاوفه
صرخ فى اخته ..

— خايفه من ايه يا بت

ولكن البنت تن كقطة مريضة وعيونها زائفة ..

— انا خايفه

بدا عبد العزيز يرفع صوته بالكلام حتى يهزم مخاوفه هو

— كلام فارغ .. قولة عفارت وكلام من ده

وتجاسرت أحدث البنات لكن رنة صوتها كانت تشوبها الرجفه

— دا بنى آدم هو اللى عفريت

وبدأت إحدى البنات تحكى فى صوت هامس لا يكاد يسمع

- عاملين لمرات محمد كامل عمل
 وشمل السكون حتى لا تسمع نأمة
 - كاسين لها على لوح كتف عيل غريق
 بلعت ريقها
 - ومدفون في تربة مجهولة
 بدا الخوف مرة أخرى يزحف على قلب عبد العزيز والبنت
 تحكى
 - كل ليلة بالليل بتطلع ندور فى الترب
 صاح عبد العزيز ليسكت البنت ا لتى تحكى
 - بلاش خرافات .. طول عمر ك كدابه
 والبنت تلح
 - آى والنبي .. بيقولو كده
 سمع صوت أم عبد العزيز تنزل السلم ، طرد الصوت
 اشباح المخاوف ، ودخلت الفرفة كشفت عن العجين اختمر وفاض
 من الطشسوت ..
 - الاقرع نفخ فيه
 - مستعجل اوى عالزواده تروح له
 وتكلمت أم عبد العزيز بحزم
 - يالله يا ستى انت وهيا .. النهار ملا الدنيا .. عاوزين
 نشوف حالنا ..
 خرج عبد العزيز الى وسط الدار ، معتم لكن النهار يملأ السماء
 انطلقت الحمام والدجاج والبط من الاختان واقلوا يلقتون ماتلقيه
 اليهم مرأة الحاج كريم الأخرى من حبوب ، ضحك عبد العزيز
 دائماً يوكل اليها أقل أمور الدار شأنًا ، كلمتها أم عبد العزيز .

— بعد ما يشربوا احبسيهم تانى عشان مايلخموناش فى الحيز.

واطاعت صامته بعد ذلك سوف تكنس الدار ببطء وسكون .
عبد العزيز يتأملها والضحك يغالبه اذ يتذكر ما حدث فى سفرتها
الآخرة الى أهلها فقد أهدوها ذكرا من البط وضع على الكانون
من الصباح الى المساء والنار مستعرة تحته ، وحينما نقدم المساء
فرش الحصر فى وسط الدار ووضعت الطبلية الكبيرة وجلس
الحاج كريم فى الصدر وحوله عياله وانفاره ، وجيء بالارز والفت
والطبيخ ، لكن الذكر لم ينضج بعد والمرأة غارقة فى الخجل قام
بنفسه الى الكانون وجس اللحم ، فرد اللحم اصبعه كأنه المطاط
تناول السكين وشققه وأوصى بأن يوقدوا عليه مرة أخرى من باكر
.. عبد العزيز يضحك منها هى لاتوفق فى شىء عمله ابدا . لكنها
طيبة وديعة ودودة ، تزوجها الحاج كريم بعد موت أم رشيدة ابنة
عمه ، وأحب زوجاته اليه بعد أن ماتت ذهب الحاج كريم الى
أخواله زوجوه هذه .. كانت أم رشيدة احب الناس الى قلبه
بعدها لم يجد فى الزواج سعادة ..

زعقت أم عبد العزيز فى صغرى البنات :

— روى يا بت نادى أم صباح ..

— وانادى رشيدة كمان ؟ ..

— ونادى رشيدة كمان يا ستى ..

أم صباح هى الأجيعة التى تقعد أمام الفرن فى الخبز
وستأتى معها ابنتها الفارعة الشامخة الائداء والتى تثير عبد العزيز
لن تفلت منه اليوم .. وستأتى رشيدة وتميتهم ضحكا بسخرياتها
سيكون يوما غريبا يوم الخبز هذا زباط وضحك تقوده رشيدة ،
يا لها طول عمرها مريضة العينين أعفاها هذا من شغل الدار ،
كانت تقضى طول النهار عاكفة فى غرفة على السطوح نظيفة الثياب

ناعمة اليدين ، فهي لا تشتغل وتسافر كثيرا الى طنطا لعلاج عينيها وتقيم أياما طويلة عند أقارب امها .. تعلمت من بنات البندر اشياء كثيرة ولبست الثياب البندرية وحلمت بالزواج من افندى يرحل بها عن البلد وتأتى فى الأعياد فقط تنزل من العربة وتهتف بأولادها النظاف المؤدبين :

— بوس ايد خالتك يا ولد .. بوس ايد خالتك يابنت .

لكنها تزوجت من فلاح ضخخ الجثة يغزل الصوف وبصنع منه جلابيبه وطواقيه وملافعه ، تزوج قبلها من امرأة تركت له بعد موتها اولادا كثيرين ، قرع الرؤوس قدرين ، يوم زفافها كان عبد العزيز طفلا رأى العريس الهائل يدخل فى جلبابه الصوفى منتصب حول جسده كأنه مصنوع من الخشب ، وهو يمشى يخب فيه عندئذ انفجر عبد العزيز صارخا .

الآن هي لا تكف عن الشغل فى دارها وكلما افافت من أعباء الدار سخرت من كل شيء وأماتت من حولها ضحكا ..

جلست احدى البنات أمام الفرن تجرف من داخله التراب الذى تخلف فيه عن أيام خبيز سابقه كان هذا الفرن فى الليل قابعا فى صدر وسط الدار بفتحتيه الهائلتين كتلة معتمة مخيفة بعد أن سوف تتوهج فيه النار وحوله النساء صاخبات ..

وضعت الطبلية الكبيرة أمام الفرن فرشت حولها قطع الحصر القديمة والأجولة والذكائب وضع طشت العجين بجوار الطبلية ، وجلست اليه أم عبد العزيز فرشت الطبلية بالرده وبدات هى تقرص من العجين قرصات وترصها واحده بجوار الاخرى على الطبلية ..

دفعت ام صباح البا بداخلة ووراءها ابنتها الفارعة صباح ، صفق قلب عبد العزيز فى صدره ، جلس على المصطبة ساكنا

حذرا يرقب فى هدوء .. هتفت أم صباح :

— صلاة النبى أحسن بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم توجهت مباشرة الى الفرن وجلست امامه وكلمتها
أم عبد العزيز :

— يا الله يام صباح سمى كده وونعى ..

البنات جالسات حول الطليبة ، وكذلك امرأة الحاج كريم
الأخرى كل واحدة منهن فى يدها مطرحتها .. سكن الجميع ..
وبدأت شفاهن ترتعش بالبسملة عرضت أم صباح عود حطاب على
شعلة اللبة وهى ترفع صوتها :

— بسم الله الرحمن الرحيم ياهاذى يارب .

قذفت بالعود المشتعل الى الحنية وبدأت تناوله عودا من
الحطب وراء عود لكى تزكى النار ، البنات تتناول الواحدة منهن
قرصة المعجين وتدقها بكفها على الطليبة حتى تدحوها قليلا ، ثم
تنقلها على مطرحتها المفروشة بالردة وتظل تضرب وجه الرغيف
براحة كفها وتحركه على المطرحة ومساحته تكبر رويدا رويدا حتى
تكاد يغطى مساحة المطرحة فتطيره فى الهواء نافخة الردة من تحته
وتتلقاه عليها مقلوبا وتعيد الكرة ضاربة وجه الرغيف بكفها حتى
تفيض أطرافه من حواف المطرحة ..

امتلات حنية الفرن بنار مستعرة وتناولت أم صباح أرغفة
البنات على مطرحتها طويلة اليد ، ثم زجتها على عرصاة الفرن
هناك ينسبط عليها رقيقا أيضا ثم تدب فيه الحياة وينتفخ
ويتملل فى مكانه حتى ينضج ويتورد وجهه فتسترده المرأة
بعودها الحديدى ..

بدأ دخان الفرن يعبق فى وسط الدار حتى كاد يدارى

الحمائم على البناني تنكمش على نفسها ثم تطير بعيدا عن الدخان
فى اعالى السطوح والعصافير فى عريشة وسط الدار تتقافز
وترقزق فى حركة لا تكف وذرات الدقيق تطير فى جو وسط
الدار ساخنة من سخونة الأروقة الخارجة من جوف الفرن صفق
المطارح وازيز الحطب المحترق وثرثرة البنات يجعل الأم ترفع
صوتها اذا أرادت أن تصدر توجيهها حتى تكاد تصرخ لسمع كلامها
وبين آن وآخر يفتح الباب الكبير وتدخل امرأة أو صبية تصيح
بأعلى صوتها :

- بسم الله الرحمن الرحيم خبيز الهنا يا ولاد .. كل سنه
وانتوا طيبين ..

وترد البنات تحيتها فى كورس ضاحك صاحب ويدعونها
للمساعدة :

- مدى ايدك والنبي علشان يستبارك .
وترد القادمة مجاملة :

- مبروك باصحابه وبالى رايح له ، نظره ياسيد ربنا يخلي
عم الحاج وميقطعلوش عاده .. أبدا ..

تم تخلع نعلها وتأخذ لنفسها مطرحة وتجلس الى الطبلية ..
ويدخل صوتها ضمن جوقة الضجيج والضحك والزياط والثرثرة
.. لقد آت لتأخذ لدارها نار ..

- والنبي العيال فى الدار لوحدهم .. وورايا شغل الدنيا ،
ومانى فاضيه أبدا ..

والبنات يغرينها وحمى الخبيز تأخذها ..

- ياختى اخبزي رغفين .. دا خبيز سيدنا السيد ..
تخبز رغيفا وآخر حتى تكاد تنسى نفسها .. ثم تهب واقفة

تنفض الدقيق عن حجرها وتشعل لمبتها وتأخذها وتفر فرارا
وصياح البنات وضحكهن يلاحقها ..

عبد العزيز يرفع عينيه عن صباح ويدها تعملان عملا دائبا
فى الرغيف على المطرحة ثدياها يرتجفان تحت جلبابها الخفيف
حمرة خدودها قانية بالجهد تحت ذرات الدقيق البيضاء التى
تتجمع على وجهها ورموشها ، فتحة الفرن تستعر فيها نار حمراء
لهابة أم صباح تناولها رغيف اثر رغيف ، البنات غارقات فى
الضحك والثروة هن جميعا يكون آلة صاحبة دابة الأذرع يهب
منها هباء الدقيق والأم جهمة ساكنة تقرص المعجين وترص
القرصات على الطبلية بلا انقطاع ..

دفع الباب فصار منفتحاً ودخلت الحاجة شوق طويلة ضاحكة
رائقة فى ثوبها الحريري الأسود

— بسم الله الرحمن الرحيم .. صلاة النبى .

ارتفع ضجيج بنات الحاج كريم وصاحباتهن وقف عبد العزيز
من مجلسه على المصطبة فيما يلى الباب مباشرة ، ضمته الحاجة
شوق الى صدرها ناعمة الوجه والثوب ورائحة صابون حمامها
المعطر ، تخلص من عناقها مرعوبا من شئ عارم يجرى فى عروقه .

— ازيك يا حبيب عيني .. يخليك لابوك يامنايا ..

ثم مشت تخطر مباهية الى يمة الفرن والبنات :

— عواف يا صبايا .. خبيز الهنا .. كل سنة وانتوا طيبين .
تشعل الهيصة والزياط .

— والنبي ياخالة الحاجه ما الصبح نقول ماجتش ليه ..

تعالى هنا جارى .. عشان يستبارك .

— هو انا يا ولاد بقيت اعرف اعمل حاجة .. العواف يا ست
أم عبد العزيز ..

— اهلا يا اختي .. يزيدك عافيه ..
وتبادلا سلاما دون قبلات .. وتواصل حديثها للبنات .
— البركه فى الصبايا .. احنا خلاص .. ايامنا راحت .
وتصرخ البنات مستنكرات وام عبد العزيز ساكتة مرهفة
الحس للمباهاة الخفية فى نبرتها :

— يا حومتى ..! ايامك راحت ! ! دانتى شاطرة الشاطرين
يا حاجة ..

وتضحك راضية عن الثناء وتجلس الى الطبلية بثوبها الحريري
وتتناول المطرحة وتشرع فى الخبز وعبد العزيز يتأمل أكتافها
وساعديها ، ليس فى النساء مثلها أبدا ..

— انا قلت مايفوتنيش خبز السيد البدوى .. أخبز رغيف ولا
اتنين .. ان طلوعوا وحشين أبقي أكلهم آنى ..

وتفرق فى ضحك مكركر مسرور .. ويقارن عبد العزيز بينها
وبين صباح . هذه هى الاكتمال الرائع ، وتلك هى البداية المزدهرة
.. البنات يصحن مستنكرات :

— وحش ؟ عمر عيشك ما يبقى وحش أبدا .. طب هنعلم
رغيفك ونشوفه .. يا أم صباح رغيف الحاجة آهه .. خدى
بالك منه .

وتتابع العيون رغيف الحاجة وهو ينفرش على العرصة رقيقا
أيضا .. ثم يتململ وينتفخ هائلا كدبك مزدهى بنفسه وتصيح
البنات مهلات وتضحك الحاجة معهن ..

— صدفه يا ولاد .. ربنا مش عاوز يكسفننى ..
لكنها تحل طرحتها ويبدو مندبل رأسها الكحلى على شعرها
المسبول اللامع وغديرتيها الكبيرتين سارحتين على ظهرها مربوط
فيهما مفتاح صندوقها وتشمر عن ساعديها تاركة نفسها مسج
حماس الخبيز ..

ويصر الباب الكبير مرة اخرى لتدخل منه رشيدة صائحة
بأخواتها :

— يا قللات الخير ..
— هيه .. أم كريم أهه ..
وتكتشف عبد العزيز على المصطبة ..
— يا حبيبى ..

وتضمه الى صدرها فهى تحبه بشكل خاص وهو يضمها بقوة
قامتها القصيرة واكتافها الضيقة ..

— ازيك يا عبد العزيز .. اخواتك قللات الخير دول .. بقى
يا ولاد مش تقولولى على بيات عشان أعرف آجى بدرى .. سامعه
حسك من بعيد يا حاجه شوق .. عواف يا خالتي ..

تلتفت الى أم عبد العزيز تسلم عليها وتقبل يدها قبل كل شيء
— رشيدة لاتهمل الأصول أبداً — ثم تسلم على الحاجة ..

— سامعه حسك من بعيد يا حاجه .. قلت هو الخبيز من غير
الحاجه شوق يبقى له معنى ..

— يخليكى يا نور عبنى ويحلى لك لسانك .. بنت ابوكى
صحيح يا رشيدة ..

هكذا يقول كل الناس عن رشيدة اثرة أبيها .. نزع

طرحتها ودخلت فى حومة الخبيز ، واذا كان المجلس فيه ورشيدة
والحاجة شوق فهو أحلى المجالس ، وهذا خبيز السيد البدوى
وبعد أيام سيكون المولد ..

تتوسل احدى البنات ..

— رشيدة .. والنبي تخلى أبوكى ياخذنا معاه يارشيدة ..
هساعدك فى طبيخ المولد . والنبي يارشيدة ، مش حخليكى تعوزى
حاجة ابدأ ..

— من عينى يا حبة عين اختك . حاضر ياختى ..

— وأنا يارشيدة ..

— حاضر ياروحى ..

— وانسا .. ا

وتتدخل الحاجة ضاحكة :

— كلكم يا ولاد .. ليه .. دا فرح .. من السنه للسنه ..

نظره يابو فراج .

وتزقطط البنات فرحات وتطير المطارح فى الهواء وتتقلب
الأرغفة عليها فى خفة ، ومن الحر والجهد والسرور تخلع الحاجة
جلباها الحريري وتبقى فى قميصها البمبى ، وتتلوها البنات
ورشيدة ، قمصان لبنى وبمبى واسعة الصدور ، قصيرة الأكمام ،
ما الخجل .. ؟ لا يوجد غرباء وعبد العزيز لا خطر منه ، وان كانت
أم صباح تنظر ناحيته محذرة ..

— ماتآمنش للكبير ولو كان صغير .

ينكس رأسه مكسوبا وتضحك منه اخوانه ثم يرفع عينه ليرى
ساعدى الحاجة وصدرها ونحرها وضحكتها والدقة الفائرة فى
ذقنها .. لكن قميص صباح الملهل مقطوع عند صدرها ويبرز
القطع قمة نديها سمراء دقيقة الحلمة ، صرف نظره سريعا

وقلبه يكاد يخترق صدره ، يعود .. تلتقى عيناه بعيني صباح
تسرع يدها لتضم دفتى القطع على ثديها ثم تسرع يدها الى الرغيف
تاركة القطع ويقفز الثدي خارجا من القماش الواهن ولا يستطيع
عبد العزيز أن يحول بصره وتستمر اللعبة وسط الضجة وهياج
اللهب وصفق المطارح وذرات الدقيق الساخن الطائرة والضحك
والزياط والثرثرة ، تستمر اللعبة .. تضم القطع على ثديها ، ثم
تسرع يدها الى الرغيف فيقفز الثدي خارجا ، وعبد العزيز مبهور
الأنفاس يكاد يموت فى مكانه .

— والنبي تليقى فى الموده يارشيده ..

وتأمل رشيدة ذراعها الممتدين الى المطرحة تتأمل فى تباهى
ساخر وتلعب حواجبها فوق عيونها المريضة وتمصص شفاتها ،
والبنات مائتات من الضحك عليها تهتف بهم مصطنعة تأنبهم ..

— يتحكوا على ايه .. والنبي احنا حلوين زى الورد .. بس
مالناش بحت ..

ضحكن .. وهمسات الحلقتان الرخيصة وعقود العقيق
الأثداء البكر ترفع صدور القمصان الرقيقة والحلمات منتصبه
تحت رهافة القماش .. وعبد العزيز مربوط الى ثدى صباح الذى
يبدو ويختفى ويرهق قلبه خفقانا .

— يلبسونا ويريحونا واحنا نبقى أحسن من نسوان طنطا .
وترد الحاجة :

— دكهم لهم تعويج شكل تانى ، ومهنكه شكل تانى .. حاجه
فاضيين لها وأعدين لها ..

قالت الحاجة هذه الكلمة وهى تهز صدرها فترتج ثدياها ..

وتدفع كتفها الى الامام بطريقة فيها غنج اذهل عبد العزيز ..
وصرخت له البنات مجنونات من السرور .. كيف تختزن الحاجة
كل هذا الدلال وراء هذا السطح من الوقار والاتزان انه جنون
الخبيز ، يوم غريب فى الايام ، عبد العزيز يكاد يقفز على صباح
ملتهما ثديها وشفتيها ، متى يرسلونها لتحضر شيئا لينفرد بها
عبد العزيز ويفترسها ..

تلوح رشيدة فى وجه الحاجة شوق مسنكرة قولها :
— علبهم وعلى ابراشهم والطاخهم وقلة معنتهم .
وترد الحاجة بأسلوبها الجديد المكشوف المذهل :
— هيا الرجاله يا حبيبتي بتحب الا كده ..
« يا الهى ماهذا يا حاجه سُوق » ..

امراة الحاج كريم الأخرى مفتوحة العيون ذهولا وام عبد
العزيز لها قدرة تفيظ على أن تمزل نفسها عن كل هذا وتلاحظ
الأرغفة بعين صقر لا تسمح بتبديد شئ، او بئلف لقمة ..
تقول رشيدة شامتة :

— يحبو زى ماهم عاوزين .. مشوار لحد طنططا ومسيرهم
راجعين لنا تانى .. وراهم لحد ما يرقسوا .. يجيبوها من
قصيرها بقى ، والبصه البرانيه مالهاش لزمه ..

وتموت البنات من الضحك على جراءة رشيدة وتقول واحدة
منهن موغلة فى الجراءة

— نسوان البندر حلوين .. ورجالتهم كمان حلوين ..
ويشتعل الضحك وتقول رشيدة :
— والنهى يابنتى عمرك أطول من عمرى .. ياما نفسى فى واحد
افندى يرد روحى ..

عينا عبد العزيز دائرتان كعيني قسط حول حلقة النساء
 المحتاجات يحسب لكل حركة حساب ، الآن سترسل صباح الى
 غرفة المعاش العتمة لاحضار مزيدا من الدقيق ، قفز متسللا ولبد
 فى العتمة وراء الباب .. حينما تجاوز قدها فتحة الباب دفع
 بقدمه فانطلق تقريبا هو وهى فى العتمة دقات قلبهما وانفاسهما
 المبهورة أسرع يده رافعة ذيل قميصها عن ظهرها والتف ذراعا
 حول عرى خصرها وضمها اليه بقوة انطرح رأسها الى الخلف ..
 وسقط اثناء الدقيق الفارغ من يدها الممدودة على آخرها .. ثدياها
 تحت انف عبد العزيز بيده الأخرى ، خلع عنها قميصها تماما ..
 هزت رأسها لتخلصه من طوق القميص سقط مكتوما على الأرض
 مرغ عبد العزيز وجهه بقوة فى طراوة ثديها ورأسها مطروح للخلف
 وهو بكلتا ذراعيه يضم جسدها العارى اليه وهى تملص فى يده
 كالسمكة ، اعتصر خصرها حتى أثنت ساقاها ورقد عليها مفترشا
 جسدها العارى على قميصها الملقى على الأرض يمرغ وجهه فى
 صدرها ويعضها كقط مسعور فى شفثتها ورقبتها وحلمة ثديها ،
 وهى تملص بقوة وسط اضطراب الأنفاس :

- لا .. لا .. لا .. ياسى عبد العزيز .. لا ..

مد يده لينزع عنها سروالها .. قفزت تحته بقوة خارقة رامية
 به من فوقها .

- والله العظيم هنادى لامك دلوقت آهه ..

هب من فوقها ملعورا من تهديدها ، مرتبكا تعثر فى اثناء حتى
 كاد أن ينكفىء على وجهه ، هتفت وهى واقفة امامه عارية الا من
 سروالها :

- بسم النبى حارسك ياخويا ..

وقال لها مخافتا :

- مفيش حاجه ..

لبست قميصها وملأت الاناء بالدقيق وخرجت وهو جالس
على قفص مقلوب يسترد أنفاسه اللاهثة ..

حينما خرج وجدها قد انخرطت فى الخبيز تطير رغيها فى
الهواء بانفعال نسبت كل شيء ، اغتاط ، جلس هامدا على المصطبة
يتأمل الخابزات وحمى الخبيز تسرى فى عروقه الى مخ راسه ،
وحلمة صباح تتقاذف أمام عينيه ، لاشيء يشبع جوعه أبدا ، جوع
يجعله يبكى يريد قبلة وعناقا .. يستفرقان العمر لايفيق منهما
أبدا .. أسند رأسه على الجدار وأغمض عينيه ..

سميره نازله على السلم ، فستانها طائر حول سيقانها ..
ضحكتها تفرش طريقها بالاشراق ..

— عبد العزيز ..

هتفت البنات :

— سميـره .. سميـره ..

نادت وشيده فرحه عاتبه

— اهلا سمرتى .. مش تقولى عواف يا عروسة اخويا

الخجل دماء حمراء تكاد تقفز من وجه سميـره كل الناس تقول
ان عبد العزيز سيتزوج سميـره حينما يكبران ، قام لها احضرت
له كتابا كانت قد استعارته منه وفرت هاربه ، تحط فى قلبه
احساسا خاصا ، حزنا خاصا ، دخل الى الغرفة ليضع الكتاب ،
الاغلقه المفبره ، رواياته وكتبه ، حزنه الخاص الصغير المكون فى
ناحية مفبرا متثنى الاطراف ، وتلك الوريقات الصغيره التى يكتب
فيها بعض ما يعن له .. سميـره .. صباح .. الحاجه شوق ..
فى صدره جفاف لا يرويه نهر ..

وقف ببأب الغرفة ، الان ظهر صباح ناحيته ، فتح الباب
ودخلت امرأة احمد بدوى .. وصديقه امرأة محمد كمال ، وجهان
وجه متورد يبتسم عن اسنان بيضاء نضيده ووجه اسمر ذابل
واسع العينين فيه حزن خاص ..

— ربنا يعوض عليكى ياختى

تقبل صديقه التمنيات ناكسه الرأس تخبز دون أن تلتفت
لأحد .. عبد العزيز يعرف انها تتعذب بهذا العطف لو كانوا
يندمجون فى الخبز ويتركونها ، لوحدها ، انها تخبز بانفعال
تدعو حمى الخبز لان تأخذهن بعيدا عنها ، فقط جائت لتخبز
رغيفين من خبز السيد لعل وعسى بركة الاولياء تخبص الرجم
الناضب ، لكنهم يعذبونها بمصمصات الشفاه والتمنيات والدعوات،
والاشارة عليها بالشيوخ والوصفات ..

— عمل لواحدة صوفه .. تلبسها .. آى والنبي .. العساده
ماجتهاش تانى ابدًا .. صلاة النبي .. عندها ثلاثة دلوقتى ..
وامرأة احمد بدوى خجله متورده الوجه ناكسه الراى تخبز
باندماج ..

ثم تقفز روايح فجأة الى وسط الدار طويلة كالرخ ، طويلة
الاطراف خضراء العينين تتلفت بسرعة غير عادية كالحداه .. انها
كالحداه تماما ، تصرخ منفعله

— ازرغت ولا أغنى ولا أقول ايه بس ياخواتى .. عقبال ألف
سنة ويتن بيتك عمار ياحج كريم يارب ..
ثم تنفض على عبد العزيز تختطف يده فى يدها وترفع الاخرى
لاعلى مندره

— باذن الله تصبح مدير

ويضح البنات بالضحك ، لا يخفن منها ، تسرق الناس جميعا
ما عدا دار الحاج كريم ..

— اقعدى ياخاله روايح اخبرى رغبيين

— مانيش فاضيه يابت .. بخبز لابوكى محمد العايق ..
زوادة المولد .. قراقيش بتخر سمنه بلدى كده .. رجاله مالهمش
ضريب .. هما نور البلد .. من غيرهم تبقى كفره ..

وتضحك لها رشيدة وشوق ويقولان فى نفس واحد .

— والنبي تقعدى ياروايح

فتح الباب على آخره ، دخل الحاج كريم ومعه أحمد بدوى
والعايق والعراقى والأطرش ، سكت الضحك والثرثرة بحث كل
واحد عن طرحتها لتستر نفسها ..

— كل سنه وانتو طيبين يا ولاد .

— أهلا أهلا نور عيني

صاحت روايح تشير بيديها للعايق والحاج كريم ..

— أهلا .. أهلا ..

ثم شرعت تتقافز أمامهم راقصة والعايق يكرع بالضحك .

— بس يابنت الكلب .

اختطفت شليتها وخرجت تجرى دون مقدمات .. الكل فرح
بالحاج كريم وجه رشيدة مشرق .

— كل سنة وانت طيب بابا .. يخليك ويخلى رجالتك .

وأسرعت الحاجة وقد عاد وقارها وأشرق نور غريب فى وجهها .

— يتن بيتك ياخويا وما يقطع لكش عادة .

وتهلل لها الحاج كريم .

— كل سنة وأنت بخج يا حاجة .. يا مرحب .

عينا احمد بدوى على امراته الخجلة تدارى وجهها بطرحها
العابق يكركم بالضحك والعراقى يستخفه السرور فيضع يديه حول
فمه وينادى على المدد من السلطان ، تمتلىء الدار بالضحك والزياد
وتصرخ البنات وراء وشيدة مستحلفات الحاج كريم أن يأخذهن
معه الى فرح السلطان والحاج كريم يضحك ويقول .

— انشاء الله .. انشاء الله .

ثم يخرج ووراء الدراويش .

غرفة المعاش المعتمة عابقة برائحة الخبز والقراقيش ..
اللبة ذات الشعلة ينتشر الضوء الشاحب والظلال أم عبد العزيز
جالسه بين الأوانى والجرار وتحت تعاليق حزم البصل والثوم وأمامها
أهرام الخبز والقراقيش وحولها البنات مجعدات ذابلات العيون
تقرز الخبز واحدا واحدا ، تنفض عنه الدقيق بخرقه فى يديها وتنفي
عنه التالف والمحروق ، تتركه فى جانب لن يأكله أحد ، ستعيش
عليه هى لا شئ يلقي أبدا لن يرضى أحد غيرها بأكله .

أتى الحاج كريم ونظر فرحا الى أكوام الخبز والقراقيش ثم مضى
يهز رأسه مسرورا مبتسما للبنات .

— كل سنة وأنتوا طيبين .

وترد أم عبد العزيز .

— حطينا عليه السمنه اللى حيلتنا .. طول السنة بقى ناكل
طوب .

وجمدت البنات ناظرات الى الأم والأب فى انتظار العاصفة
المقبلة ، لكن الحاج كريم يهز رأسه فى بأس ويخرج الى وسط الدار
يلتفت الى عبد العزيز ..

— لمبة الدوار يا عبد العزيز .

ثم يمشى ويثيدا خارجا .. الى الصحاب .. الى جلسة المساء .

السفر

لا يستطيع أن ينام ، يغمض عينيه لتهاجمه احلام يقظه غريبه ،
بعوضه منقضه طنينها يدوى فى اذنيه والبراغيث تزحف على جسده
تحت ثوبه القديم الذى يخصصه للنوم ، الوسادة تنضح ترابا يزكم
نفسه ثم احلام اليقظه المهوشه الغريبه ..

انه الان ينام وحيدا فى هذه الغرفة على السطوح وجد سريرا
صدئا قديما فى ركن من اركان الدار جاء به واقامه هنا .. فالت
له أمه ..

– تنام لوحذك يابنى .. حاجه تطلع لك ..

اصوات اصطكاك النحاس تاتبه من غرفة الحاج كريم التى تقع
تحت غرفته تماما انه حمام الحاج كريم ، فاليوم سفرته الى طنطا ..
بغمض عبد العزيز عينيه محاولا النوم فتهاجمه الاحلام الغريبه .
الصور تتمرد وتضخم تتخذ حجوما خرافية واشكالا مهولة ، أفواه
بتسعة وانياب تفرز القيح والسم وتقول اكثر الكلمات بشاعة
وكفرا .. يقبض بيده على عامود السرير النحيل الصدى ويفتح
عينيه .. لكن الظلام مطبق بلا رجاء .

على صوت اصطكاك النحاس فى الغرفة السفليه تترى صور من
طفولته ، الحاج كريم عار تماما واقف على كرسى خشبى وسط
الطشت والماء الدافئ يجرى على جسده من الابريق الفخار الاسود
ينفخ الماء من منخريه بقوة ويدعو بأدعية حازمه فرحه .. وعبد
العزيز صغير قدر الكف لابد فى فرش السرير النحاس الشاهق

الاعمدة والماء الذى بطير منه النخار يتدفق من ابريق الفخار الاسود
المعلل والام مهوشه الشعر مفتوحة الصدر جلاباب رقيق وحيد على
جسدها وكومة العيال على الارض كومة عرى وعرق ورائحه
زاعفه ..

يحاول عبد العزيز أن يستغرق فى النوم لكن الاشكال تتلوى
ونخذ اوضاعا مرعبه وتصرخ ويسيل منها القيح والسم .. يفتح
عبد العزيز عينيه ويحاول بشسده أن يتشبث باليقظه ان يتعقل
الاشياء ويضعها فى تسقها وان ينام نوما هادئا ..

هب عبد العزيز جالسا أضاء مصباحه ليطرد مخاوف الظلام فى
الركن كومة كتبه تأملها تحت اغلفتها المتربه علتة ودواؤه .. تلقيه
كلماتها فى المتاهات الغريبه لم يبق شئ فى عالمه ثابت معاول
المعروفة الرهيبة تدمرتصوراته واحد اثر واحد .. خلقت فى داخله
جساره ومرارة ، أصبح يدمن وخزها الاليم ..

نزل ويبدأ على درجات السلم العصافير فى سقيفة الحطب ،
الدجاجات الشرهة الى حبوب الافطار افراح الحمام المزغبة فى
البنانى ، النهار اليقظان المغول الوجه .. هربت احلام الليل ..
لكن فى زاوية دماغه سؤال عويص وفى قاع قلبه هم لاينكسر ..

الحاج كريم جالس على مصطبة وسط الدار وجهه حليق طرى
بالاستحمام والصدار الشاهى وسلسلة الساعه الفضيه تجرى من
العروة الى الجيب قاطعه عرض الصدر ، عبد العزيز يحس نعومة
الشاهى وبرودة سلسلة الساعه من بعيد .. يود لو يريح رأسه
على صدر ابيه ، لكن هيهات ..

قبل يده وجلس على طرف الحصير محاذرا غير مطمئن بقايا
تساييح فرغ منها الحاج كريم .. حمد لله ودعى لاخوان الطريق
ومسح وجهه مؤمنا .. ثم نادى

- ياوлад .. هاتو لقمه

كسرة وحبة ملح ، ملأ فمه وناول الباقي لعبد العزيز ، طعم فى غاية العذوبة ، الضوء فى وسط الدار رائقا .. وفى الأركان كابيا قليلا .. عصافير متأخرة مازالت عيونها تلمع فى الاعشاش ..

- ياوлад .. هاتو القهوه

الكنكه النحاسيه الصفراء اللامعه والفنجان المزركش الكبير بدأ يرتشف قهوته فى استمتاع حكى لعبد العزيز مرات كثيره عن القهوه وانها مشروب الذاكرين يشربونها سوداء من غير سكر لكى تعينهم على اقامة الليل ساهرين يذكرون الله .. يكون من حلاوة الوداد .. لا تهاويل متقيحه .. لا كلمات كافره رهيبه .. لم يعد عبد العزيز يعرف حلاوة الوداد أو الاتساق مع نفسه انه يكره الليل ويهرب منه الى وضوح النهار .. لو يمرغ وجهه فى يد الحاج كريم السمراء ويكي ..

- اشرب يا عبد العزيز

ومد الحاج كريم فنجال قهوة الى عبد العزيز ، أخذه متسرعا خجلا هذه أول مره يدعى فيها الى قهوة ابيه ، ثبت نظره على الارض لا يحوله .. طعمه طيب .. مشروب الذاكرين

احضرت الام طربوش العمامه وشالها اقام الحاج كريم ساقه مثنيه امامه ، كبس الطربوش فى ركبته فرد الشال بينه وبين أم عبد العزيز كبيرا شفيفا ، ثم بدأ يطوى بينهما طيات متتالية لكى يصبح شريطا طويلا لطيفا .. عندما كان صغيرا كان يسابق أمه لكى يفرد الشال أمام ابيه ، يفشل وتلتوى كفاه ويضحك منه أبوه ويحاول من جديد .. كان فى كل شىء بهجة ..

بدأ الحاج كريم يلف الشال بعناية حول الطربوش وهو يتابع اهتمام أبيه .. ساهما .

الزوجة الأخرى جالسة أمام باب غرفتها تستند ذقنها على كفيها صامتة ، والبناات يقمن ببعض أشغال الصباح فى سكون .. ناول العمامه الى ام عبد العزيز وقام متمهلا الى غرفته وامام المراة بالدولاب لبس قفطانة الشاهي وتحزم عليه بشال كبير مزركش ثم ارتدى جلبابه الكشميرى الكبير ، تناول العمامه .. حبكها على جبهته ونظر الى نفسه فى المراة وهو يسوى طوق جلبابه على صدره ببسطة كفه ، مهيب مزوم الشفتين ، كل مافيه انيق ليس فيه عيبه ..

« .. توضعاً أبو زيد وصلى لله ركعتين وأخذ عدته وحسامه ، خوذته ولثامه عازما على الرحيل الى ارض تونس ووقف بنو هلال حوله مودعين وبالسلاسه له داعين والقي ابو زيد بعيونه على النيافى والقفار .. ثم نظر الى من حوله من الكبار وانشاء يقول ، صلوا على طه الرسول .. » نسى عبد العزيز الشعر ، ونسى حتى نبرة احمد بدوى وهو يتغنى بالابيات ، لكن ذلك الحنين الذى احسه وقتها اصبح شيئا خالصا يخالط روحه .. الحنين الغامر للسفر .. للخروج .

وقف الحاج كريم ساكنا فى وسط الدار عيناه البنيتان لاحتطان على مكان .. لا نأمة حتى الحمام سكنت على البنانى ، كانما هو قائم للصلاة فما تجسر على المرور من امامه .

— طيب .. نتوكل على الله

ومد يده فناولته ام عبد العزيز العباءة طرحها على كتفه وضمها الى صدره بيسراه وناولته العصا فعلقها على ذراعه اليمنى وبدأ يتحرك فى اتجاه الباب تقدمت اليه ام عبد العزيز فمد لها يده

فقبلتها في صمت ثم الزوجه الثانية ثم النبات ٠٠ وخرج الى الشارع
يمشى وثيدا وبجواره رصين الخطو يمشى عبد العزيز .

شرفة الدوار نظيفة مكنوسه الدكك مفروشة بالحصر البيضاء
الشارع لا يزال ساكن التراب من ندى الصباح ٠٠ جلس الحاج كريم
في مكانه من الاريكه ركن عصاه ووضع عباءته بجواره واخرج علبة
دخانه وبدأ يلف لنفسه سيجارة ، من امامه تتحدر سلالم الشرفه
الى الشارع وعبره يمتد الجرن وفيه بضع نخلات ثم تترامى الحقول
الى الافق وعيناه البنيتان تجوبان الامتداد المترامى مشوقتان ، وجهه
الاسمر السمين ريان بالرضى ، مباحج الرحلة ٠٠ السفر ٠٠ الطريق
الى السلطان ، لاشيء يستطيع أن يضع فى قلبه كل هذا الفرح الا
السفر ٠٠

وصعد محمد كامل سلالم الشرفة ضاحكا ، مغسول الجلباب
قد لف شالا ابيضاً على طاقيته من صوف الغنم الاحمر والقي على
كتفه بملفحته وقام الحاج كريم مرحبا وسلميا مشتاقان كأنما لم
يتقابلا منذ سنين وهما اللذان سهرا معا بالأمس فى ردهة الدوار
وقبل محمد كامل كتف الحاج كريم وقبله الحاج كريم ما بين عينيه
وسلم محمد كامل على عبد العزيز ودعى له ثم جلس على الاريكه
مهتاج الوجه بالسرور ٠٠ أخرج حق مضغته وطقف ينكش فيه بعود
ويتهف به الحاج كريم

— هو الشاعر كان يقول أیه یاعم محمد یا کامل

ويهز محمد كامل رأسه فى انتظار الشعر ضاحكا مغمض
العينين

— أيوه یاعمی أيوه

— كان یقول یا سیدی :

يا عـرب يا لى ناديتولى آدنى جيت
واقف على بابكم وان اذنتولى آدنى خـشيت

— الله ٠٠ الله ٠٠ الله

ويتقدم محمد كامل باسـطا كفه ناحية الحاج كريم عازما عليه
بشعرة من دخان المضغ

— ما تحرمناش من طريقك يارب ٠٠ وداد يابو فراج وداد

وما يكاد محمد كامل يجلس فى مكانه حتى يهل احمد بدوى
ومعه عراقى الاطرش ضاحكين مهللين عراقى وضع عمامته الحمراء
ومشط لحيته لم يسلم وانما وقف وسط الشرفة ورفع عقيرته
بالمـدد ٠٠

— مدد ٠٠ يا سيدى احمد يا بدوى مدد

والقى احمد بدوى بنفسه على الحاج كريم يعانقه ، لطيف فى
ثوبه الجديد وطاقيته التى تلبس راسه باحكام وملفحته التى
تتدلى شراسفها على الارض من قصر قامته ٠٠ الحاج كريم يقبل رأس
العراقى الذى انحنى يقبل يده وهو يقول متغنيا

— احباب السلطان عليهم نورا يا سيدى ٠٠ مدد ياعم

وجاء الناس من كل فج امتلأت شرفة الدوار بالوجوه الفرحانه
واخرجت علب الدخان وتبدلت اللقائف واخرجت احقان المضغ
وصفقت على الاكف وقدمت للاخوان مبسوط عليها الدخان المدقوق
المندى ، عبد العزيز ساكن فى الركن يبتسم ، السرور الجماعى
اجتاح كآبة المساء ٠٠ اكتسحها غسلها ٠٠

ما الذى جمعهم اهو زعيق العراقى مناديا على المـدد ام تلك
الانفاس التى تسرب منذ أيام فى البلد ٠٠ حثيثه تنفخ فى كل قلب

نارا وعلى المصاطب امام ابواب الدور فى العصارى وعلى الكيمان
فى الليالى الصصيفيه المقمرة يدور الكلام ماذا عن ايام السرور ،
قليلة على مدار العام ، والزمن بينها مفروش بالكد والغناء ، ومولد
السلطان فريد فى ايام السرور ، تلك السفرة الغريبه الى طنطا ،
ثم الليالى هناك متفجره بالاضواء والغناء والهياج ..

– والله العظيم لو حتى سرقت لرايح .. لو حتى مليت حجرى
غلة من المخزن وبعته لابد رايح .

وينظر الجالسون الى الشاب الذى استخفه الشوق والى هياجه
وايمانه المغلظه ويضحكون فى كل قلب شوق وفى الاكياس الخلقه
قد يكون ثمة قروش قليلة او لا يكون – لكن الله كريم – ومن هنا
الى صباح يوم السفر يستطيع الله ان يرفع سبع سموات وان
يبسط سبع اراضين ..

وفى ذلك الصباح تلبس الجلابيب المغسوله وتعلق العصى فى
السواعد وتردهى الوجوه بالجبور ..

– فىن احنا من اهل زمان ... الله ينفعنا بهم .. ويشفعهم
فينا ..

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجور به وتشرئب
اليه الوجوه المشتاقه للسفر .

– ما كانش الواحد منهم يركب دابه وهو رايح للسلطان ابدا
.. ان ركب يبقى أساء الادب .

ويهتف محمد كامل من اعماقه

– يا سلام .. يا سلام على كرمك يارب

ويسمع من عشرات القلوب المتزاحمه فى شرفة الدوار والمتكاكثه

حول السور هزيم الانبهار والايمان ونفرق الوجوه - المبتعة من
سوء التغذية - فى رضى صوفى .

- نوب احنا يا عم محمد يا كامل بنسافر فى القطر قاعدين
مربعين رجلينا ..

ويتأثر محمد كامل حتى ليكاد يبكى ..

- احنا ضعاف يا عم الحاج كريم

ثم ينكس رأسه ويواصل بصوته المشروخ حاكيا عن

- راجل نواحي المحلة الكبيره .. يقوم الصبح يقول لمراته ..
يامره هاتى العصايه عاوز اقوم ازور سيدى احمد الرفاعى فى العراق
.. تناوله العصايه والعصر تلاقيه راجع .. يناولها بلح عراقى ويقول
لها ربنا رزقنى ببلحتين وأنا قاعد اقرأ سورة ياسين جنب مقام
الرفاعى ..

والايمان يثز فى القلوب كطنين النحل والناس يمصصمون
الشفاه دهشين يحوقلون ويبتهلون ، ويصفق الحاج كريم باطن قدمه
المجوريه مغمض العينين قائلا

- طاروا على متن حرفى « كاف » و « النون »

دول اهل الخطوه ياعم الشيخ محمد يا كامل

وتبرق عيونه البنيه بذلك الشوق الذى عرفه عبد العزيز اذ
يقف فى شرفة الدوار يدور بناظريه يثقل على روحه حبس النهار
القعود يتململ فى مكانه والشوق فى عيونه ألم قاتل .. اذ ينشق
الطريق عن واحد منهم ، المسافرين فى الزمان ، الجوابون ، الارواح
الهزيله الرته الهائمه فى الريف .

كان ذلك الرجل ابيض الوجه دقيق اللحيه واسع العينين واذ
يزيح عمامته ينسدل على جبينه شعر أسود سبط .. اخرج من كبه

قطعة جلوى قدمها للطفل عبد العزيز ، وما ذاق الولد اشهى منها
ابدا . . وعرف أن الرجل يثقل نفسه تحت ثيابه باغلال الحديد
ويسأله الحاج كريم .

— ليه كده يا عمى

هو احدث سنا من الحاج كريم لكنه يناديه يا عمى

— بلاوى الناس . . شايها على ضهرى

وفى المساء حين اقيم الذكر طار بين الصفيين كالحمامه البيضاء
وجن جنون الذاكرين .

وفى الصباح سأل الطفل عبد العزيز ملهوا

— الراجل فين يا بابا

والحاج كريم ينظر الى بعيد .

— مشى يا بنى . . مشى

واذ يقف الحاج كريم وحيدا فى شرفة الدوار . . وعبد العزيز
عند اقدامه يرى عيونه ترف فى الآفاق بنية يحيرها الشوق اذ ذاك
ينكشف السكون عن طيف مهدم يدب على عصاه احد المسافرين
فى الزمان يتهلل الحاج كريم وينزل درجات السلم مرحبا

— اهلا يا عمى . .

عجوزا مهتما كليل البصر رث الثوب يتسند على فرع سنط
يجلس على الاريكه مهموما بنفسه لا يرى ما حوله يهمهم بما لا يفهم
يتقاطر الاخوان والناس والرجل لا يعنى ما يكون يخرج حق مضغته
ويفرغه كله فى كفه ثم يضعه فى فمه آنا ثم يستخرجه مرة أخرى
ويودعه الحق يتململ مكروبا ملولا يلقي نثار الكلام . .

يأتى محمود ابو اليزيد حاملا الصينيه النحاسيه الكبيرة ويأتى

كل رجل من دارة بطعام . المكان ناسي وطعام ، الحاج كريم مبنهج
لابصر له قرار ، ودون سابق انذار يمسك الرجل عصاه ويدب نازلا
من السرفه متأنيا على الدرجات والناس تتبعه بالعيون والقلوب حتى
اذا كان وسط الباحة امام شرفة الدوار ، اذ به تركبه روح مارده
ونلبسه قوة عريبه ويرفع عصاه فى الهواء ويصيح قافزا على قدم
واحدة ويدور يرقص رقصة غريبة وصاح مدوى ، دوره أو
دورتان بم يعود عجوزا مهدما يدب على عصاه منصرفا والجموع واقفة
مأخوذة وهو يغيب مع انحناء الطريق ..

ان روح عبد العزيز تحلق وهو فى وسط هذا الحسد من
المسافرين ويود لو ينطلق يدور فى البلاد لا يسأل اين ، لا بسأل
لماذا ، لكن كبف يسافر الانسان من غير العكاز والحفاء والوضوء انه
جنب ثقل الرأس بعلامات استفهام لا تقهر ثقل القلب بهم لا
ينكسر ..

ويضحك احمد بدوى ويفرق فى الضحك مذكرا الاخوان
بسفرتهم الاخيرة الى مولد الحسين اذ عبثوا فى عربه (كاميون)
وركب الحاج كريم بجوار السائق والدراويش افترشوا ملافهم
مع نسائهم فى صندوق العربه وظلوا يتارجحون ويضحكون حتى
وصلوا الى القاهرة مهشمين من الاجهاد والضحك .. ويشرد محمد
كامل .

ـ الشراقوه حيطبوا طنطا بكره انشاء الله .

وبيتسم الحاج كريم بخنان سوف يسافرون الآن ويعبدون
البيت فى طنطا ومن غد يصل الشراقوة ويقيمون مدة المولد ضيوفا
عليهم مكرمين ..

وربما من بكره صباح الغد سيخرج الشيخ من داره مرنديا
عمامته الخضراء وجلبابه الكشميرى الكبير ويجلس امام دواره فى انتظار

الاخوان ليبدءو الرحله الى طنطا وربما ينعقد هناك امام دوار الشيخ
مجلس مثل هذا طلى الحديث ملء بالشوق الى بهجة السفر ..
ويتصور عبد العزيز الشيخ عباس وقد اهل من بعيد على مجلس
الشرافه امام دوار الشيخ يتحسس طريقه بعصاه فهو كليل البصر
حتى ليكاد يميز الاشباح - وحالما يستقر له الجلوس ويشرع في
الحديث لا تسكته قوة في الارض ولا في السماء ذلك الازهرى الذى
هجر دراسته دون ان يحصل من العلم شيئا ومع ذلك فهو يتخذ
الجبه والعمامه ويترخص في افتاء الناس يفتيك بما تريد ييسر لك
امور الدين حتى لو افطرت في رمضان عامدا .. لا بأس .. صل
لله وكنتين واستغفره يغفر لك .. اذا كنت حنبليا متمسكا
فاطعم مسكينا . ان الله غفار ياأخى لما التضييق على عباد الله.!!!
ويضحك أحمد بدوى حتى يكاد يقع على ظهره ..

- والنبي يا شيخ عباس انت تستاهل يتعملك مقام .. بطنك
أوسع من السيد البدوى ..

لكن المستكاوى يصطنع جهامه مضحكه ويسأل بلسانه الشرقاوى .

- جولى يا شيخ عباس .. سرجة الحمير حلال .. ولا حرام ؟
ويتدخل العايق مصطنعا الجد .

- هيا مش حرام يامستكاوى .. بس تقسى قلوب الملايكة .

ويفرق المجلس فى الضحك ويشتمهم عباس .

- ولاد كلب حشاشيين ..

فالمستكاوى والعايق يعبدان الحشيش عباد .. ويغرمان
بالبتياب الناعمة والطيب ، لكن احدا لايدرى من اين ياتى المستكاوى
بمعاش أولاده ولا احد يسأل ربما يهمسون انه يسرق الحمير لكن
الشيء المؤكد انه لا يسرق حمارا مدة موالد الشيخ ..

زمانهم الان ٠٠ أو صباح غد سوف يجلسون امام دوار الشيخ
حتى يجتمع شملهم ، حتى يأتى صانع القهوة الأسود حاملا عدته
فى خرجه الصغير وحتى يأتى كاتب الرقى الفقيه الذى لا يكف عن
التسبيح أبدا والذى لا يكلم احدا تقريبا ٠٠ حتى يجتمع شملهم
فيبدأون الرحله الى فرح السلطان ٠٠ وفى امسيه ندية فى بيت
الخدمه سيكون اللقاء ٠٠

كم رقت القلوب وهفت للسفر الوشيك وطارت أجنحه الشوق
وحطت على الذكريات الحبيبه يميل الحاج كريم على احمد بدوى

— ياترى جوابنا وصل لحسن افندى وعرف معاد المولد

سلمه ساعى البريد الخطاب قراه وابتسم ابتسامه وضيئه ومن
غد سيضع الطربوش على رأسه ويزرر معطفه ويقف حائرا على رأس
السلم المعتم وخجلا قليلا ثم يستجمع نفسه ويقول لامراته الواقفه
تحمل ابنتها الصغيره

— خللى بالك من نفسك

وينزل مسرعا

ظهر العايق وعلى كتفه خرجه وفى يده ساعته •

— يا أخونا لسه بدوى

ويزوم سليم الشركيسى النجار عصيبا

— لما نبدر شوية .. مش احسن ..

ويسلم العايق ويقف فى شرفة الدوار يتكلم ملوحا بيديه ••

— لسه بدوى يا عالم •

ويعاجله احمد بدوى

— بدوى ولا وخـرى ٠٠ انت قاعد فى الدار تعمل ايه ٠٠

مشبعتش من روايح طول الليل ؟

ويضحك الحاضرون .. ويضحك الحاج كريم مداريا ضحكته
 .. وفجأة تبدو روايح بذاتها على البعد تنادى العايق وينفجر
 الضحك أكثر وأكثر .. ويهرول العايق بحجمه الدقيق الى روايح
 ويقف في كنفها ضخمه عيونها تبرق كعيني حدأة تكلمه بالحاج وهو
 يلوح بيديه وكلما اراد ان ينصرف استبقته بأن تجذبه من طوق
 جلبابه واخيرا أقلت منها وأقبل مسرعا وهي واقفه في مكانها تنظر
 اليه كأنه ابنها الطفل مسافرا لأول مره في طريق محفوف بالمخاطر
 .. استقبلته في الشرفه عاصفه من الضحك والتساؤل .

- كانت عاوزاك ليه

- خير يا عايق

- جاييالى ورقه دخان

- لازم كنت سبع ليلة البارح

ويضحك العايق ويكرحك حتى تبدو أسنانه التى اهلكتها
 الكيوف

- كانت ليله ندى .. جوز حمام وتعميره

ولابد أن كلا من الحاضرين تجاوز التعميره والليله الندى وفكر
 فى زوج الحمام الذى طهى للعايق بالأمس وكل سرح ذهنه الى البنانى
 فى داره ، حمام من ذبح أمس مساء ..؟ عبر أحمد بدوى برهة
 الصمت وسأل العايق

- ومافوتش على الجازيه تقولها خليتك بعافيه

- لا

- ما لكش حق

- شوف يا سيدى

- هـ

- رويح لها ليلة ما أكون صابح مسافر وليلة ما يكون صابح عيد او موسم ونهار السوق بالليل والباقي انا حر فيه ..

- وان رحت ليلة من دول للجازيه

- ان روحت صبحيتها الدار تكسر رجلى

وانفجر الجالسون ضحكا وعلق واحد

- يعنى رويح كبت فيه بصابون قدام الباب النهارده

وضحك العايق

- صابون بريحه

نهض الحاج كريم واقفا ضاماً عباءته الى صدره بيسراه ممسكاً عصاه بيمينه ووجهه وقور هادى ساكن وقام الحاضرون وقوفا وحل صمت جليل لتوان وتكلم محمد كامل بصوت عميق الفرح

- الفاتحه لاوياء الله الصالحين .. ان ربنا يصلح احوالنا جميعا ويسهل لنا طريقنا ويفتح فى وشنا الابواب .. الفاتحه

وقرئت الفاتحه فى همسات لا تسمع وفهم العراقى انهم يقرأون الفاتحه فرفع يده فى هيئة دعائية وبدأ يحرك شفتيه حتى ادرك انهم ختموا القراءه مسح صدره بيديه مؤمناً ورفع عقيرته مناديا على المدد .. لم يعلق احد ولم ينطق ببنت شفه مشى الحاج كريم وندا نحو سلم الشرفه وبدأ ينزل الدرجات فى سكون والجميع ورائه صامتين يخون فى الجلايب المفسولة ساهمون سارحون، نحنحات أو مصمصه شفاه اليوم لا تسمح الانوف فى الاكام ولا ذبول الجلايب ، منديل او خرقة نظيفه مطبقه ..

وجه الحاج كريم مشرع الى الامام وعيونه مليئة بالجلال والحنان والشوق ، لم ير عبد العزيز ذلك التعبير فى عيون انسانية ابدا ، ظل محفورا فى خياله ، اشتياق لا يرتوى الى عوالم مبهمه غارقة

فى الصفاء ، حينما كان صغيرا كانت تلك النظرات تصيبه بالخوف
او بالحزن فيمشى فى كنف ابيه ساكنا منكمشا على كيانه النحيل
ينظر اليه فى خشوع ويمشى مبهور القلب يتعثر فى حصاء الطريق،
انه اليوم فى ذيل الموكب لكنه يحس رفيف هذه العيون تستطلع
أعلى الطريق وترين على موكب المسافرين ويراهن فى هؤلاء الناس
على جانبى الطريق يتقدمون الى الحاج كريم صامتين وينحنون على
يده يقبلونها ، اليوم لايجذب يده من أحد يسلمون وهو يهمس لهم .

- نراكم فى خير انشاء الله

ويرفع واحد بصره اليه راجيا

- سألناك الفاتحه فى المقام يا حج

رجل من القاعدين ، ربما جذب اليد وفراغ الجيب وربما هموم
الدار وشواغل الحقل أو فساد الهمة وفتورها كريح واهنة لا
تدفع القلاع الى محاط الشوق آه من ثقل المراكب وتلكؤها بالشطوط
وتوزع النفس وحيرة الليل .. لكن الحاج كريم يهز رأسه مؤكدا
والحنان والتسامح يفيض من ملامحه

- انشاء الله .. انشاء الله

وحينما مر موكب المسافرين امام الدار وجد عبد العزيز الباب
مشقوقا ولمح عيون البنات تزدحم فى الشق ضحك فى نفسه على
لهفتهن الغريبة، انهن يعبدن اباهن الحاج كريم، من فى البلد لايجبه
.. سوف يسافرن من غد لكن اى سفر سيخرجن لابسات الاسود
محجبات ولن يسن فى هذا الشارع المسوى الى المحطة .. بل يسقن
الى سكه موغله فى الحقول متجنبه سبل الناس يتعثرن فى الكيمان
ضاحكات وشاتمات فى السيد البدوى وسككه العثره وسوف يكن
فى صحبة رشيدة ومعهن رجل لكنه بالقطع سيكون ذنبا خائبا
فانه أن يشارك فى موكب الحاج كريم .

هكذا يكون سفرهن ، يتمنين لو كن رجالا ، ولكن أسوأ الاسعار
خير من القعود فى الدار ، بحار المخاوف المدهشه ، القطر والكمسارمة
وعبت ابناء البنادر ، موكب المسافرين جاوز الدار وهاهى امرأة
امراة احمد بدوى وامراة محمد كامل وامراة الشركسى النجار .
مسافرات مع الرجال يحملن سلال الزواد وتسحب كل واحدة طفلا
ماعد امراة محمد كامل ، مسكينة ناكسة الرأس كسيرة العينين ، باليت
الحاج كريم يدعوهن اذن لحملن السلال على الرؤوس وطرن وراء
موكب الرجال ، لكن زاد - الحاج كريم لا يحمل فى سسلة بل
صحارتين هائلتين تحملان على جمل عمر قرهود الجمال ٠٠ يلتفت
عبد العزيز وراءه ليجد شق الباب قد احكم ويضحك فى نفسه مرة
اخرى وهو يتخيل هرجهه وعراكهه وجريهه فى كل اتجاه يجهز
لرحيلهن ٠٠ ويتصور انه الان غير مباليه بشئ من هرج البنات
تروح ، وتجيء فى الدار حازمه متجهه تطعم الدجاج وترعى البهائم
او تعد الشوالى لحلاب المساء ٠٠ التأم شق الباب والموكب يمضى
والناس يسلمون وفى همس يسألون الفواتيح فى المقام والنسوان
فى فتحات الدور ينظرن الى المسافرين ، لكن قد يحدث ان تندفع
امراه نحو الحاج كريم حامله صغيرها .

- والنبي يا عم الحاج اقرأ الفاتحه لابنى فى مقام السيد

ويتوقف الحاج كريم ويضع يده على رأس الطفل ويدعو ثم
يربت كتف المرأة ويمضى والمرأة دموعها تنهمر على خدودها وعندما
يجاوزها الحاج كريم ماضيا تطلق زغورده طويله مظلمه فيها بيدها
وتتردد فى الموكب المصمصات ويعدل العايق من وضع الخرج على
كتفه وتلمح فى عيونه نظرة غريبه

- ايه ٠٠ ؟ يامرة يا بنت الكلب

ويغالب احمد بدوى ابتسامته ويقول مؤدبا للعايق

- خليك في حالك يا بن الكلب .. هيا دوده مابترحمكش ابدًا
ويدارى عبد العزيز ابنسامنه مكسوفًا ثم يعبىء قلبه بالجلال
ويمضى مع الموكب ومن بعد يرى على خليل امام باب دكانه عليه
هيئة السفر الجلاب المغسول والوجه الحليق والابتسامه المشرقة

- السلام عليكم ورحمة الله يا عم على يا خليل

وينحنى على خليل على يد الحاج كريم ويقبلها ، ويقبله الحاج
كريم فى جبينه وفى سكون يمضى الى داخل الدكان ليحضر حصير
المصطبة ، رفوف الدكان مزدحمه الى السقف بالعلب والاحقاق
والكيزان الصابون والسكر والقماش وزجاجات المصابيح وسائر
الوان البضاعة ، العلاقات من السقف محمله بصنوف من ملائح
الرجال وشيلان البنات الحمراء والخضراء ، الصناديق بجوار
الحيطان مليئه ببلح التمر والعفس والفلول وعلى الارض بلاليص
العصل الاسود واجولة الارز والملح كل الاشياء تتكدس بلا نظام
غارقة فى الغبار والوساخة ، كان ريق عبد العزيز يتحلب وهو صغير
حينما يرى الحلوى الملونة فى النافذة الزجاجية الصغيرة فوق
البئسك ، أما الآن فهو يحب أن يتأمل على خليل يدور بين هذه
الاكداس هادئًا ساكنًا لا يتعثر مثلما تفعل ام عبد العزيز فى غرفة
المعاش .. وحينما لا يكون ثمة زبائن يهجع على جوال مفعم ويفتح
امام عينيه كتابا اصفر الصفائف مبقع بالزيت ويسرح ساكنًا
شاحب الوجه ..

فرش على خليل الحصر الأبيض على المصطبة ومسح عنه
التراب بكفه والحاج كريم يهتف به :

- كويس .. كويس يا على .

ويجلس ويجلس من يجد لنفسه مكانا ويقف الباكون متحلقين
حول الحاج كريم ويأتى على خليل بالكراملة ويوزعها على الحاضرين

.. لم يعد عبد العزيز يسيفها كثيرا يتردد دعلى خليل فى اعطائها له
فالأفندية حذرون عادة ازاء حاجة الفلاحين لكن عبد العزيز يسرع
بأخذها ..

— نفسى فيها من زمان ..

لهم فى كل مكان مكان للجلوس نظيف ولطيف ودائرى وحينما
يجلسون ويشرعون فى الكلام فانك لاتدرى متى ينتهون ، دارت
اللفائف وصفقت أحقاق المضغ على الأكف وعلا صوت العايق
ضاحكا ونظر العراقى حوله غير فاهم شيئا لكنه يبتسم للفرحة
التى يراها على الوجوه ..

ويأتى عمر فرهود جريا ، داره على بعد خطوات من الدكان
والجميل جائم هناك هائل الجرم ، يقبل يد الحاج كريم ويقبله
الحاج كريم فى جبينه ..

— كل عام وانت بخير يا فرهود ..

وصوت عمر فرهود متدللا مشروخا وهو يقول :

— سألتك الدعوات يا عم الحاج ..

— انشاء الله .. انشاء الله ..

ثم يبتسم لفرهود منبها عليه ..

— الصحاحير من بدرى يا عمر .. زوادة السلطان يابنى ..

— من عينى يا عم الحاج .. دا فرض عليه .. ربنا مايقطعناش

— آمين ..

ثم يبصر عبد العزيز فيسلم عليه ضاحكا :

— ازيك ياسى عبد العزيز .. مش عاوز تركب على الجممل

السنة دى ..

ويضحك الحاضرون وينظر الحاج كريم مبتسما الى ابنه
راضيا عن حب الاخوان له فيقول عبد العزيز خجلا :

- بقيت تقبل عالجمل يا عم عمر .

ويضحك الحاضرون ويواصل فرهود :

- كان غرامه الركوب على الصحاحير ..

اذ ذاك طفلا صغيرا يقف أمام باب الدار منتظرا ، ومن بعيد
يأتى جمل عمر فرهود الهائل الجرم ينقل كلاله على الأرض وهو
سائر يتدفع ، وعمر فرهود يتقافز حوله بخيزرانه الطويلة وأمام
باب الدار ينبخ الجمل ، الارتفاع الشاهق يتهاوى حتى يجثم على
الأرض والجمل حائر العينين يتلفت شاكا مستوفزا عصبيا وعمر
فرهود بهدىء نائثرته باصدار صوته خاص مستطيل .

- هخ .. خ .. خ ..

ويأتى الفتيان خجلون متكسرى العيون لكن وجوههم مزدهية
بالانفعال عبد العزيز الطفل يحس هزير الانفعال فى صدورهم وينظر
اليهم خائفا كارها والبنات فى اركان الدار واسعات العيون بكتمن
ضحكات فرحه ووجوههن تكاد تبك دما من الهياج .. أم عبد العزيز
حازمة عارفة لما تريد ..

- من هنا يا جدد انت وهو .. كل اثنين من ناحية .. بالراحة.

ويهجم الفتيان على الصحاحير ، سواعد مليئة بالمرودة ويحمل
كل أربعة صحارة ويخرجون بها يضعون الصحاحير على جانبي
الجمل الجاثم وعمر فرهود مستطار اللب يدور يجرى هنا وهنا .

- حاسب ياسيدى .. ماتعديش من قدام الجمل .. بس ..
بس كده .. استنى اما اقولك ابقى شيل .

ثم يوثق الحمل على ظهر الجمل بالحبال وأم عبد العزيز

عيونها على الصحارتين والبنات عيونهن على الجدعان .. شرارات
يرقبها عبد العزيز ذاهبة آية بين العيون تملأ قلبه بالخوف لكنه
يصرف همه عن هذا ويهتف متوسلا :

— ركبني بقى يابا عمر .

— حاضر ياسيدى .

يوضع الطفل على الصحاحير تقذف له أمه بخرقه بيضاء .

— حظ دى على راسك من الشمس ياوله .

يقبض على الخرقه غير فاهم شيئا كل همه منصرف الى اللحظة
الرهيبه الوشيكة ، لحظة نهوض الجمل من جثومه ، يمتلىء قلبه لها
شوقا ومنها خوفا .. يزيد من ارتجاف بدنه مايصل اليه من هدير
الجمل الصاحب القاضب من أثقاله بالحمل ، ومما يصل الى سمعه
من صياح عمر فرهود وضحك الجدعان وزياطهم .. وتنبيهات أم
عبد العزيز الحازمة وضحكات البنات المرحه المجلجلة ثم يفك عمر
فرهود عقال الجمل فيهم بصدرة ناهضا بالحمل الى الخلف ويكاد
عبد العزيز أن يطير ساقطا على الأرض لولا تشبثه الوثيق بسيج
الصحارة ، ثم ينهض الجمل بخلفيتيه فيلقى بالحمسل الى الامام
ويكاد أن يقفز بعبد العزيز مرة أخرى ، ثم يستقيم واقفا
مباھيا بقوة عضلية خرافية وعبد العزيز عال فوق الجمل الشاهق
الارتفاع يكاد يلمس بيده شباك الفرفة على السطوح ينظر الى أمه
واخوانه على الأرض ويتسم ثم يمضى الجمل وثيدا متقلبا أخفاه
الثقال على أرض الشارع وعمر فرهود فرح بجمله خائف عليه من
الحسد ..

— ياللا السلامه .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

لكن ماخوفه عليه وقد صنعت له زوجته حجابا يعلقه فى

رقتسه حجابا مشغولا بالخیوط الملونة والخرز وقطع المرايا
والزجاج ..

الجمال يندفع فى سیره ، الثقيل والحمل یصر ضائقا بالجمال
الفلیظة الوثیقة ، وعبد العزیز یهتز مع الاهتزاز الرتیب للصحاحیر
ولكنه مسرور یرى عیون الناس العیال یعرفون مشوار الجمال الى
طنطا ویضحكون له وعمر فرهود فرح بحمل الزاد للمولد .

جمیل أن ینظر عبد العزیز لما حوله من هذا المكان العالی بعدت
دور القرية وهى توغل فى الابتعاد الوثید وهذه هى السكة السائرة
تأخذك من هنا الى طنطا دون ضلال .. تمر على القرية التوام ثم
على المحطة ثم تسرح بك بین الحقول تنحرف یمینا وشمالا او
تسیر صعدا لكنها فى النهاية تأخذك الى مشارف طنطا ،
یا للفرح ..

من كل القرى ناس ذاهبون الى المولد ، المسارب الصغيرة بین
الحقول كالعروق فى راحة ورقة الشجر ترفد السكة كل آن بارتال
من المساربین ، الرجال فى الجلابیب المفسولة والبئات فى الشیلان
الحمراء والخضراء واللیمونیة والنساء حاملات السلام وصرر الزاد
على الرؤس زرافات لا تنقطع والغناء وصفق الاكف والزیاط :

یابو عتبة خضرة یاسید نادینا

ودبحنا البقرة یاسید وجینا

والجمالة یذبون جمالهم التى تحمل الصحاحیر لكن لیس فى
الجمال أبدا كجمال عمر فرهود ولیس فى الصحاحیر اضخم من
صحارثی الحاج کریم .. ولیس فى واجهات القرى دوار كدواره
.. عبد العزیز من الانفعال یا بیه یکاد یصرخ فیهم متحدیا ..

وثمة فى باخة أمام قرية كبيرة تقف عربات الأجرة ..
والریفیون أمم حولها والسائقون - یالهم - أشند شراسة من

الشياطين ، يلکزون الناس فى صدورهم ويدفعون النساء والأطفال
ويعصرخون ويفالون فى الأجور ، ويصرون على قبض حق السفر قبل
الشروع فيها .. وعمر فرهود يصيح مخاطبا عبد العزيز :

.. ولاد كلب كفره .. بيقاطعوا على رزقهم .. يمكن مايوصلوش
.. يبقوا خدو فلوس ظلم فى ظلم .. مدد يا سيد .

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن ، عربات الأتوبيس مائلة بالناس
تثير التراب زوابع وعربات الأجرة محملة على ظهورها وجنوبها
ومن خلف ومن أمام، وعند نقطة المرور ينزلون وتمر العربا أمام
العسكرى وليس فيها سوى بضعة ناس، ثم تنتظر على البعد فتوق
بالناس من جديد والسائق كالشيطان يضرب فى الناس ويركل
لكنهم يلقون بأنفسهم على العربا حتى ماترى من حديدها
شيئا ..

لكن عبد العزيز فى مكانه آمن واذا كان هكذا فانه يرى امتداد
الحقول على مسافات شاسعة ويرى القرى والعزب والكفور
والمسارب الدقيقة السارحة بين الزرع ، والناس يدبون كأسراب
النمل ، ناس يفضلون السير على ركوب هذه الآلات الجهنمية
وسائقها الشياطين يفضلون السير والحديث ، الكلام مسلاة
الطريق التى لا ينضب معينها ، شاب يكبس طاقيته فى رأسه
ويعدل طوق جلبابه ورفيقته تسوى شالها وساعدها المحلى بفوايش
ملونة ، يسند صرة الزاد على رأسها وهما يتسلمان ويتكلمان ،
أحمد بدوى آخر ورفيقته الى طنطا .. ما أحلى حديث أحمد بدوى
حينما كان يحكى عن سفراته الى طنطا مع تلك التى كان يحبها ولكنه
لم يتزوجها وزوجت فى بلد بعيد .

وفروع السنط ترمى فى حجر عبد العزيز بنوارها الأصفر
المخملى والشوك فى الغصن يخشخش فى الخرقا التى يستر بها
رأسه وعمر فرهود يقتاد جملة ناحية السبيل ليسقيه الناس مزدحمون

حول السبيل يضحكون ويتعابون ورجل يصيح بهم جادا •

– اشرب وصلى على النبي •

والسبيل عليه قبة صغيرة كأنه شيخ صغير ، قبة تستر زيرين
باردين في الظل وهناك طلمبة تضخ الماء في حوض لسقيا الدواب
وإذا فرغ ماء الزير فان ابن الحلال سوف يملأ الزير الفارغ يملأ
عمر فرهود الكوز ويعلقه في العصا ويرفعه الى عبد العزيز •

– اشرب وادعى للى عمل السبيل •• انت صغير ونفسك
ظاهر •

ويشرب عبد العزيز ويتفكر فمين أقام السبيل ربما هو رجل
طيب مثل أبيه الحاج كريم الذي يطعم الناس الجوايين في
البلاد •

ويستخف عمر فرهود الفرع فيضرب الجمل – رفيقا به –
بعضاه وبهتف •

– هيه •• هيه •• يا لله ياجدع •• خلاص وصلنا •

وبعد قليل تظهر على البعد قبة السيد البدوي وحينما يراها
عمر فرهود يزعم زعيقا يشق الفضاء ••

– مدد •• مدد يا بو فراج مدد •

ويتأمل عبد العزيز قبة السيد البدوي ونوع من الخوف
يتمدد في قلبه ••

ويصفق الحاج كريم بكفه على باطن قدمه المجوربه وهو جالس
على المصطبة أمام دكان على خليل وحوله الرجال المسافرين •

– عين المؤمن تشوف قبة السلطان وهيا بينها وبينها بلاد
وبلا •

بمصمصي الحاضرون السماء ، يؤمن محمد كامل .

ـ ايوه ياسيدى ايوه .

ويكون على خبل قد فرغ من ترتيب شأنه وهمس لامرأته
الواقعة خلفه فى الدكان بما يجب عمله أثناء عيابه فيخرج الى
الناس ينهض الحاج كريم وينهض الباقون ويبدأ الموكب مرة
أخرى مسيرته ..

وعلى البعد كانت رشيدة واقفة أمام باب دارها تنتظر ملهوفة
وصول أبيها، تسرع لتقبله فى الطريق وهى تحمل ابنها على صدرها
وجيها فرح وهى تنحنى تقبل بد والدها ويقبل الأب رأسها وبداعب
ابنها والولد يكشر وشرع فى البكاء ويتسم الحاج كريم ..

ـ بتعيط يابن الكلب .. بدل ماتقول اتفضلوا قهوة

وترد رشيدة

ـ عنيانا يابا .. قهوة ؟ ياريتك بس تشرب ميه من زيرنا ..

يستبارك

ويمشى الحاج كريم وتمشى هى خطوات الى جواره ..

ـ البركة فيكى يابنتى بكره من بدرى يارشيدى .. عثمان

اكل الناس يا بنتى ..

ويكون الموكب قد جاوز الدار .. كم تقيض عيونه على رشيدى

بالحنان ، وكم هى له محبة ..

ـ ارجعى انت يابنتى ارجعى

وتسلم وتقف والموكب يبتعد عنها

ـ مع السلامة تروحوا وتيجوا بألف سلامة .. ربنا ما يحرمناش

منكم أبدا .. نور البلد .. الدنيا من غيركم مالهش طعم .

ويمضى الموكب مجاوزا القرية على الطريق الى المحطة ، على
البعد فلاحون يعملون فى الحقول يرفع الحاج كريم يده بالسلام ،
يترك الرجل عمله ويرد السلام بيده وصوته ، يبقى للحظات ينظر
للمسافرين ثم يعود الى فأسه مرة أخرى .. والرجال جالسون على
المصاطب أمام أبواب الدور فى القرية التوام يقرئهم الحاج كريم
السلام فيهتفون بأعلى أصواتهم مجيبين السلام وهم وقوف
ويعزمون على الرجال والموكب يضح والدعاء

المحطة رصيف مرشوق فيه عمود يحمل لافتة عليها اسم القرية
يزدحم الآن بالرجال المسافرين وبضعة نساء ينزوين بجوار السلال
والصرى، الحاج كريم يضم عباءته الى صدره ويستند على عصاه
وينظر الى الأفق البعيد .. العايق يخرج ساعته من جيبه .

— يا جملة لسه بدري عالقطار

يمد الحاج كريم يده فيستند على أحمد بدوى حتى يجلس على
رمل الرصيف

— بارك الله فيمن جلس

ويتحلق الدراويش حوله ، يضع عباءته المطوية على فخذه
المتربعين ويرتكب عليها بمرفقيه ويشرع بصرة ناحية الأمام ، على
البعد تقع قبة السيد البدوى .. وعما ساعات قلائل يكون لقاء
الاخوان من البلاد البعيدة ..

عبد العزيز ينقل بصره بين الوجوه المتحلقة واحدا أثر واحد ،
الفرحة والخوف ، السفر تجربة خطيرة غريبة محوطة بالمخاوف ..
عشرات الحكايات الصغيرة تحكى فى المجالس من الآيبين من الاسفار
على الكيان وعلى المصاطب أمام أبواب الدور تصنع خوف هذه
اللحظة ، غسلوا جلايبهم وحملوا زوايديهم فى السلال وها هم
سيركبون القطار ..

لكن القطار لم يأت بعد

- ألف لك وحده ياعم الحاج

- لف يا عايق

اصابعه ناصعة البياض لم تخشوشن بالعمل فى الحقل ماهرة
مدربة وجهة أكثر وجوه الحاضرين حيوية فيه شيء ما تشبيه بالعالم
الذى هم مقبلون على خوض غماره، شيء وقع جسور الكل يراقب
وجهه وهو يلف السيجارة وكأنما يحس بهذه النظرات فيزداد وجهه
توهجا واستخفافا . .

- حاكم ولاد البندر دول ولاد قحبه

تصدم الكلمة البذيئة احساس الدراويش ويفضى الحاج كريم
كانما لم يسمع لكن ثمة جو من التسليم ، ياما سافر العايق ، بناته
يعملن خادومات فى بيوت أهل البندر ، يسافر لتحصيل أجورهن
وحمل ما سرقته البنات له من هذه البيوت المليئة بالأشياء اللطيفة ،
كثيرة يففل عنها أصحابها أو يستغنون عنها ملابس وملاعق وجوارب
ومناديل هم مسافرون الى مدينة أولاد القحبه : . تشدهم بكل ما فيها
من ألم اليس فيها مقام السلطان . .

حينما يصعدون الى القطار سيكون ثمة دكتان متقابلتان وسوف
يجلس الحاج كريم فيما يلى النافذة، والى جواره أحمد بدوى وفى
مقابلته محمد كامل وعلى خليل ويتناثر الرجال وبضعة النساء فى
المقاعد على جانبى العربيه . . وتحل لحظه دهش وغرابة والقطار
يهدر متحركا ثم يقبل الكمسارى من بعيد جهما صائحا يجتاح
العربة خابطا ظهور المقاعد بمقراضه ويلكز الاكتاف ويثور على
الارتباك التبلد والوجوه الشاحبة بالخوف ويرتدى وجه الحاج
كريم قناعا باسلا . . ويقتم من الغضب ويهب ليدافع عن رجاله

فما دامت الورقة فى يد الرجل فليس لأحد عنده شىء وما القطار
الا مركب موطأ لمن دفع أجرة الركوب ..

حينما كان عبد العزيز طفلا كان يبقى وأجف القلب فى انتظار
اللحظة التى يلتحم فيها أبوه مع الكسرى ويفرح فرحا عارما حينما
تنكسر حدة ذلك الأفندى على عناد أبيه الصلب وينصت لأبيه
مشدوها وهو يحكى عن وقائع كهذه مع ناس آخرين رفيعى القدر
.. فما كل الاسفار للسلطان وانما قد يدعى الأب للمقابلة مأمور
المركز .. ويحكى جهما يتفزز فى مكانه من الحق ..

— قلت له على مهلك يامأمور المركز .. على مهلك توصل ..
احنا ضعاف ماالناس فى نفسنا حاجه ..

ويكاد قلب عبد العزيز أن يتوقف ويكاد المأمور أن يقفز من
مكانه وينقض على الحاج كريم ليعصف به لولا أن يدخل طبيب
الصحة ودون أن يعلم بما يجرى يسلم على الحاج كريم بحرارة ..
— سعادة البيه ما يعرفش الحاج كريم ؟ دا راجل عظيم
يكتشف الطبيب انهما كانا يتعاركان يضحك .

— انتم لازم اختلفتم .. أنا برضه أول ماعرفت الحاج كريم
اتخاقت معاه .. وبعد كده بقينا أصحاب .. دا رجل عظيم
يا سعادة البيه فى وباء الكوليرا كان بيثبيل الناس على كتفه ..
ويجلسون ثلاثتهم ويتحدثون ويتوادون ويرقد قلب عبد العزيز
فى صدره .

— المأمور صالحنى وجبر بخاطرى .. ووعد يجى يشرب قهوة
فى الخدمة ..

ويستخفهم الفرخ الفامر احمد بدوى ..
— نبقى نقول للسبت آم طلعت تخلصى الكنبتين عشان لو حد جه
ما يقعدش عالحصيره

ويرد الحاج كريم

- اللي عاجبه حصيرتنا يجينا .. واللى مش عاجبه .. يادار
ما داخلك شر .

ها هم فرحون برجلهم المسافر وهم مسافرون معه بارح
الكمسارى العربى ، زالت مشاعر التوتر واستراحت القلوب وبدأ
الناس يتبادلون الحديث فى المقاعد على الجانبين والقطار يمضى
صخباً بين الحقول ..

وفى كل محطة يقف القطار ويصعد ناس مسافرون ودراويش
حول رجلهم ، سلال الزاد والوجوه المليئة بالاهتمام والدهش وقليل
من الخوف ، أحمد بدوى يتأمل الوجوه والطواقى وأطواق الجلابيب ،
لكل ناس عاده وطريقه فى الزى والكلام .. ويتذكر الحاج كريم
صحاب له كانوا هنا أو هناك يحكى عن كرمهم وتفانيهم فى حب
أولياء الله ، ويحكى محمد كامل عن شيوخ لهم قباب فى هذه القرية
وتلك والقطار يمضى الى قطب الأقطاب .

أهل بعض القرى يبكرون بالزرع وتلك حكمة منهم ، ما أقبح
التأخر وفتور الهمة وبعض أهل القرى يخططون من الشمال الى
الجنوب ويضحك فلاح من قرية بعيدة ..

- أمال ياعم .. النباته مابتقياس فى الضل ، أول الشمس
ما تفيج من الشرق .. تشوفها .

والنساء مذهولات يسمعن طرائق نساء القرى الأخرى فى
الطيبخ والجلاب وورقى الأطفال ومن فى قراهن من العارفين بالكتب
والسعر وصنوف العمل ..

هكذا يكون السفر الى السلطان شوق ولقاء ، خوف ودهشه
واكتشاف ..

تجرك الدراع الفولاذى الهائل واربع الرصيف تحت اقدام عبد العزيز وتفجرت النار فى احشاء الونش الأسود وبدأ القطار يتحرك وجوههم فى الشبايك تضحك له والقطار يبتعد يأخذ شيئا معه كان يعمر القلب ، بدأ يخليه فى الفراغ والوحشة وقف مستسلما ينظر الى القطار وهو يبتعد حتى صار شيئا صغيرا بعيدا .

تحدث عبد العزيز راجعا الى القرية ، تجنب الطريق الذى مشى فيه موكب أبيه منذ ساعه مشى فى درب صغير يتلوى بين الحقول وحيدا ، معهم كان جزءا من جسد كبير يمضى والأقدام زحام يصك الأرض والمسيقان تخب فى الجلايب ، أوحشته الطمانينة التى يحسها معهم لازال فى قلبه صوت القطار وهو يتضاعف موقلا فى السكون الأرض البنية ممتدة الى الأفق جرداء الا من اعواد شاحبه هزيله جلس على شاطئ ترعة الماء ساكن فى الشمس بنى فى الظل ، شجرة شعر البنت تغسل غداثها فى ماء الترعة .

ازدحم خياله بصور وجوههم ، زيتونية الجلد هزيله شاحبه فى حياتهم افراح قليله اسفار قليله ، حينئذ تزد هي هذه الوجوه بالسرور . قبة السلطان على البعد فى مركز العالم والحاج كريم سمين ملئ الوجه بالصفاء والعيون بالتماعة الشوق وهم يبتسمون فى المجالس عن اسنان صفراء وقلب عبد العزيز مريض توجهه علة غير معروفه .

فدفعته كربته الغريبة مرة الى دارها ، دفع الباب ، قلبه ملئ بالكلام حتى ليفيض من عيونه ، كانت جالسه تتناول الماء من وعاء امامها وتغسل وجهها نظرت اليه بعيون صافيه بالود واسعه بالسؤال لكنه لم يجد ما يقوله . كر راجعا وأغلق الباب وراءه .

تناول من الأرض عودا وبدأ يمضغه حتى يتخلص من انفعاله ، طعم العود المر ينداح فى فمه ويزحف على كيانه ، سحت الدموع

على وجهه ، أحس ملوحنها في فمه ، فام متأقلا كرجل عمره ألف
عام .

- لازم أسافر

لكن الى أين . . ؛ شريط السكة الحديد يسير مستقيما عاصيا
كالسكين وبجواره خط أعمده التليفون . . ماشيان الى الأفق حتى
يغيبا ، ربما في آخر العالم ، الى أين يسافر لا يدري لكن لا بد من
السفر فلا شيء يبيل هذه الحرقه الغريبه الا سفرة بعيدة . .

تذكر الرجل المسربل بالحديد ووجهه الرائق الطيب ، وسليمان
العجوز والرجل أبو جريده المسافرين في الزمان ما يكاد الرجل
يجلس حتى تشتعل عيونه بالشوق وينهض للمسير . .

وتذكر الرجل الصالح سيد من محلة منوف . . ربما يعتصر
الشوق قلبه فيحزم لفة الحصار ويحملها على خاصرته حتى اذا ما
لقى بها بين يدي الحاج كريم استراحت بلابله وآب رضى الفؤاد .

- أنا أحبهم . . أحبهم

وتدفقت دموعه حاره غزيره .

الخدمة

فى المحلة الكبيرة ترعة تشق قلب المدينة ، تذكرها والناس على شاطئها كأفواج الذباب يغسلون الثياب وأوعية الطبخ .. ضجيج النسوة وعراكن واصطكاك حلل النحاس ، وتذكر حديث اخته بلهجتها المحلاوية والنساء حولها ، والأخوات مبهورات بها.. صارت طرية عذبة السمرة كنسوة البنادر ، تذكرها كيف تأخذ الثياب والأوعية الى هذه الترعة لتغسلهم ، فالبحر لا ينجس ابدا ولو القيت فيه الجيف ، أما ماء الأنابيب فمن يعرف مأثاه ؟ ! هؤلاء الناس وترعتهم راقده كقرة قدره طيعة الضرع تخلى بين اخلافها وبين الحالبيين .

ما المحلة الا قرية كبيرة بترابها وذبابها وترعتها ، لكن هذا شارع البحر فى طنطا، متنزهاته الهندسة واشجاره المقصوفة الفروع ، وواجهات البيوت فى العمائر الكبيرة ، كان ثمة ترعة هنا ، دفنت وشيد فوقها ذلك النظام الرائع من اشجار مقصوفة وعمائر عاليه يحس هسيس الاصوات بعيدا تحت اقدامه ، النسوة المتعاركات على شاطئ ترعة طنطا ، ضحك فى نفسه ، بعيدات غائرات تحت الاسفلت الذباب والبعوض والبراغيث ، مقبرة الليل والنهار فى القرية ، ما ابهى النظافه والنظام ، طنين هذه الاصوات بعيد تحت اقدامه غائر مدفون تحت الاسفلت ..

كذلك ذكرى وجه ذلك الصبى ، يتعذب بالفناء ، ضحك فى نفسه مرة أخرى ، الولد كان ناحلا كالطيف ، لكنه كان ممتلئا بحياة تنفجر فى الفناء الحزين .

عملوك سكه حديد

يا عينى يا بحر طنطا

كان يتسول فى قطار يدور على قري الاقليم يجمع المسافرين
الى طنطا وخلفه اخته تسند الغناء بدفها الصغير .. ذكرى بعيدة
كطائر شاهق فى السماء لا يبدو منه سوى نقطة سمراء ..

البنات فى الشرف ، الشعور المقصودة والضحكات الرائقة
والحدائق الصغيرة المسورة امام البيوت ، واطفال فى الأراجيح
ونسمة نظيفة تملأ صدره كقلع مرح يطير على النيل ، ووقع حوافر
الحصان على الأسفلت اللامع ، وعجلات الحنطور تكرر كريرا منتظما
.. وتصور ...! فى الشجر ورد أحمر ، يراه للمرة الألف لكنه
يحب لونه للمرة الألف ، أحمر فاقع الحمرة .

سار عبد العزيز وحيدا لكنه كلما أوغل سيرا نازلا نحو قلب
المدينة بهت ذلك اللون الناصع النظيف وبدأت تشوبه شوائب
رمادية وبدأت تنشط حركة المارة وتسرع الحناطير وتمضى السيارات
صخابه تنفث الدخان والبخار من انوفها واذنابها وبدأت واجهات
البيوت تغبر وتظهر عليها اللافتات معلنه عن أطباء ومحامين ثم
تظهر الدكاكين على الجانبين وعلى ابوابها اللافتة الهائلة معلنه عن
البقاله والسجائر وحتى ورش اصلاح السيارات وبدأت المنتزهات
فى وسط الشارع تفقد اعتزازها بنفسها وتهدم الأسوار اللطيفة
المحيطة بها ، وتستنزفها اقدام المارة وتهرىء اخضرارها .. وبدأت
الثياب تبدو أقل ازدهارا بل تبدو متسخة أحيانا والوجوه تشحب
مرهقة وعنيدة .. الضحك المتدفق يعبر عن جلادة صخرية لا عن
سرور عذب رقيق ..

ثم بدأ يرى وجوها ريفيه ، بدأت الطواقى والجلاليب ترى فى
الشارع منتثره فى غير ما نظام ، جماعات متباعدة يمشون مذهولين
مفتوحى العيون يتلفتون فى حذر ، عرف عبد العزيز فى عيونهم

ما يحسه داخله من شوق للنظافة والبهاء والجسامه ، وعيهم
يترب ما حولهم من عجب المشاهد وعصى الخيزران .. ؟ لماذا ..
ربما هى العاده وربما الخوف ؛ الخوف الذى يصحب الريفى از
يخوض المدينة فالعصا ان تحكم عليها قبضة اليد يتروى الداخل
ببعض الطمأنينه ..

ينتشرون بين اهل طنطا كالشوائب فى بيدر الغلال جماعات
يتخطف اولاد البندر اطرافها سخرية ، جذبا للثياب وخطفا
للطواقى ..

— زوارك ياسيد .. كل نطع واخوه ..

• وهم كالحدادى المدعوره يخمثون وينفرون دفاعا عن انفسهم
لكن لا يكفون عن السير ولا عن التلفت ووامعان النظرات وشرب
المشاهد العجيبه .

السبارات تمخر الشارع غرباء صاخبة مهدمة نافثة الدخان
والبخار . والحناطير تكرر وراء خجول مبرطعه تلهب ظهورها
السياط . ودراجات تمرق يميل بها بها اصحابها يمينا وشمالا .
مجموعات الريفيين تنفك وتتبدد من هذه الآلات الطائرة على اليمين
وعلى الشمال . ولكنها سرعان ما تأتلف مرة أخرى فى حلقات صلبة
تنظر للعالم الغريب بعين واحدة مبهورة ، واذعان متوقدة تحول
الرؤى الى حكايات ؛ وعلى المصاطب والكيما بدور الكلام فى الليالى
ضاحكه تلك الحكايات لكن فى قيعان الكلمات آناز القهر .. وفيها
السخرية تغلب البطن من الضحك فهؤلاء الناس لهم قدره هائله
على السخرية وهذه العمون الفاحصة لاتعدم العيوب والمضحكات
فيما ترى .

ميدان البلديه على واجهة السينما اللافتات مكتوبه بحروف
فى حجم الاطفال وصور الممثلين فى أحجام مهوله . عبر الميدان

الجموع مديرة ظهرها للشارع والأبصار معلقة بالمناظر المرسومة على الحائط وبين لحظة وأخرى يتجاسر واحد ويندفع نحو شباك التذاكر وهناك يتكدس زحام الراغبين فى دخول السينما ..

شارع الخان زحام من الناس والبضائع وضجيج مكبرات الصوت ، الباعة يعملون بأيديهم وأفواههم ، كتلة من الأعصاب النهمة للحركة والصراخ ، تسال بين الناس يميل بكتفه يميناً وشمالاً متحاشياً الاصطدام الباعة على الجانبين يناوشون أطراف الحشد ويستميلون حواشيه الى الشراء لكن الكتلة المتدفقة بين الشاطئين تنساب كالنهر .

سوق النحاسين ، الدكاكين الفسيحة الأبهاء حيث تباع جهايزات العرائس الدواليب ذات المرايا الكبيرة الصناديق المكسوة بالصفائح الملون .. صفوف الأواني النحاسية البراقة المجلوة الحشايا والألحفة فى ألوان من الحرير تخطف الأبواب .. وبائع جهاز العرائس واقف فى وسط الدكان يبتسم فى فرح .. بائع الأفراح دائماً رائق النظرة صافى الملامح .. يبارك ويخفض الأسعار بسخاء .. ولا يبقى له من ربح فى النهاية سوى معرفة الناس الطيبين ..

أين الحاج كريم ، كيف تتزوج عروس فى الدنيا دون أن يكون حاضراً ، البائع واقف بين يديه وأهل العريس وأهل العروس متحلقين حوله .. والتاجر يقسم انه خاسر والحاج كريم يضحك .

— الى عند الله ما يروحش .. وبلاش القهوة ياسيدى .

كيف ..؟ تأتى اكواب الشاى النحيلة الخصور ، ذات المقابض والحواف الذهبية مرصومة كالعرائس على صينية نحاسية رقيقة لامعة .. والبسات من أخوات العريس والعروس يسترن بالشيلان

الوجه .فما يبقين الا عيونا تحديق فيما حولهن .. ماذا تجدن فى
بنات المدينة يا خبيثات .. ؟ يطرفن فى خوف ويشهقن متغامزات ..

ينحدر الشارع متقارب الجوانب رطب بما يرشه أصحاب
المتاجر أمام ابواب دكاكينهم من ماء مبارك ، البيوت القديمة المدخنة
المشربيات من الخشب المشيك ، أو الشرف الحديثة ، النسوة
السمينات العاريات السواعد ، الرجال فى الجلابيب البيضاء
الخفيفة وجورنال الاهرام وكوب الشاي الثقيل انحرف الى شارع
سيدى مرزوق بدأت المقاهى تنشيط بزبائن الريف ، والأرائك
تصف على الرصيف فى انتظار أفواجهم القادمة .. وعلى الارصفة
بدأت تثبت حلقات صغيرة فى مركز كل واحدة امرأة سميئة ذات
أسنان ذهبية امامها الوابور وعدة الشاي ودلاء ملء بالجوز ..
ضحكات قليلة ورشقات شاي وبعض أنفاس حشيش .. اول
الفيث ..

على الجوانب تصعد السلالم الحجرية الى باحات مربعة تقوم
حولها البيوت وهذا هو البيت الذى ستكون فيه الخدمة ..
الوأجهات شبابيك مليئة بنساء طنطاويات ، المرأة الطنطاوية
لا تبارح الشباك أبدا فى القرية تنحدر من الشارع الى قعر الدار
عن طريق الباب وفى قيعان الدور تجد نساء كالبقرة ، أما هنا
فهن يتصايحن على بعضهن ويضحكن ضحكات طويلة مغناجة ..
طواق الثياب منحسرة عن أنصاف الأثداء الثقيلة فى الثياب
الرقاق .. الشمعور لامعة تحت الترابيع المنحسرة المصقولة
بالتترت ..

— تخان يا ختى من اكل الفول أبوزيت ..

هذا ما تقوله زشيدة — يضحك عبد العزيز فى نفسه —
وتجاوبها الحاجة شوق :

— وماهماش حاملين للدنيا هم ..

وتتدخل احدى اخوات رشيدة :

— تيجى وحده منهم تخبز اردب ولا تصلح الزريسه تحت
البهايم ، اما نشوفها هتبقى تخن ايه ..
وتكايدها رشيدة :

— دا من نارك بتقولى كده .. عشان ناشغه على عودك .

عبد العزيز يضحك وهو يتأمل النساء الثقيل فى الشبايك .
ويتذكر الحاج كريم صاعدا هذا السلم الحجرى ويثدا يستند
على عصاه ويضم عباةته الى صدره ، ويجول ببصره بين الشبايك .
— نهاركو سعيد يا ستات ..

لا يقول لهن (عواف) هذه يقولها لنسوان البلد ، اما هنا فانه
يكتسب لسانا جديدا رقيقا زلقا .. وتجاوبت الشبايك
بالضحكات تصايحن ببعضهن ..

— يوه .. ياختى دا بينهم جماعه موالديه .. هىء ..
هىء .. شى الله ياسيد ..

وهو واقف يبتسم فى طمأنينة حتى تسفر ضجة التصايح
عن جواب ..

— احنا موالديه ياستات .. دراويش السلطان .. عاوزنكم
تساعونا مدة المولد ..

فهنا فى هذا الشارع تستأجر البيوت للموالديه ، العايق
يتقلق فى مكانه بعوده الدقيق ينظر للنسوان فى نهم دون ان يتخلى
عن مقبض سلاله ..

لقد داروا فى الشوارع وقرعوا كثيرا من الببان .. وأظلت
وجوه رياته ..

— احنا موالديه ياست ..

— أهلا وسهلا ياخويا والنبي كان على عيني .. اتفضلوا
استريحوا شويه ..

الرجال فى شغل النهار ، تفتح الحجرات المعتممة الرطبة
المفروشة بالكنبات العربية الوثيرة ، ويجلس الحاج كريم والى
جواره العايق ، وتقدم القهوة ويدور الكلام ، الحاج كريم صناعته
الحديث الطيب ، والمرأة تستريح على وسادة الصوت الودود ، لم
تعد متوترة تدارى الانفراجة بين ثدييها الثقيلين الناصعين ولا تضم
ساعديها وتدارى بياضهما الرهيف بكفيها ، أصبحت طلقة تسمع
وترد ، وينتظم عقد الكلام ، الزمان والناس ، القرى والمدائن ،
ما المدينة الا شجرة جذورها فى الريف ، ومن يدري ربما قرابة
أو نسب المؤمنون اخوة وكلنا لآدم ..

— والنبي كان على عيني .. دانتوا باين عليكم ناس طيبين ..
صحيح لم يستأجروا البيت لكن .. جبل الوداد قد اتصل وخلال
مدة المولد سيأتى العايق كل حين عليه جلساب خفيف وطاقيه
وشبشب يطرق الباب ..

— ياست أم فلان ..

وتبرز فى ثياب البيت المنحسرة عن كثير ، ويضحك العايق
ويكركع ويحمر وجهه وتبدو أسنان أهلكتها الكيوف ..

— عاوزين الوابور بتاعكم ياستى ينوبكم ثواب ..

— من عيني .. سلم عالبح كثير . وقوله ست أم فلان بتقولك
افتكرها فى القراقيش والدقه ..

— حاشين لك منابك .. هجيبه بنفسى ..
ويوم استجار هذا البيت مال الحاج كريم على العايق ..
وقال له :

— البيت ده يبقى حلو قوى يا عايق .. الوسعه اللى قدامه
دى تساع الذكر فى الليلة الكبيرة ..

العايق يتقلق فى مكانه والحاج كريم ينتظر أن يسفر تصابح
النسوان عن جواب ..

— ياست أم طلعت .. ياست أم طلعت .. عندها شقتها
ياخويا دور أرضى .. وكانت ناويه تأجرها للموالديه ..

وخزجت أم طلعت للحاج كريم عيونها سوداء واسعة غريبة .
— أهلا وسهلا مدد ياسيد .. اتفضل يا حج .. والنبي
انت باين عليك طيب .. عليك القيمه ..

طلقة متدفقة غريبة العيون (عليه القيمه) حقا ، والا ماذا
يسمى ذلك الذى يتيه فى جوانب جسده المكين وعيونه الرائقة
الفرحانة وثيابه المكوية وعمامته الناصعة المشرعة على جبينه
الأسمر مشى بتحسس عصاه طريقه على بلاط الصالة فى حذر
مطمئن ..

— يا ستار ..

والعايق يضحك من وراءه ..

— ربنا يجعل لنا نصيب عندك ياست ..

وصورة الزوج — هو الآن فى الشغل — معلقة على الحائط فى
الصالة ، يدخلون الى حجرة يزحم نصفها سرير نظيف ناصع الملاءة
وسائده منقوشه ترى العين طراوتوها السخيه .. الوسائد وصدر
أم طلعت الثرى ونعومة البساطة والكنبة الوثيرة والعتمة والرطوبة

العذبة .. الغرفة مفعمة بالليمونة .. والحر فى الشارع لافح
تأتى ام طلعت حامله صينية الشاى الصفراء اللامعه وعليها
الاكواب الخضراء من الزجاج الرخيص ، والابريق .. ابريق الشاى
وضعت الصينية على نمرقة بينها وبين الحاج كريم ، على وجهها
غشاء رقيقا متوردا ، كيانا مفعما بالشقاوة ، وتشرق الابتسامة
فتضىء الخدود وقمم الوسائد والفرجة بين الشدين الناصعين
وعيون الحاج كريم ..

- ولك شيخ برضه
- طبعا

- هىء .. هىء .. شيخكو له كرامات
والعايق يسرب الكلام

- هوا فيه يا ست شيخ من غير كرامه

لكن الحاج كريم وقور مكين يفيم وجهه بسحابة عابرة من عبثها
بالشيخ وتخرج من عبوسه المفاجيء وترتبك وتشيح بوجهها
وتنقل الكوب الملىء بالشاى الساخن من يد الى يد ، وتكه صغيره
ينشرخ الكوب ويسيل الشاى فى يدها وعلى حجرها وتهب واقفه
مدعورة ويصيح العايق ..
- الله حى -

ويقف فى وسط الحجره يتقافز ملتاعا والحاج كريم يهمهم فى
رجاء

- بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الارض ولا فى
السماء وهو السميع العليم ..
وهى تولول فى صوت باك .

- يادى الحوسه . شيخكو خلقه ضيق قوى .. ايدى اتحرقت
خالص ..

ونعرض فى تردد يدها على الحاج كريم يتناولها فى كفه
الاسمر البسمين

— سليمه انشاء الله .. ما فيش حاجه .. الشيخ بس حب
بقرصك فى ودنك .

واغمض عينيه وبدأ يرتل .

— (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا ..

ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا .. »
تحدثت رموشها على وسائد خدودها الوردية ، ونظر العايق اليها
وهو يلحق دون وعى اطراف ورقة البفرة يلفها حول حبة دخان
الفرط .. وتسلس الولد عبد العزيز الى حضن ام طلعت وقبلها فى
خدها .. احبها كما لم يحب امه ، وضمته هى الى صدرها ورأسها
منكسه .. وسرسب العايق كلاما كثيرا ..

— الطريق كله خير .. كلنا على باب الله .. مش باقى غير
الطيب .. لولا الطريق علينا .. بوس خالتك باوله .. وماله .. والله
الحاج كريم احسن راجل ، شوفى كرم ربنا .. قاللى يا عايق انه
رايك فى البيت ده قلت له خش يا شيخ ربنا يفتحها فى وشك ..
كلنا دراويش السلطان ..

صوت العايق خلفيه متهدجه للصمت المقعم ، ضم الحاج كريم
عباءته الى صدره وقام متمهلا مستنداً على عصا ثم خرج يدب
وثيدا على بلاط الصالة نحو باب الخروج .
النسوان يتضحكون فى الشبابيك .

— هىء .. هىء .. هىء .. اهم يبقوا يفقروا قدامنا .. هىء ..
هىء .. وناكل عيش ودقة من بتاع الموالديه ..

يسمين الذكر (تفقيرا) يالهن عبد العزيز يتبسم جائلا بعينه
بين الشبابك ياله من شارع سيارع سيدى مرزوق .. من يومها

لم يستأجر الحاج كريم غير هذا البيت .. أم طلعت امرأة طيبة
بل ثمة قرابه بعيدة ، الارحام ، بالقدرتها على وصل أحبال المودة
بين الناس .. سيكون لهم فى المدينة بيت يملكونه يملأونه خبزاً
وجبنة ، وقرقيشا .. سوف ينصب الزير فى الركن ، صنابير .. ؟
من له صبر على سيل الماء من الصنابير .. انما الماء ان يغرف غرفاً
ويعب عباً ، سيمتلئ البيت بالرجال والنساء والأطفال من كل
القرى .. يدخلون فيه ويخرجون منه .. الى أين .. ؟ الى البيت
من أين .. ؟ من البيت ، الطنطاويون جيران لهم لا خوف بل سلام
ومساء خير وصباح نور .. وكعوب الرجال لامعه فى الشباشب
الخفيفه فلا تراب فى الشارع ولا وحل فى الحقل والعائق رسول
الخدمة الى كل النساء «هات سكينه .. هات بصله» .. ابيض
ناصع زلق هذا العائق ، من لهذه المراسيل غيره .. وسوف تكون
النساء قرايرات هامسات ، والرجال يتسسمون ويقولون نعم
بحنان .. وحتى سوف يغسلون الاطباق بأنفسهم أحياناً ..

ربما كان هذا من عادات الطفولة التى بقيت معه أن يمشى
شارداً يقرأ اللافعات ويتفرج ويترك للشوارع أن تقوده دون أن
يدري بها .. هكذا كان يمشى وهو صغير يسلم يده لآبيه يتولى
قيادته سارحاً يتفرج، انتهى شارع سيد مرزوق الى شارع السكة
الجديدة الى ميدان المحطة .. انقبض قلبه ، ادرك كل شئ
فى لحظه ، نصحوا على الابواب من حيث يتدفق الريفيون القادمون
من البلاد آلات العساكر الرهيبة على ظهور الخيل وعلى الاقدام
فى ايديهم العصي وفى وجوههم الشراسة .. (كل هذا من أجل أن
يتأكدوا من أن كل واحد يحمل تذكره .. يا الهى .. من يصدق
هذا .. ؟) .

انقبض قلب عبد العزيز واختنق حلقه ، تقدم ثابتاً نحو المحطة
السور العالى المحيط بالبأحة أمام المحطة أغلقت كل ابوابه ماعداً

ثلاثة أحكمت عليها الرقابة ، على كل باب بضعة موظفين وشلة من العساكر ، آلة بشرية لبث الرعب فى الأرتال المنسابة ينقضون على الناس بلا رحمة كالحدادى ينهالون بالعصى كينفما اتفق وتخلق كل هجمة حلقة من عيون مدعورة وصرخات عالية ويفلتون الى الناحية الأخرى مشيتون مشعتون طائرى الطوافى لتتجمع الزرافات مرة أخرى بعد الباب بقليل ، تلم نفسها وتلتقط انفاسها ، يضحكون للخلاص ثم ينطلقون الى الشوارع مفتوحين لتلقى المدينة بكاملها ..

— مدد يا سيد مدد .. جينا يا أبو فراج

صيحات فرحه وزغاريد نساء وحتى بكاء الاطفال يتحول الى شيء دهش مبهور .

تقدم عبد العزيز وثيدا كل انتباهه فى عيونه واذنيه يده مشرعة باشتراك السكة الحديد دفعه الموظف الى الداخل والتفت لغيره تلقى الدفعة حاقدا صموتا ومضى مالئا قلبه كسرياء وازدراء نحو المحطة .. وهناك أبصرهم فى الفناء الحاج كريم يتقدمهم ضاماً عباءته على صدره ومستنداً على عصاه .. وتلك المصفاة الرهيبة عند باب السور ..

مضى نحوهم ، العايق فى الخلفية يبهذه السبب ، والعراقى الأطرش ، ما جدوى اللحية والعمامة الحمراء الآن ينظر حواليه بسرعة كعصفور مطارد .. أحمد بدوى ومحمد كامل وولى خليل والشركسى ، النجار وغيرهم كثير والنساء فى الخلفية ينظرون اليه بلهفة .. تقدم الى الحاج كريم وقبل يده فى حسان غريب كالخوب الذى يكاد يقتله .. والرجل يقبل ابنه فى جبينه ، رأى شيئاً منكسراً فى عيون أبيه قفز ذابحاً احساسه تتلقفه صدور الرجال ، يضمونه بقوة رجل بعد رجل وهو غارق فى ود لم يجرب

فى حياته أعمق منه ، هؤلاء الناس كان معهم بالأمس فى ردهة
الدوار تحت الفانوس .

— ازيك يا عبده ..

احمد بدوى متوهج الوجه بالسرور قصير مكين الجسد دفاق
العاطفة .. يتسم على خليل فى تردد ، شاحب الوجه يحمل علامة
صلاة كبيرة فى وجهه ..

— أهلا وسهلا سى عبده

يحبس بهجته خلف سكينه وجهه الليمه ..

— الله يفتح عليك يابنى

محمد كامل عميق الصوت عميق الملامح عميق العيون ابتسامته
حزينه ، حزنها جزء من تكوينها تشرق منه وتفرب فيه .. والعراقي
يتقافز كقرود فى يده سلة .. والعايق يسرب الكلام ..

— دا خلق ايه .. امم .. مدد يا سلطان آى نعم .. بس حتى
بدل القطر ما يدور يتطلع فى المحطات ، يجرى جرى يجيب من
الخلق دى كمان دور ولا اثنين .. انما تقول لمن ؟!

وعيناه تطرفان ناحية البوابة ..

هؤلاء الرجال فى ثيابهم الرخيصة وطواقيهم الصوفية الحمراء
ووجوههم النحيلة المدبوجة بالشمس المبقعة بسوء التعذية هؤلاء
الناس المستطارون خوفا هى اباء عبد العزيز قلبه وعيونه يتحلقون
حوله وينظرون له .. لكنه يتمنى لو كانوا أكثر نظافه أكثر جساره
ليسو هكذا فقراء جاهلين خائفين ، فى المدرسه يباهى بانه فلاح
أمام أبناء البندر يباهى بذلك بقوة ووضوح لكن شيئا فى داخله
ناقم ساخط ... لو كانوا غير ذلك ..

وكانما يحسون بما فى داخله من صراع نظروا له متوجسين
وتكلم احمد بدوى .

— لوحد من زملائك يا سى عبد شافك مع ناس فلاحين زى
حالاتنا .. من باب الاستحراس برضه خليك بعيد عنا .. وآدى
احنا شافينك وانت شايفنا ..

عروا داخله بعيونهم الذكيه اكتسته لحظة خجل حاده كلدعة
برد ..

— ايه الكلام اللى بتقوله ده .. انا مايمهنيش حاجة .

ثم بسرعة افكر فيما قاله ، فى رده اعتراف بحقيقة احساسه
نحوهم ، اراد أن يهتف قائلا « انتوا احسن ناس فى الدنيا » لكنه
لم يفعل ربما شعر مقدما فيما سيكون فى قوله من خور وماسيكون
فى صوته من زيف لكن رده — على اى حال — بعث فى وجوههم
بعض السرور ، وعينا الحاج كريم تتأملان ابنه فى سكينة عاتبة ..
كلما التقت العيون تبعد بينهما المسافة . انه يحب اباه يحبهم جميعا
لكن .. ماذا يفعل ، لو كان يستطيع لو طالهم هذه المدينة لأبدلهم
ثيابا غير ثيابهم ، هم حوله ينظرون له كل فلاح يرسل ابنه الى
المدرسة ينظر له هذه النظرة المفعمة بالامل والخوف لكنها
المدينة الكبيرة عبد العزيز يحب هذه المدينة ويحبهم أيضا لكنهم
ينظرون له هكذا ..

— ربنا يصلح حالك يا سى عبد .. وآدى احنا نبقى نمشى
نهز اكمامنا على حسك ..

لكنه فى داخله لا يعتقد انه سيكون يوما شيئا خطيرا فى هذه
المدينة انه يحب ضجيجها ونظافتها وفتياتها يحب السينما والكتب
يفرق فيها ازمتة يخضع لها ويسلمها قلبه بكل خلوص لم يرغب

ابدا فى السيطرة عليها كل ما يريده أن تنفذ الى مسام تكوينه
وتستأصل ذلك الألم الممض الكامن فيها كالسرطان ..

انه يعرف كم هى قاسيه هذه المدينة يعرف هذا بخاصة حينما
يتأمل هؤلاء العساكر هذه الوجوه الريفية التى تصب غضبها على
الارتال من الريفين - يعرف قسوة المدينة - لكنه يفض الطرف عنها
ويحاول أن ينساها لكن خاطرا يهاجمه بقسوة احيانا ترى هل
تشده هذه المدينة يوما حتى تحوله الى عسكرى يحمل وجها ريفيا
وخيزرانه وسباب بلغه البندر .. يارب بكل شيء .. ياله من خاطر
مفزع ..

أشرع الحاج كريم عصاه الى الأمام ، أشرع وجها حزينا وسار
عيناه البنية تطفو على تلك الآلة العصبية الهائجة المنصوبة عند
البوابة يحاول أن يتحسسها نظراته دون أن يراها كالمجوسى المقبل
على اقتحام النار .. توقع للإذاء وصبر على ما سيقع منه لابد
من المكاره فى الطريق .. آه يا أبى ..

الحاج كريم فى المقدمة والرجال ورائه عيسونهم تطرف فى
خوف لكنهم يمشون خطوهم ثابت قدما وصوت محمد كامل
العميق ..

- يارب ياستار .. الهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك
ولا يرحمنا يارب العالمين ..

اختطف الرجل تذكرة الحاج كريم ودفعه فى كتفه .. ربما
كان الحاج كريم قد سار خطوة للإمام فلم تصببه الدفعة ..
او ربما هى كرامة الاولياء .. المهم أن خطوة الاكيد لم يضطرب
تضامت الجماعه من خلفه وطاشت النظرات فى كل اتجاه وأصغرت
الوجوه وارتفعت غابة صفيرة من الايدى حاملة التذاكر ومن
الايدى تختطفها ومن الايدى حاملة العصى تريد أن تهوى بها

اضطربت الاجساد وتزاحمت مذعورة لا تدرى أين تهرب ، عبد
العزيز تجمله الموجه العشوائيه حتى خلصوا الى الناحية الأخرى
من السور حبات العرق تلمع على الجباه وتشرق الابتسامات
العراقى استخفه سرور مجنون .. كان الحاج كريم قد استدار
ووقف تجاههم ينتظرهم عيناه عليهم خارجين .. تبرقان برقاً
خافتا كنجمه أخيره ..

الغضب يعصف بعبد العزيز والعرشه تهزه .. ادار وجهه
بعيدا جسده يفقد تناغمه مع كتلة الرجال ويتخذ لحركته مسارا
نافرا مترترا الرجال ينظرون اليه وهم يسوون جلاليتهم ويعدلون
طواقيتهم حيارى وخزيانين قليلا ..

— معلىش ياسى عبد العزيز .. احنا يا فلاحين كده .. مخلوقين
للبهذه ..

والعايق يسرسب الكلام السبب يملخ ذراعه من كنفه .

— لو كنا بنخدم غازيه كآنت حفضت لنا كرامتنا شويه ..
مدد يا سيد .. آدى احنا جايين لك يا أقرع ..

والناس فى الميدان كانهم سرب كثيف من الحمام واقع على
حقل والعرباب الهادره تشق سبلها بينهم تتكون الدوامات
والتجمعات والتشققات بفعل الدعر والصوت الهادر ..

— يا ستار سترك .. ولاد كلب بتوع كبابه .. سواقين ولاد
قحبه يخرمو فى لحم طرى .. ما فيش حكمومه .. ياجده النبى .

عبد العزيز يود لو خنق هذا المافون المذعور كل يوم مسافر
الى مكان ما من انحاء الدنيا فى زيارة بنت من بناته اللائى يخدمن
فى بيوت البنادر وكل يوم يعود بحكايات وحكايات عن اسفاره ،
وها هو طائر اللب تتخاطفه ضجة العربات المارقة ..

جسد عبد العزيز متصلب من سورة غضبه يتخذ مسارا غير
متساوق مع جماعة الرجال تباعد عنهم لكنهم ينظرون اليه بعيون
حذره الحاج كريم يسير بخطوه الوئيد كأنه سائر الى شرفة الدوار
لكن شيئا فى تربع اكتافه .. انكسار .. ميل للانحناء .. لماذا
تحالفت المخاوف والفضب والمشاعر الغريبة على عبد العزيز فى
هذا اليوم .. ؟

اول شارع السكة الجديدة المنازل القديمة الغبراء على الجانبين
الظلل الممدودة على الدكاكين من الواجهة الى الواجهة ، سقفة
كاملة من الخيش ، سرداب معتم قديم يدمت نظرات العيون فما
تستطلع المشهد البدوى الا بعد أن تهذا بلابلها بالرواء الطيب ..
الآن المقام .. عبد العزيز يعرف الريث فى خطوة ابيه عندما تتجلى
قبة السلطان ، يحزره قبل أن يقع ، وقلوب الرجال موصولة بقلب
الحاج كريم .. ذهلوا عن كل شيء وتعلقت الابصار بمشهد
البدوى .

اما عبد العزيز فهو وحيد بينهم ذرات الحديد جميعا
افجذبت فى نظام نحو قطب المغناطيس اما هو فمن معدن غريب
غير متجانس ..

- السلام عليكم يا سيدى احمد يا بدوى .. السلام عليك
يا سلطان .

يهمس كانما لصديق او حشه

- جيناك باحمالنا يا جمل المحامل يا ابو فراج

لكنه لا يحى عبد العال ومجاهد الا متأخرا قبتاهما على جانبي
قبة السيد البدوى الحاج كريم لا يعنى بهما كثيرا ويضحك عبد
العزيز فى نفسه فان نساء قرите مشغوفان بعبد العال تستعين
به كل ضرة على ضرتها وكل حماء على امرأة ابنها ينذرن له النذور

وإنسن مقامه بالطرح السوداء .. وربما كان عبد العال شيئا مثل
السابق هكذا ولوعا بالنساء .. حتى بعد أن مات أنفمس فى القضاء
بينهن وقض مشاكلهن ..

حينما كان عبد العزيز صغيرا معلقا كالدمية فى يد ابيه يتطلع
الى وجوه الاخوان الخاشعين قبالة قبة السلطان .. ضفط
الحاج كريم على معصم ابنه .

.. الصالحين يسوفوا القبه دى وبينهم وبينها بلاد وبلاد

وفى القرية يصعد عبد العزيز على السطوح محاولا رؤية القبه
لو قد رآها مرة واحدة ..!! عيونه تتسكع بلا معنى حول القبه
والهلال ، ثمة خروق وتهتكات فى كساء القبة الذى كان اخضر يوما
من الايام الأولاد الطنطاوية يمرقون بعجلاتهم كالسهم على رؤوسهم
الواح الأرغفة او فى أيديهم بوابير الجاز والكلوبات ..

— اوعى الجاز .. يا باب النفس يا سيد .. زوارك يا سيد
كل بأف وأخوه ..

السياط تمزق الكبرياء الخاشع .. يود لو يشنق هؤلاء
الاوغاد ، الحاج كريم يلتفت نحو ابنه ربما كان يريد أن يقول له

— يا ولدى احنا محاسيب السلطان

لكنه لا يقول .. يشرع عصاه ووجهه ويمشى

ساروا فى شارع السكة الجديدة ، الدكاكين والدكك امامها
محملة بتلال الحمص النوافذ الزجاجيه مزدحمه بالحلوى بيضاء
وحمرء العلاقات محمله بلعب الاطفال وتبرق من وراء الواح الزجاج
الاساور والخواتم والاقراط بريق المعادن والوان قطع الزجاج تخطف
الابصار تتارجح مع الهواء شيلان البنات وملافح الرجال من الحرير
واولقطن ضجه الميكروفونات المعلقة على الجانبين ونشاط الباعة

الهائل فى العرض والاغراء .. ابتسامات ميكانيكية من وجوه
عصبيه مجهده محمره يسيل منها العرق ونهر الفلاحين السائر
يتلفت فى حذر ..

الحاج كريم يتأمل ما حوله فى ابتهاج يدفع الاكتاف فى هواه
تلك هى طنطا المزينه الصخابه التنظيفه القوية ..

— ياولاد .. عاوز اميل اسلم عالحاجة ..

وتضحك الوجوه ويترك العايق سلاله لمحمد كامل ويترك احمد
بدوى سلاله لامراته ، ويميلان مع الحاج كريم ويمضى الباقون الى
بيت الخدمه ..

الضحكه توشوش فى صدر عبد العزيز خطوات الحاج كريم
خفيفه نحو دكان تاجرة الخردوات .

— سلامو عليكم يا حاجه

تنهض من على مكتبها ضخمه لحيمه بيضاء تعصب المنديل
الاسود يشف عن نصاعة جبينها وتضحك عن صف من الاسنان
الذهبية ، بالجساره عيونها كيف يستطيع رجل أن يركبها ...؟
الحاج كريم فى جسده مروة غريبة ، يتفزز كجواد ، وهى تميد فى
ليونة ..

— سلامو عليكم يا حج كريم .. ما بيحبكش الا العزيز الفالى
يلوح بيدبه كانه ممثل على خشبة مسرح

— آى والله .. شوفنا للسلطان جاينا على وشنا .

ويجلس قبالتها ، يدها بيضاء منمقة ومعصمها زاخر بالاساور
الذهبية والدكان رفوف مرصوصه مليئه بالوان الحلى والمناديل
وقناني العطر .. وضحكات الحاجة المجلجلة العايق متوتر على
كرسيه مفتوح العيون تعلق شفتاه بلا وعى ورقة البقرة وأحمد بدوى

يتنسم كطفل فرح كانما خرجت الإبطال من كتب السيره وانتصبت
امامه يتبارزون ..

— تعالى يا حج كريم افتح لك دكان هنا جنبى

— التجارة مش شغلتي .. انا شغلتي الزراعة .. احرت ..
واروى .. الارض السوداء اخضرها ..

وتفرق فى الضحك جرس ضحكتها ووسوسة الاساور ياما
عشقت يا عايق ابدا ليس كهذه ، الحاج كريم فارس خيل وهذه
فرسه المدله .. النار العارمه فى قلب عبد العزيز لم تسقط عليه
من السماء تسلت من هذا الاب لا يكلمها كما يكلم النساء فى البلد
له معها لسان بندرى معوج ..

— هيا الفلاحين تتسكن يا حج كريم .. هنا الزينه والابهه

— تتسكن .. الفلاحين تتسكن .. البندر للزياره نزور ونرجعه
لارضنا ..

وجاء الولد خجولا يخبط صنيه بمعلقه الشاى جمع اكواب
المشاريب الفارغة ومضى ..

ومشى الحاج كريم فى شارع السكة الجديدة ووراء اصحابه
الثلاثة ثم انصرفوا جميعا الى شارع سيدى مرزوق ..

— نقول سلامو عليكم لحامولى يا رجاله

سكتو موافقين

من بعيد كان الحمولى يفرش الرده لكتاكيث خضراء على الارض
امام باب الدكان والحاج كريم ينظر اليه مبتسما ويتقدم نحوه ويبدأ
اقام الحمولى قامته ، طويلا نحिला متدلى الذراعين ضخم الكفين
يبربش عيونا محمره الجفون .. ابصر الحاج كريم

— أهلا .. أهلا .. أهلا

وقامته تهتز على إيقاع الترحيب

— دا نور إيه ده .. دا نور إيه ده

— نورك يا حمولى .. السلام عليكم ورحمة الله

ويسلم على ضيوفه ويجرى يقلب صناديق زجاجات الكوكاكولا
الخشبية ليهى لهم مجلسا وتنهض امرأة الحمامولى قصيرة
سمينه بيضاء عيونها هى الأخرى محمره ملتعبة الجفون ربما من
كثرة ركوب الحمولى فوقها .. كانت قد أعدت من قدميها مجلسا
لطفها يختر على الأرض فى استمتاع والآخر غير بعيد — يعجن
التراب فى يوله ..

— يا تلتمت مرحبه .. رجالة السيد عليهم نور

أراح الحاج كريم ذقنه على عصاه .. وطفق يتأمل الحمولى
الجالس أمامه يخطط ركبتيه بكفيه الكبيرتين ويحكى وهو ينصت له
بكليته .. كان الحمولى فلاحا يعيش حياة الريف البائسه الكئيبه
كم كوته الشمس الظهيره وكم تمزق باطن كفه من القبض على يد
الفاص كم عاش اياما على الخبز الجاف وجبن الجرار القديم كم
اخلفته السنين وساء المحصول ومر العام يجرجر الايام ثقيله
فقيرة على صدره عاش حمولى حياة القرية حتى خنقه الضيق ..
وذات يوم حمل امراته وعياله الى طنطا .. كيف اجترا هذا الريفى
على اقتحام المدينة .. لكن ها هو ذا له دكان وعيال يخربون على
الأسفلت لى استمتاع عيونه هاتان البورتان المحمرتان كاستى
حمامه قادران رغم هذا على أن تعكسا الاحساس بالانتصار امام
هؤلاء الزائرين العابرين للمدينة ..

— القهوة يا بت

المرأة تطرف فى رضى .. وعبد العزيز متوجس من محنة القهوة

القادمة .. ستكون شابا وسيكون الشاى طعمه جاز او لبان ذكر
او شىء من محتويات هذا الدكان القدر ..

الحاج كريم الأنوف الذى تصنع قهوته بحذر كالعبادة .

— بابا هو دا شاى يتشرب .. ؟

— معمول باخلاص يا بنى .. تتلحس الكبايه كمان

ويلم بدكان الحامولى كلما تعب من الخدمة ومن الوقوف على
قدميه طول النهار يطعم الناس ويستقبل القادمين ويودع العائدين
يقلب له صندوق الكوكاكولا ويجلس قبالة حمولى يخبط ركبتيه
بكفيه الكبيرين ويحكى والحاج كريم ينصت باستمتاع والمرأة
جالسه على الأرض تطرف عيونها فى رضى ..

شارع سيدى مرزوق مرة أخرى ، الجماعات حول صانعات
الشاى على الأرصفة، المقاهى والناس، أصوات المذياع وميكروفونات
تحمل اصوات المغنيين المشروحه وتنثرها فى جو الشارع ، عشرات
الريفين — زحمو بالحياة الشارع الذى كان مواتا قبل يومين لقد
بدأ المولد ..

الحاج كريم يتقدم عصاه تخبط الأرض فى وقع نشيط ..

— افراح السلطان يا ولاد

صعد الحاج كريم درجات السلم الحجرى وصعدوا وراءه ،
وقف وسط الباحة التى تقوم البيوت القديمة العالية على اضلاعها
الثلاثة مزدحمه بالطنطاويات ..

— نهاركو سعيد يا ستات

الزمن والفيار والوهن والتدانى خلقوا من هذه الواجهات
العالية شيئا غاية فى التأثير ، جلاليب النسوة الزاهية الالوان ،
الترايع ذات الترتر المعصوبة على شعور سوداء مفروقة لامعة بالدهان

الوجوه المزهية بالفرح مربعات الشبايك الزاخرة بالحياة متقاربة
على اللوحة المعتمه الحاج كريم ينقل بصره بين الشبايك باناة
والعائق قلق تستغزه فرحة تتوهج فى داخله وعبد العزيز يرقب
النحور والفرجات بين الائداء الصافية اللون فى شبق ، كم خلف
هذه الوجوهات من سراديب ، سلالم معتمة وغرف خلفية لا ترى
الضوء وهو يتسلل كالقط ويصطاد الفتيلت ، وفى لحظات ضبابيه
مرتجفه بالتوتر عميقة الى آخر كيانه خاطفه كالبرق يحظى بالقبل
واللشمت ويخرج الى هذه الباخه الى مهرجان الزحام والدفوف والعرق
والصياح ليفرق انفعاله فى الضجيج اللاغب ..

انهالت التحيات على الحاج كريم من الشبايك

— أهلا ياخويا .. والنبي ست أم طلعت مستنياكو مالصبح ..
يوه .. هيء هيء ..

— والنبي ياختى عليهم نور .. ناس طيبين وبتوع ربنا ..
ويبتسم الحاج كريم فى رضى قرير
— كل سنه وانتم طيبين

غارق فى هذا الاهتمام الناعم .. ويستدير ليجد أم طلعت
واقفة عند الباب ، الدراع اللحيم تهدل قليلا ، لكن العيون هي
هي ، من يوم الفنجان المكسور وعبد العزيز لا ينسى .. استجمع
من غفلاتها صورا لاثائها وبطنها وأووراها ، يراها فى نومه يعجز
عن انتزاعها من خياله .. مشى الحاج كريم نحوها ، دمته كأنشى ،
دمته فى كل ذرة من كيائها الناعم لينه فى عيونها لينه فى يدها التى
تمدها للمصافحه ، لينه فى رأسها الذى يميل كأنما يثقل على
رقبتها والحاج كريم روى الوجه بالابتسام تقبل يده ويقبل رأسها ،
عبد العزيز ليس حزينا لكنه رقيق طيب الى حد البكاء ..
— طنطا نورت يا حبي ..

- نوركم ياست .. نوركم والله

وتسير امامه فى أرجاء البيت الخالى تنقل قدميها الخمريتين
على البلاط المهشم وعصاه تنقر ارض الصالة هنا وهنا حيثما
تسير ..

- خليت لكم البيت .. لكن كل حاجه بتاعتكم .. اى فرش ..
كنبه .. مراتب اى حاجه بس اطلب يا حيج ..

الرجل قائمون اطار من الابتسام حول لقاء أم طلعت والحاج
كريم وينظر لهم ويضحك فى وجوههم ..

- السلام عليكم

- عليكم السلام ورحمة الله

ويحل الصمت لثانية مفعمة .. ثم تنفجر ضحكات تلقائية ..
فيض من قلوب حافله بالرضى ..

ويخطط الحاج بعصاه على الأرض

- هيه

ويتنهّد محمد كامل

- خلاص وصلنا

وتغمض عيون الحاج كريم يصبح وجهه شفيفا

- الحمد لله .. اللهم لا تقطع لنا عادة .. اللهم لانحرمنا من

الوقوف على بابك .. يا سيدى أحمد يا بدوى .. احنا فى رحابك
يا سلطان

يقولون فى خفوت

- آمين

أم طلعت لا ترفع عيونها عن الحاج كريم ، تسأل فى خجل

- ما يلزمكوش حاجه ٠٠ أى حاجه

ويضحك لها الحاج كريم راضيا

- ربنا يجازيك خير ٠٠ ومايحرمناش منك

ثم لن يراها مرة أخرى الا يوم السفر يصافحها الحاج كريم
وهو ماضى الى المحطة ٠٠

فرش الحصر الأبيض على أرض الغرفة ، حيطان مبقعة حائلة
اللون، مسامير معلق فيها آيات قرآنية على ورق رخيص ، رسوم
اطفال وصور لناس يقفون فى بلاهة كأنهم محنطون ٠٠ خلع الرجال
جلابيب السفر، بقى من بقى بالسروال الطويل حتى الكعب والصدار
والطاقية الصوفية الحمراء وبقى من بقى - بجلبات خفيف ، خلع
الحاج كريم عمامته، فرشوا لها جزءا من جريدة فى أرضية الشباك،
خلع جلبابه الكشميرى الكبير وقفطانه الشاهى وعلق الكل على مسمار
فى الحائط لبس جلبابا كتانيا خفيفا كالطاووس اذا خلع عنه ريشه
لكنه فى هذه الملابس بدأ بسطا طيبا اليفا تربيع على الحصر وتربعوا
حواليه خلع عبد العزيز بذلته وعلقها الى مسمار فى الحائط لبس
جلبابا افرنكيا مخططا وضع كتبه بجوار عمامة أبيه وجلس معهم ٠٠
فى الغرفة الأخرى النساء ربما تخففن الآن من الطرح والشياب
السوداء وبقين بالملابس التحتيه الملونه وربما العيال حولهن يضكن
فى دهبه ومرح ولا بد أن سميرة جالسه بينهم تبتسم ستقفى
أيام المولد هنا فى بيت الخدمه تكفى نفسها عناء السفر اليومى
ومعانة الزحام ٠٠ ستكون معه فى بيت واحد لمدة سبعة أيام ٠٠
لكنها لاتحرك فيه شيئا يحس ناحيتها بفتور غريب ، ليس فيها
حرافة بنات طنطا وتأثيرهن ، تجلس ساكنة هكذا واسعة العيون
والبرود يزحف على قبله الى درجة الكراهيه .

من غد سوف يأتى الشيخ ورهطه سيخرجون لاستقبالهم على
المحطة ويكون العناق والأشواق .

وهنا فى هذا المكان ستفرش الحشيشة للشيخ ، وسوف يتخفف من عمامته الخضراء فتوضع فى الشباك بجوار عمامة الحاج كريم ، وسوف يكون الحديث ، منذ متى لم يلتقو ..؟ الضحك والحديث الطيب وفرحة اللقاء فى مدينة السلطان ..

وها هنا سيجلس المستكاوى وبجواره العايق ركة لركة وسوف يخرج من جيب صدره قطعة من الحشيش ويلقى بها فى حجر العايق الذى يضحك مبهورا يتلمظ .
- خد لف سيجارة ياوله ..

ويتلقف العايق قطعة الحشيش يقلبها بأصابعه الخيرة ويكركم بالضحك ويقطع حسن أفندى وعلى خليل حديثهما الودود الهامس وينظران ناحية العايق ويقول حسن أفندى ..

لو تبطلوا الهباب ده .. ولو مدة المولد بس .. أكراما للسلطان

ويرد المستكاوى جهما

- أنا أكراما للسلطان مضيع فلوسى عالمدةوق .. لما ببقى مسطول بيتهيا لى أنه أجده ولى من أولياء الله

ويكركم العايق بالضحك حتى تكاد تبرز عيناه .. ثم يقول وهو يضحك ..

- اسألوا الشيخ عباس حتى .

ويمد الشيخ عباس ركة كركة الزرافه ويقول

- ما سمعناش حد من المتقدمين ولا من المتأخرين حرم الحشيش الخمر حرام صحيح .. أنما الحشيش .. نبات .. زى أى نبات ..

ويموت المستكاوى والعايق من الضحك ويصفر وجهه على خليل
ويلوى حسن أفندى وجهه بعيد ويضحك أحمد بدوى كطفل ويتسم
الشيخ والحاج كريم فى سكون وينطلق المستكاوى يحلف بإيمان
مغلظه

— والله العظيم لو أنا الملك لا عملك مفتى الديار المصريه ...
دانت ورده ياشيخ عباس

ويضيق العايق من ضحكه ويمد يده بسيجاره الحشيش للشيخ
عباس

— خد يا شيخ خد .. وقول لنا شوية فى مناقب الحشاشيين
لكن الحاج كريم لا يدع المساله تفلت منه يصفق بيده جادا
فيستكون وبعد صلاة العشاء ستكون حضرة مباركه كل ليلة من
ليالى المولد حضره وذكر .. القلب يتخفف بالضحك لكن العوده
للجد محتومه ..

وأمام هذه الغرفة سيجلس صانع القهوة سيخلق لنفسه بقعة
ساكنة وسط الضجيج ، فى الليلة الكبيرة حينما يضر البيت زحاما
وطعاما وضجيجا يكون صانع القهوة ملجأ من يبحثون عن لحظة
سكون ، حالما تجلس يمد لك يده بالقهوة باسم طيب الوجه ..
وبجواره الشيخ سوف يجلس صانع الرقى ، تدخل المرأة على
الشيخ بطفلها فتشير له فيكتب حجابا يأخذه الشيخ بباركة ويعلقه
فى رقبة الطفل وعبد العزيز فى الركن يتسم فى خبث ..

وسوف يكون للرجال فى بيتهم هذا مهام توكل لكل واحد منهم
دائما دون اخلال ، سيتولى على خليل نقود المصاريف وسوف
تأتيه رشيدة .

— عاوزين بصل يابا على

- بايه .. بقرش

- لا مايكفيش .. بخمسة ساغ ..

- على مهلك شوية يا رشيدة .. هجيب لك بقرشين .. آهو
يبقى كفاية

ولا تعارضه رشيدة ، عليها أن تطبخ بما هو متاح ، وهى تعرف
أن الحاج كريم سيقول

- شوفى أبوكى على .. واللى يقوله اسمعيه

فتذهب الى المطبخ طائعه وهناك تتولى قيادة النساء تجلس فى
المطبخ المعتم حازمه والحلل الكبار على البوابير الصخابه والجو
مخنوق بالدخان ورائحة الطبخ ..

ويموت العايق لكن سيبقى فيه بعد الموت هوى التحرص بالنساء
كل آن يمر على المطبخ ..

- البوابير حلوه يا جماعه

- حلوين يا بابا محمد .. تسلم ايدك

والا فمرسال البيت هو الى كل النساء

- يا عايق .. روح لحبيبه هات منها حصيرة ومخدتين

- على عينى ياعم

ثم يأتى يلقي حملة أحمر الوجه من المجهود

- بتسلم عليك كثير السلام .. هواها تشوفك وتطمئن عليك

ويبتسم الحاج كريم فى حنان

- الله يجازيها خير

لكن الشركسى النجار سيحلب الماء صفيحة اثر صفيحة هذا
العمل يبعده عن الاحتكاك بالآخرين فانه عصاى سريع الغضب أما

محمد كامل وأحمد بدوى فهم عند ذراعى الحاج كريم وسط الناس
يبتسمون ويرحبون ويطعمون ويهيئون المجالس والمراقد .. الى أن
تصلى العشاء جماعه بعدها تقام حضرة المساء ..

بدأ العايق يلف لنفسه سيجاره اصابعه الناصعة الرقيقة تسوى
حبة الدخان فى ورقة البقره ثم يلعق أطرافها بشفتيه ويحبكها
بمهارة .. لكنه شارد اللب بعيدا عن الجالسين ..

— عاوز أقوم بقى ..

ويسأل أحمد بدوى مصطنعا براءة طفلية ..

— على فين ؟ ..

ويشوب صوت العايق قلق ..

— أصلح البوابير ..

يتلفت حواليه متشككا ويواصل حديثه ..

— أصلحهم الليله واحنا فاضين .. بكره مانضمنش ظروفنا

الرجال سارحون تطامنو فى مجلسهم يمدون أجسادا اتعبها
المشوار لكن أحمد بدوى يبتسم فى مكر .. وعبد العزيز يبادلـه
الابتسام يعلمان ويعلم سائر الرجال أن العايق ذاهب للمقاء الجازيه،
حالما يصل الى طنطا تكون قد سبقته وأقامت عند أقارب لها ، ويظل
يتحين كل فرصة للقاءها .. يبتسم عبد العزيز فى نفسه غريب
أمر هاتان المراتان .. روايح والجازيه .. تتعاركان على العايق
ذلك الطفل النزق المدلل كل واحد منهن تريد أن تملكه لنفسها
وهو منقسم بينهما صباح اليوم أوصلته روايح الى المحطة وهنا
تتلقفه الجازيه يتأمل عبد العزيز وجهه المحمر بالانفعال وتعلمله فى
مجلس ويبتسم لنفسه تدور على وجوه الرجال ابتسامات عارفه
ويكشر الشركسى النجار

- أقعد يا عايق ماتقباش ناقص ..
 ويحمر وجه الصايق ..
 - دا شغلى وأنا عارفه ..
 وابتسامة الحاج كريم أكثر تعباً ..
 - الصباح رباح يا عايق .. النهار له عينين ..
 لكن رغبة العايق فى الانطلاق لا تقاوم كطفل ضاق بالقعود فى
 الدار ، أحمد بدوى يتدخل ضاحكاً ..
 - قلبه مش حيقعد فى بطنه الا اذا أصلح البواجير .. سيبيه
 ويضحكون جميعاً ويضك العراقي معهم بلا فهم وينفجر العايق
 - البواوير مالهش أمان وأن وقفت كلكو حتقولو يا عايق
 ويطرق الباب وتسمع منه ضجه وهيصه وضحكات عيال وصوت
 طفله عابثه ..
 - والنبي ياعم تدينى قرقوشتين وحة دقة ..
 ويجرى العايق ناحية الباب ويسمع صوته محاوراً البنت الشقيه
 - بالعجل جيتو تقولو دقه وقرقيش هو احتا لسه ارتاحنا
 المشوار .. عالم نهابة ..
 ويهش الصفار بعيداً يفرون من وجهه متصنعين الدهر زائطين
 تاركين وراءهم الشتائم ..
 - يا فلاحين يا بهائم ..
 - أمشى .. جاك مشش فى ركبك صنف صايح ..
 وتغيم الوجوه بسحابات معتمة من شتائم البنت ... صمت
 يقطعه أحمد بدوى ..

- احنا بهاييم ياعم محمد يا كامل
 وينكس الرجل وجهه مستنكرا السؤال فى حياء
 - ربنا بيقول « ولقد كرمنا بنى آدم .. »
 ويزداد وجه على خليل المرهف شعوبا
 - لا حول ولا قوة الا بالله
 ويفضب الشركى النجار .
 - بهاييم ازاي ياخى .
 ويكن احمد بدوى سارحا يتتبع حكاية فى دماغه .
 - مادام بنام مع البهايم فى حته .. ومن بدرى سوا فى الغيط
 فى الوحلة والتراب يبقى حكمنا حكم البهايم .
 ويتسم الرجال او يمصصون الشفاه .
 - كنت نوية راكب للقطار .. وقاعد قبالي واحد أفندى والست
 بتاعته .. اللفندى بيقول الفلاحين كلها خير ، قشطة وزبدة قلت
 ياعم دا كلام .. دا حنا بنقضى السنة ناكل عيش ونجينة وسريس ..
 الست ميلت على اللفندى وقالت له « سريس يا حمدى .. دا اللي
 بنرميه للوز .. اللي بيطلعوه من برسيم البهايم .. ؟ » قلت لها
 ايوه ياستى بنساخده من قدام البهايم وناكله احنا .. حكمنا
 حكم البهايم .. !!
 وكل الرجال ساكتون ، القهر يمشى فى عروق عبد العزيز
 ثقيل كالزئبق ، هو يحب المدينة لماذا لا تحب المدينة آله ، القهر يكاد
 يخنقه هؤلاء ناسه رغم كل شيء ، ذلك الذى يتوهج فى عيونهم ولا
 ينطفئ يحمله فى روحه ؛
 - احنا احسن ناس فى الدنيا

وتلمع ابتسامات فى العيون وترف على اطراف الشفاه ربما لانه
يتكلم عنهم يضع نفسه بينهم ..

— أبوه احنا احسن ناس فى الدنيا ..

ويريحه قليلا هذا التباهى .

هاهم قد اقاموا بيتا فى المدينة سيفرضون انفسهم ..
وانفاسهم سيفرضون جرجرة نعالهم على هذه المدينة اسبوعا ،
استراح اذ يفكر هكذا وضحك على العايق ينفجر فى سيل من الكلام
مقلدا سيدة القطار ..

— « سريس يا حمدى » .. ؟ آى ياختى سريس .. مرة قبحه
.. تلاقى اشداقها محروقه من أكل البصل .. ومش عارفه السريس
.. فلاحه لب اللب .. بس تلاقى ربنا رزقها بواحد افندى الشمس
لطشاه .. خدها ورقاها ..

يتدخل النجار بطريقته العصبية ..

— بنى آدم لما ربنا بيكرمه .. بيبقى جبار ..
ويعود طرق الباب وضحكات العيال والشتائم المقدعة ، عنف
الهجوم وقال العايق ..

— امشى يابت جك سلاية فى كوعك .. الله الواحد يجرجرهم
عالبندر ..

ويتذكر عبد العزيز عساكر الشرطه عند المحطه ويبتسم فى
مرارة .. العايق يروح ويجيء فى الشقه حببسا فجاء يجمع البوابير
ويمضى خارجا .. ويتبادل الرجال فيما بينهم تقاهما ويتنهد محمد
كامل ..

— كل ميسر لما خلق له ..

ويقول أحمد بدوى مغفرا الموضوع ..

— ما فيش فيلم حلو كده فى السينما يا سى عبد العزيز

ويدور احمد بدوى بعينيه فى وجوه الرجال كانما يرى اثر
سؤاله عليهم أو كانما يرجو أن يتحسوا لاقتراحه ويترث عند
الحاج كريم .

— ولا ايه يا عم الحاج

هاش ياسم يهز راسه هزات رتيبه كانه على الاربكه فى صالة
الدوار يشرع فى حكاية وعبد العزيز يضحك فى نفسه نلك هي
ليلة السينما منذ ماوعت الذاكره مولد السيد البدوى والسفر
الى طنطا وتلك الليلة تكرر لمشاهدة رواية فى دار العرض
الوحيدى فى طنطا (سينما مصر) ومنذ ما وعى عبد العزيز والصور
فى ذهنه متخالطه امره جميله الوجه تغنى حركة شفيتها تسبق
مخارج الحروف أو تتأخر عنها رجل قاسى له شوارب يصرخ
ويهدد شاب نحيل الوجه طويل السوالف تعذب به الوحده وقسوة
الناس ، والحاج كريم على مكانه من الأريكة يحكى والاخوان ساهمو
الوجوه فى ضوء الفانوس ويكون عبد العزيز قد رأى الرواية مع
ابيه لكنه يراها من جديد فى حكايته ينبهر ربما أكثر من انبهار
الذين لم يشاهدوا الرواية اصلا ويعيش احداثها ويعايش
شخصياتها من جديد وهكذا فى كل مرة حكاية فى كل زيارة لطنطا
بعد قضاء الحاجات وزيارة السلطان يتطلع احمد بدوى الى الحاج
كريم ..

— الواحد نفسه هفاه عالسينما ياعم الحاج

وفى المساء فى مجتمع الاخوان يحكى الحاج كريم ويضحك
احمد بدوى مراقبا الحكاية اما عبد العزيز فان شيئا ما غريب
يحيزه ، هؤلاء الناس يرون من الأشياء غير ما يرى أو أبعد
مما يرى ..

— لكن هيا حبته ياعم احمد يا بدوى

— لا يا سى عبد

ويتجاهم كاسيا وجهه قناع جد
 - هيا ما حبتوش .. انما عاوز تاخده بعد ماصح وبقى كويس
 ويختار عبد العزيز ويتنهد محمد كامل
 - بن خولى الزراعه خش البرلمان .. سبحة الله
 ويقول الحاج كريم باسلوب فخم
 - يوسف وهبى راجل عظيم .. رواياته فى الصميم
 ويقول احمد بدوى شامتا
 - وبن باشا طلع خايب
 ويضحك الرجال ويلح عبد العزيز
 - بس بنت الباشا حبته فعلا
 ويعاند احمد بدوى
 - دى بنت كلب طمعت فيه بعد ماصح .. لو كان بيعزق بالفاس
 كانت اتجوزته ..؟

وينجح منطق احمد بدوى فى مجلس الرجال ويدهش
 عبد العزيز بكيف يرون الاشياء هكذا .. انه يذهب الى طنطا كثيرا
 لكنه يجلس معهم فى المساء اذ يتوبون من زيارتها وينصت الى
 حكاياتهم دهشا ، كيف راوا كل هذا كيف ملاتهم المدينة بكل
 هذا الانفعال ..

يبتسم عبد العزيز ..
 - فيه رواية حلوة فعلا ..
 ويفرح احمد بدوى ويبتسم على خليل فى رقة وعدوبه
 ويوجه له عبد العزيز الكلام
 - رواية محزنة ..
 وتتوجه الوجوه كلها الى الحاج كريم ويضحك الرجل لهم
 وهو يتهيا للنهوض .
 - مادام كلکم عاوزين .. ما اجتمعت امتى على ضلال .

وطرقات العيال على الباب لا تؤرق سرورهم ، محمد كامل
يقول ..

— نفرج عن نفسنا شوية .. آهى عادته اتعودنا عليها .. ربنا
ما يقطع لناش عادة .. مدد ياسيدى أحمد يابدوى ..

وعاون احمد بدوى الحاج كريم على النهوض

— مش جاي معانا يا سى عبد

— لا والله ياعم احمد شفت الفيلم ده مع اصحابى امبارح

ويقول على خليل مخافتا

— ما تقطعش عادتك معانا ياسى عبد

ويخجل عبد العزيز لكنه لا يحب ان يرى فيلما راه بالامس ..

تلقت العراقى حواليه دون ان يفهم شيئا اشار احمد بدوى لامراته

فخرجت تدارى نص وجهها بطرحتها خجلا انه يدلل امراته ذلك

الانسان الودود .. لكن صديقة الحزينة لا تأتى ..

خرج الحاج كريم وخرجوا وراءه ، سمع عبد العزيز وقسع

اقدامهم على السلم الحجري ، نظر العراقى الى وجهه متسائلا ،

طفق يشير له شارحا تملل العراقى ودار فى البيت يهمهم بكلام

غير مفهوم ، وأخيرا دخل الغرفة طوى جلباته تحت رأسه ونام ،

نظر الشركسى النجار الى عبد العزيز ..

— ما تقعد ياسى عبد العزيز .. قلقان ليه

احسن عبد العزيز ان الشركسى النجار يريد ان يكلمه .. هذا

الرجل الذى لا يجد ناسا كثيرين لذه فى الاستماع له .. لكنه

يريد ان يتحدث الآن .. يريد ان يكلم عبد العزيز احسن عبد العزيز

بالرغبة فى ان يجلس وينصت اليه لكن طنطا كانت فى الخارج

اضواء النيون والبسات المقاهى ودكاكين الحلوى والمرطبات

الصغيرة .. ربما بعد ان يسكن البيت تاتى سميرة تساله أن

يشرح لها شيئا فيه حنين نحوها لكن عاديتها وسكونها يثيرانه ،

يريد شيئا آخر أن يفرق فى اضاء المدينة ..

الليلة الكبيرة

اكداس من الاحذية والبلغ والشباشب والبقايب ، شوهاء
متقلصه الجلد متزاحمه متراكبه تتلوى ملامحها فى تعب متقوسه
النعال ، اكداس بلا نظام وهو جالس القرفصاء - عبد العزيز -
يحتضن ساقيه ويريح خده على ركبتيه ، البلاط ممتد تحت عشرات
الاقدام التى تتحرك فى نشاط متحررة من اى مداس، أو فى أشكال
غريبه من النعال البلاط ممتد تحت هذه الاقدام مكسو بالتراب
والدهن ، طراز أصيل من القذاره ، البلاطات متخلعه من الارضيه
طافية تميد تحت دوس الاقدام ، ربما تحتها الان صراير وخنافس
تبرق عيونها فى الظلمه الحالكه وتتحرك شواربها فى تحسس خائف
متربص ٠٠ متى تبدأ جولتها الليليه ٠٠ ؟ مملكتها تتعرض للغزو
٠٠ والاقدام تدوس ثقله مصممه ٠٠ فى اقصى الصاله يقبع المرحاض
بؤرة بلل وثنائه الريح تهب منه أرتال وئيده تفعم الرئه بالعفن يكاد
يخنقه الريح العطن والانفاس والزحام والصياح ٠

الصاله مزدحمه كتف لكتف والحاج كريم وجهه لامع بالعرق
وضوء الكلوب ، طاقيته الصوفيه الحمراء تقلصت حتى استقرت على
مؤخرة رأسه طوق جلبابه متثنى الاطراف وسنخ عند اكتافه من
العرق والغبار يخذب انفاسا من عقب سيجارة بين أصبعيه ، يتلفت
هنا وهناك بسرعه ويصدر الاوامر ٠

- يا عايق ٠٠ الكلوبات نامت خالص يا عايق

وصيح العايق ملبيا ، خلع جلبابه وبقي بسر وال قصير ينكشف
ساقيه المشعرين الابيضين الوسخين ، يقفز فوق كرسي ويمالج

الكلوبات بابرته وينزل من كلوب الى آخر ويدور فى الصالة يتلمص
بين المتزاحمين غاضبا ..

— اسعوا كده وصلو عا النبي .. خلونا نشوف شغلنا

ويتأمل الكلوبات بجديه وقد تدفق منها الضوء والطين وتفتحت
عيونها فى السقف على الآخر .

نبئت اللحيه فى وجه محمد كامل الاسمر والعرق يسيل على
وجهه المروق ضاحك العيون يسير فى كل اتجاه متحررا من جلبابه،
قميصه منسوخ عند اكتافه وظهره مبلول بالعرق منحني ، فى يديه
حلة كبيرة يغرف الماء من الزير ويدلقه فيها ثم يسير بها ناحية المطبخ
.. وعلى خليل يرص الاطباق فى الشباك يحصى عدد الملاءق ،
معزول عن كل هذا الضجيج كأنما هو نحت ناقوس زجاجى حتى
لا يفقد واحد منها .. جلبابه متسخ كأنه يعمل فى سرجة ،
العابق يصيح به ..

— نسلموني لصحن دى تمام زى ما سلمتها لكم تمام .. اننا
شاحتها من كل ست صحن

صياح العابق لا يؤرق عكوفه على احصاء الاطباق الحاج كريم
يصيح

— شوف شغلك يا عابق بلاش غلبه

احمد بدوى يضحك ويفرق فى الضحك

— خايف على زعل الستات

الشركسى النجار يدخل من الباب حاملا دلاء الماء ويصرخ غاضبا
— الزحمة على طرمبه الميه بضرب الخناق .. ينعل ابو دى بلد

يضحكون فى سرور ، حتى فى صياحهم الغاضب انما هم
يضحكون فى هذا الزحام الغريب يروحون ويجيئون بسهولة ..

العسرافى يتلفت بسرعة يريد أن ينطلق زاعقا بالمسدد لكن الزحام والضجيج والانصراف التام عنه يخنقه يدور يتلفت متربصا منتظرا حزمة اهتمام حتى ينطلق ..

فى المطبخ البوابير واقفه واحدا وراء الآخر يحملون على رؤوسهم حلل الطبخ السوداء .. رائحة الطبخ والدسامه ، يكاد عبد العزيز ان يقيء ، البوابير تنز فى صبر كانما يقرأون دلائل الخيرات لكن بلا حياة ولانغم .. البوابير تحمل الحلل على رؤسها كانما اخترعت على شاكلة النساء السود فى القرية .. منحنيات على الحلل يكشفنها ويدسن وجوههن فى البخار ، وتولج المغارف فى الحلل وتخرج وفيها المرق وقطع اللحم السوداء فى اطرافها براويز من الدهن .. الغرافة المعتمة ، البوابير والسخونة وحركة النسوة الغامضة كأنهن يتحركن فى رحم ، امرأة محمد كامل التى طلقها فى العام الماضى تسبح فى بخار الطبخ الدسم ودخان المصابيح والبوابير لقد التاث عقلها قليلا، تلقى بالكلام وتصلى على النبی دون مناسبة وتنادى السلطان ، وامرأة أحمد بدوى تقلب السائل فى الحلة وعينها على صديقة خائفة ورائية .. وامرأة الشركسى افترشت الأرض واكبت بسكينها على البصل ودموعها سائلة من رذاذه .. وبنات الحاج كريم تخفى ابتساماتهن كثافة الدخان والبخار والعتامة

نظر عبد العزيز الى وجه رشيدة المطل على الحله والمحوط بالبخار ، الهذا جاء من القرية لتبقى حبيسة المطبخ ثم الى القطار مباشرة اهكذا كل سرورها ..؟ التفتت ، همست له عيونها الذابلة همسا حنونا دست المغرفة فى الحلة وخرجت بها عارضة عليه قطعة من اللحم مدهنة رفض مشمئزا اعادت القطعة الى الحلة بيد باكية .. النساء ينظرن اليها وهى لا تتكلم يتحرك جسمها وتتلفت فيفهمون ، حزم أشد من حزم أم عبد العزيز ، السخونة مفروشة

على أرض المطبخ ، سخونة مبلولة قذرة ، لا فسحة لسير أقدام النساء الحافية ، تشوى على الأرضية وهى مفروشة عليها فى صبر ، الدخان الأسود يصنع قبة فوق مشهد الحلل والنساء المضاء بضوء خافت وفى الحيطان مسامير معلق عليها قفف وأقفاص ، وحزم بصل وتوم ، الدخان يرتكز على الأشياء المعلقة بأقدام غير مرئية .

ظهر وجه الحاج كريم على باب المطبخ عرضت عليه رشيدة مغرفة طبيخ ..

– دوق كده يابا .

– حلو قوى يابنتى .

صوته يسمع ولو كان يكلم نفسه .. عبد العزيز يعرف كيف يسرى صوته فى الجمع الحاشد ، الجالسون على الحصر فى الغرف تحت أصواء الكلوبات التى تون فى بلاده ، كل الأشقاد الآن تتحلب الخمائر فى جدران المعدات تنشط نشاطا مريبا ، أيام الشقاء على مدار العام ، العناء تحت الشمس المحرقة ، الطعام الخشن لايام طوال ، المعدات تتلوى فى انتظار شيء دسم ناعم طرى .

– أفتت يابا ؟

– فتى وكترى يابنتى .. احنا لنا غير الفتة .. حطو الصوانى تتفرع كلماته الى فروع تدق وتتكاثر حتى تملأ المطبخ تتحرك الأيدى تحت بصر رشيدة وتوضع الصوانى .. ولا تدرى كيف وجدوا لها مكانا .

وتزرع شبرا بعد شبر بأشكال من الأطباق وألوان من السوائل أحمر وأخضر وأبيض وعيون الدهن تسبح على وجه الأطباق .

الحاج كريم يتحاشى النظر الى عبد العزيز كذلك الاخوان الوجوه تبتسم ثم تقص الابتسامة قبل نهايتها .. الوجوه المدبوغه

الجلد من وقدة الشمس فى الحقول ، اذ ينتشرون على وجه الأرض يعملون فرادى متباعدين ، ها هم قد تسربوا من الطرق فى تصميم وجاءوا زحاما رهيبا الى المدينة .. ها هم ، ماذا أتى بهم أى معنى لما يفعلون ؟

— كل سنة وانت طيب يا عم .

أصوات ضحكات وعبد العزيز يريد لو توقفوا ثانية واحدة وقالوا له كلاما يفهمه لكنهم يتجاوزونه ابتسامات مجزوة عند نهاياتها ، ويتجاوزنه ، وتتفجر ضحكات هنا وهناك كقطرات العرق على ظاهر اليد ساخنة ولزجة ، والأصداء تملأ المسافات البينية سرور ساخن لافح .

— مدد يا سلطان .

متواصلون بأسلاك كهربائية هؤلاء ، وهو فى داخلهم قطعة عازلة ، لو يمسك أباه من ذراعيه ويوقفه ويسأله ..

— ما معنى هذا ..

لكن لا يوجد مكان خال على المسرح لمشهد كهذا الحركة الطاحنة تجرف كل شيء .

— من فاته اللحم يشرب مرق .

— كله فى حب السلطان .

عبد العزيز يبحث عن بقعة هادئة فى هذه الخلية ، صانع القهوة .. ؟ غارق فى وش الزابور الذى أمامه عبد العزيز يتأمل اناء القهوة ويتصور انه مثله تماما داخله ملء بشى أسود مر ، وجه صانع القهوة مضاء بظلال غريبة جلس بجواره للحظة .

— فنجان قهوة .. ؟

الغرف المفروشة بالحصر مكدسة بناس جالسين لكنهم قانمون
فى داخلهم مشرئبون متشدقون بلا قداسة ، المدة محركة التاريخ ،
تاريخ هذه الكائنات التى ولدت فى الوحل كميات من الهلام لزجة
رجرجاة ظلت ترتجف وتستطيل وتلتهم وتنشق وتختمر بلاين
بلاين من الأفواه الميكروسكوبية ، ملحمة التهام شره بشع ذلك هو
تاريخ البشر المخلوقات الهلامية التى ظلت تتخلق على مدى الحقب
حتى صارت ناسا يبتسمون لكنهم يحتفظون فى داخلهم بهذه
المعدات الوجوه المدبوجة الجلد مرايا تظهر التواء الأمعاء المؤلم ،
زحام من الجوع المرصوص والكلمات المبتورة نهاياتها يتزاحمون
بالأنفاز وعلى الأبواب أكداس من الأحذية كأنها أطراف أجساد
هؤلاء الجالسين بترت وألقيت فى اهامال ٠٠

- الفتة رئيسة النصة •

- والرز شاويش الطعام •

- مدد يا سلطان •

سقيم ثقيل فى داخله يتأمل وجوه غرفة الشيخ ، أكثر هرما
وأكثر امتلاء ، صانع الرقى يبيع الحروف المقلوبة فى وريقات
هزيلة للمأفونين الذين يحملون على الأذرع أطفالا معلولين ، ناعس
العين يتفرز كل حين ليرى هل وصلت صينية الطعام ، يود لو
يخنقه ، يخنقه بشال عمامة الشيخ عباس الكذاب •

- أتردوا فى الثريد بركة ٠٠ هكذا علمنا الأوائل رضوان
الله عليهم ٠٠ الفتة مبروكة ٠٠

والمستكاوى ممتلىء جحظت عيونه يسعل بلا انقطاع ويبصق
بلا انقطاع وبين سعلاته يسأل الشيخ عباس •

— مافيش حديث كده عن اللحمة أم صلصة يا شيخ عباس .
والشيخ بؤرة الزحام ، اله صغير ، الوسامة والطمانية والعبث
الرتيب بحباب المسبحة ، الصفاء المتكىء على حشية ، سيليل رسول
الله ، يتفل فى أفواه الأطفال ويمسح جباههم ، أى مهزلة ..

الكلوبات أقمار ساخنة تمد شوارب ملتبهة كصراصير مضيئة
تنوش الوجوه ، الصور المعلقة فى مسامير الحيطان عيون باهتة
المقل تطل فى تساؤل أبله أخرس .. يتصور أنهم سوف يدقونه
بسمار فى الحائط ويرقصون تحته هذه الرقصة رقصة المضغ
الهمجية ..

فى غرفة قصية كدس العيال والبنات ، يتعابثون يضحكون
يقرصون بعضهم بعضا .. وهى هناك ، سميرة ، نفس العينين ،
واسعة بنوع من السكون بارد مقيت .. ها هو قلبى حطى فيه
شيئا ما ، لكن سميرة تنظر له بعينين غير مدركتين كرهها بشدة ..
يود لو تذهب بعيدا بعيدا فانه يحس بالاختناق .

الجوابون ، القطاط الجرباء الظهور الدائرة فى الريف ، اللحي
والشعور المرسله والعيون البراقة ، سراويل الحديد ، المسابع
الهائلة ، أشكال العمائم المزينة بكل شئ حتى بأحذية الأطفال
الصفيرة صنوف الهراوات والسيوف الخشبية يملكون ضحكات
كالخناجر ، سحن وأردية غريبة .. هذا هو الاجتماع العظيم
للجوابين ، وجوه صنعت لتبث الخوف سفن خبيرة بشق الموج
ملاح تشق لنفسها سبلا بين المشاعر .

هذا هو .. رجل عبد العزيز السربل بالحديد الطائر بين
صفى الذاكرين كمهرج يخرج عن فمه رغاء مقرفا .

— يا أهل الخدمة .. على باب الله .. فى حب السلطان .

ويقبل الحاج كريم عليه مرحبا باسطا ذراعيه .

— أهلا أهلا أهلا يا عمى .

ويحاول أن يأخذه الى الغرفة لكنه يرفض ويتخذ لنفسه مكانا
لى الركن .

— لقمتى وقهوتى وامشى .. ما اقدرش أقعد .. الدرج بتاعى
بأسيبوش أبدا ..

وتوضع الصفحة امامه يلوث فمه ولحيته وثيابه .. ثم فنجال
القهوة المر ثم يمضى متجشأ .

الصوانى قادمه ، لتخلى الافواه من كل شيء حتى الدعوات
الصالحات

— وسع يا جدع .. اوعى يا خويا .. حاسب ..

المعدات كائنات هلامية مقبلة من قاع التاريخ ، اميبات مصممة
ناتكة مبيده لم تتطور منذ وجدت فقط نبت تحتها رجلان يحملانها
ربدان يناولانها الطعام أغمض عبد العزيز عينيه واحس بذات الرجفه
التي أحسها فى ذلك الصباح المبكر حينما وقف حزينا وسط حقل
القطن وبيده آلة الرش الهرمه يسمع قرص الديدان فى النورات
الفضه .. تأمل ذلك البساط البشرى القارض .

الديناصورات حكمت العالم مليون عام ، أجساد هائلة بامخاخ
صغيره وافواه قارضة يتزاحمون هكذا دون تدبير ، عبد العزيز يكاد
يبكى حزينا انه ابن هؤلاء المنقضون على الطعام فى بهيميه غريبه
يود أن يقف ويصرخ فيهم أن يكفوا وان يتعقلوا العالم يقسموه الى
مربعات صغيره ويتاملوه ذلك التزاحم الرهيب ينفى الفكر ، ينبذه
ويدوسه ..

بقايا السجارة فى يد الحاج كريم ملوث بالدهن يقف وسط
الصالة يتأمل المأكلة الرهيبة فى فرح مبهم غريب ، نظر الى
عبد العزيز ..

— أقعد كل ..

— ماليش نفس ..

— كل مع الناس ..

— لا ..

فهو ليس معهم أبدا بل يود لو وقف امامهم باسـطا ذراعيه
ليمنعهم ..

فرغت الاطباق على الصوانى فتات الخبز وبقايا الطبخ والعظام
اللامعه بقايا الموقعه التلمظ والضحك وصحيات الانتصار .. ثم
مدت الايدي وأحاطت بحافة الصينيه قبضة بجوار قبضة رفعت
السواعد الصينيه لأعلى وانطلقت الحناجر معا فى كورس جماعى

اللهم هنى من اكل .. واخلف على من بسذل
بسر النبى .. والفاتحه

ثم تفرا الفاتحة بصوت عال مدو شبع متجشئ .. وفى
المطبخ السنة النار تعلق قيعان الحلل السوداء والنساء قابعات فى
الأركان كأنهن راقدات تحت هذا الصوت الوحشى فى استسلام .

انطلق عبد العزيز خارجا من باب بيت الخدمه .. البيوت
القائمه على اضلاع الباحة منقطة بأضواء الشبايبك ضحكات النسوة
وتناديهن فى العتمه هسهسه حليهن وذبول ضحكاتهن المفناجه ..
لمح طرف رداء الفتاه الطنطاويه التى يعرفها يبرق تحت شرخة ضوء
تشق عتامة بئر السلم فى المنزل المقابل ..

البنت تتنفس في الركن ، تنفسها المسموع يشده بقوة ذراعه
يتقدمان جسده كقرني استشعار ، ارتطم كفاه بالحائط الخشن
ضغط بجسده وسادة جسدها المكونة على الحائط ، دس فمه في
فمها المفتوح ، أسنانه تصطك بأسنانها ، شفتاها وسادتان من نار
صغيرتان طريتان ترقصان في فمه كأفعوين يمرغ وجهه في وجهها
وقد تلوثت الشفاه الأربع باللعب يكاد يقتلع شعرها من رأسها وهو
يشدها إليه يريد ان يحتوى جسدها الخاطيء الساخن بالاثم ..
لكنها انفلتت من تحته هاربه .

تبرطشت جبهته بالدم كانت قد ارتطمت بالحائط حين انفلتت
الفتاه مسح الدم بكفه ، كفاه ايضا دميتا من خشونة الحائط ..
عيناه اعتادتا الرؤيه في الظلام .. هناك تحت السلم رجل وامرأة
يشد شعرها ويدفن وجهه في رقبتها ، عبد العزيز يتأمل ذاهلا ،
العايق والجازيه .. كتم صرخه كادت تخرج من صدره قام العايق
يسوى هدومه ، جرى قبل ان يدركه العايق يمارسون الجنس في
جماعه كقطع الارانب .. انطلق يجرى الى الباحة هسهسات
الفوايش وذبول الضحكات وتنادى الطنطاويات من الشبايك ،
مربعات الضوء المعلقه على الحيطان في العتمه ومن شباك بيت الخدمه
ياتي ذلك الصوت .

اللهم هني من أكل

واخلف على من بذل

سر النبي والفاتحه

بسم الله الرحمن الرحيم ...

أى زواج بين هسهسات الحلوى المرتجفه والتنادى المغناج وهذا
الزعيق .. قفز درجات السلم هاربا .. ومشى في شارع سيدي
مرزوق ، عشرات من بيوت الخدمة الشبايك في الأدوار الأرضية

مفتوحة على ردهات مزدحمة بالناس الوجوه والطواقى الأيسدى
والأكثاف طقطقات التمتع وصفق الملاعق فى الصحن وضحكات
الأمعاء الفرحانة ..

مشى عبد العزيز مسرعا .. والأرصفة على الجانبين مزدحمة
بحلقات الجالسين حول نويات من نساء لحيمات ثقيلات المعاصم
بدمالج الذهب يضحكن عن أسنان ذهبية تاجرات الحشيش ، أمام
المرأة الوابور وعدة الشاى ودلاء الماء مليئة بالجوز .

الناس نهر يسيرين دفتى الشارع الآف الأقدام تصك الأسفلت
فى اضطراد ، خفيف مصمم عنيد يسير تقيسل الوطء بلا تردد
والوجوه مشقوقة بالضحكات .

— الى أين يا ناس .. يا قومى .. الى أين

كانما حيوان خرافى الحجم غريب الشكل يستطيل جسده فى
شوارع المدينة ، يسير لا يلوى على شىء ، واسع العيون بالبلاهة
لايسأل ، خواره يصدر من أعماق مجهولة يهز الأرجاء فى رتابة وهو
يمشى يسمى نحو هدف غير معروف ..

البيوت العالية على الجانبين واجهاتها معتمة تنقسمها مربعات
الشبابيك المضاءة حيث تتكدس النساء ..

الضحكات الناضحة بالجنس يود لو يعتصر الرقاب الناعمة حتى
الاختناق المدينة الماكرة الناعمة بالغنج والزواق ..

الشارع مسقوف بقبة من الغبار المضاء ، مشى ضائعا فى غابة
من الأجساد ، الرجال والنساء والعيال ، التجار على الجانبين
أذرعهم ممدودة أمامهم على البنوك فى قنوط ، لا أحد يشتري .
فقط يمشون فى الشوارع وينظرون اشتروا أمس مساء ، وقد
يشترون غدا لكن تلك هى الليلة الكبيرة .. أسطح البضائع الملونة .

اللامعة تناضل بآلاف العيون البراقة ضد ذرات التراب التى تتساقط عليها فى اصرار والجمع يسح فى الشوارع كرزاذ لا ينقطع خفيف الأقدام متصل بلا هواده .. وهو يمشى ..

دخل مع الجموع تحت قنطرة سمود نفق طويل مظلم من فوقه تمر القطر كالزلازل أصبح المسار ضيقا فتكاثف الزحام ، أولاد طنطا يطلقون الصفافير .. فترن فى جنبات النفق تثر ازيزا ، العساكر على ظهور الخيل ينوشون أطراف الحشد بخيزرانات مذعوره .. زلازل القطر العابرة .. لكن خفيف الأقدام لا ينقطع ، الحشد السائر يملك جلال النهر لا تعوقه خبطات تهز سطحه .. انتهى النفق ليبدأ مهرجان الضوء والغبار وضجيج الميكروفونات .. مساحات شاسعة من الأرض الزراعية كانت مزوعة قمعا ، أخليت من أجل المولد وامتلأ الامداد الشاسع خياما .. كل شيخ طريقة نصب خيمه لا تباعه وأقام على واجهتها لافتة كبير تحمل اسم الشيخ وطريقة ومن أى القرى جاء ، وفى كل خيمة مكرىء أو مطرب أو قارىء سيرة أو شاعر شعبي والميكروفونات المنصوبة على ظهور الخيام كأنها خطباء خرافيون .. يتصايحون بأصوات هائلة فى البرية ..

دخل عبد العزيز الخيمة .. البنت واقفة على نصب عال وجهها كقمر معتم ملفوف بطرحه بيضاء وأعضاء التخت جالسون عند أقدامها والآلات تثر فى أيديهم كدناير حمراء مسومة ، شيوخ يلعبون حواجبهم ووجوههم تضحك فى خبث ، عيونهم منفصلة عن الأيدي التى تعبت بالآلات .. والبنت تغنى بصوت مبجوح حزين .

– يا ظالمنى .

والحشود الواقفين أمامها يصرخون .

– آى والله .. يا ظالمنى .

الميكروفون يزعق يريد أن يمزق سحابة الغبار المضىء المحلقة
فى السماء •

— لو جتنى فى منامى يوم يا ظالمنى •

وصدرت عن الخلق الواقفين صيحات اعجاب مدوية •• والبنت
أغمضت عيونها فى استسلام ، ود عبد العزيز لو ينتزع ثوبها ،
يعرى نهودها يتشبث بخصلات شعرها وينظر فى عيونها بامعان ••
وقارئ السيرة مجنون على الدكة يرقص ويقفز يصارع خصما
وهميا •

السيف يقول للنبي ••

يا زين ودينى ••

وبلحم كافر يا زين ••

هيا غدينى ••

والحشود الجالسة أمامه على الأرض تتفزز من الجنون •

— آه يا نبي •• يا نبي ••

والطرب الشعبى مفتون بذاته •• آمال طربوشه ووضع كفه
فى طوق جلبابه وهو يهز أكتافه تيبها ••

والكحل ربانى

عبيون حبيبى غسل

والآف الحناجر ••

— يا حبيبى •• الله يطول عمرك يا شيخ تانى ••

والرجل يميل رأسه محببا فى كبرياء ••

وسط حقل الخيام الشاسع يمر طريق كبير على جانبيه نصبت
السركات والمراقص والملاهى ، النصابون ولاعبى الثلاث ورقات
والرجل العجيب الذى يدور بموتوسيكله الطائر داخل كرة هائلة

من الحديد ، العجل الذى له رأسان .. الرجل الذى بلا رأس على
الاطلاق .. الفتاة الكهربائية .. الست صفية الاسكندرانية
وفرقتها .. أحمد الكسار المنولوجست العجيب .. خيام هائلة من
الخيش والخشب ودكك عالية منصوب أمام هذه الخيام يعرض
عليها عينات مما يجرى فى الداخل الطبل والزمر والراقصات فى
الفساتين الصارخة الألوان والوجوه الغارقة فى الطلاء .. والمعلمة
السوداء اللحيمة جالسة الى بنك عال تصرف التذاكر وأمامها درج
متخم بالنقود تنظر الى فتاة واقفة أمامها تترقص ..

- اطلعى يابت فوق .. خدى خمسة وعشرين قرش أهم ..
جمعة مولد اكسبى لك قرشين .. اطلعى عالدكة هزى نفسك
ساعتين وخالصين ..

والنداءات تنصب على الناس من الميكروفونات ..

- حود يا راجل شوف يا جدع .. هنا مروض الوحوش
المرعب ..

الضجيج والمشاهد الصارخة تنجح فى اجتذاب أطراف الحشد
السائر ، يقفون أمام الدكة الشاهقة ينظرون ويتجمعون ويتجمعون
وتمتلئ بهم الخيام الضخمة وفى الداخل على خشبات هذه المسارح
تتقافز أمامهم هؤلاء الناس فى ملابس من كل شكل حركات زرية
ووجوه ممسوخة « وتخور » أسود جبانة كالبقر ويخرجون من هذه
الخيام قانطين ليواصلوا السير ، السير الذى لا يكف ولا ينقطع
والعساكر على ظهور جياد الحكومة أو راجلين يقفون على الجانبين
وجوه ريفية فى حلل من الكاكي كأنما يودون لو خلعوا هذه الثياب
وساروا مع الحشد لكنهم مشددودون بخيوط لاترى كالدنى الى
خيمة القيادة .. ضباط مسنون جاهمون ينظرون يائسين الى
الكتل التى تستحيل السيطرة عليها ، قد تصدر الأوامر وتنهال

العصى ويصنع الذعر دوامات ، لكن الفتوق التى أحدثت فى ذلك
الجسد الانسانى تلتحم ويبقى العساكر مهتاجى الوجوه حاثرون ..
كيف يمكن السيطرة على مارد خرافى ممدد على الأرض يتلوى فى
حركة دودية ..

ومرة أخرى عبر النفق المظلم عائدا الى شارع السكة الجديدة ،
موكب أبناء المحلة الكبيرة ، غابة من الكلوبات ، كلوبات هائلة
الحجم يتفرع الواحد منها الى شعبتين أو ثلاث الرجال يحملون
الكلوبات الضخمة ويسرون لا يلوون شيئا ولا يهتزون بالأذكار
فقط يحملون هذه الكلوبات ويسرون ..

دخل وسطهم دون التفات ، وش الكلوبات والضوء الأبيض
الباهر والأجساد النحيلة فى الجلابيب الحريرية اللامعة والرؤوس
فى اللاسات التى تتدلى عذباتها وتسرح على الزهور .. عمال
الفلز لا يخرجون بموكبهم فى النهار ، يعملون فى عنابر معتمة
بغبار القطن ومضادة ليلا ونهارا فهم لا يعرفون ضوء الشمس فى
وجوههم الشاحبة شراسة وتصميم ، ينفثون سجائر الحشيش
ويخبون فى الجلابيب وسط غابة الكلوبات والطنين زحمت رائحة
الحشيش خيشوم عبد العزيز .. رجلاه ثقيلتان مشى مسلما نفسه
للأشياء تجاوزه الموكب ومشى أمامه كحزمة أقمار ساخنة وهو ينظر
غارقا فى الزحام حوله ..

لكنه غرق فى موكب آخر ، صفان من الراقصين فى يد كل طلبة
صغيرة يجلبدها بلسان جلدى ، أصوات حادة قاطعة على بحات
صوت الراقصين المجنونة صفان من الفلاحين يرقصون بجنون صفان
عرقانان والشيخ راكب على فرس هزيلة مآكر الوجه يحوطه البيارق
الشاهقة الملونة فى أيدي الرجال .. الخطبات المسعورة فى رأس
عبد العزيز ، يكاد يقيء تعلقت ثملات وعيه بذلك الشيخ المستعلى
على الفرس المسكينة يا لله .. كأنما لكل كيان شامخ مظية ذليلة ،

هذه الفرس أو حمارة الواعظ العجوزة القيئة نفس العيون البهيمية
الدليلة ، تكاد رأس عبد العزيز أن تنفجر ، وعيه يتخدر وينسحب
مع هذا الصخب العارم السائر في المدينة ..

غدا صباح الجمعة زفة الخليفة اجتماع كل الخلق وكل البيارق
وكل الطبول تندفق الجموع تحت الظهيرة وفي مقدمتها (الخليفة)
يرتدى طيلصانة ويمسك عمامته بيده أن تطير ، يضيق شوارع
السكة الجديدة المسقوف بالظلال بهذا الحشد تكاد البيوت أن تميد
على الجانبين من الزحام والشبابيك والشرفات مثقلة بالنساء
المتفرجات تلقين حبات الفراولة وحصى الملح، الخلق كأنه يوم القيامة
الجسد الخرافي الممدد في المدينة يحرك عضلاته الهائلة ويمد
خرطومه ليدسه في مقام السلطان ..

في الصدر، عند منتهى النهر البشرى المتدفق مزروع الجنبات
بمصابيح الكهرباء وجه العروس الباهر الغارق في الزواق، عروس
هذه الرغبة العارمة الممددة في شوارع المدينة .. دقائق من جسد
الريف الاسمر تندفع ارتالا متساقطة الى هذا القلب المضيء، تستطيع
عين المؤمن أن تراه على بعد آلاف الفراسخ بهذه الكمية من
الأضواء .. الريف الغارق في الظلام المشتاق لليل مضاء ، أى قلب
ميكانيكى خرافى القوة يضع هذا البهاء على صدر المسجد
الشامخ ..

انجذب بقوة خارقة الى مقام السلطان .. غارق في الضوء
الابيض تحوطه الحشود جالسون حوله من كل جانب في تراص
لا يدع موقعا لقدم التصق بالنهر المتدفق ، اندفع مع
الارادة السائرة التى تصنعها آلاف الاجساد الماضية نحو مقام
السلطان .. لكن تساؤلا قويا ملحاحا داخل عبد العزيز الى أين
هو ذاهب ..؟ لماذا ..؟ أهى عيون الحاج كريم البنية المحلقة

بالشوق...؟ أهى التى خلقت فيه التوق لأن يرى مقام السلطان...؟
أهى التى خلقت فيه العجز عن أن يرفض رفضا تاما ويقف قائلا
(لا) حقيقة قوية وينطلق بعيدا عن هذا الجموع ..

انحشر الناس فى باب المسجد ، أيدى خدم-المسجد تعمل
بالمقارع فى الناس .. الناس يتملصون وجوه متراسة ، وجوه ،
وجوه ، تكاد تلتصق الخدود والأنفاس والتأوهات والصرخات
لا يمكن أن يفلت ، الجمع يأخذه الى المقام .. الكتلة الزاحرة
بالقوة المتريثة بفعل هذه القوة التى تحتويها وتكاد تنفجر بها لحد
باب المقصورة .. ومقام السلطان ..

كيان نحاس هائل لامع ، آلاف انعكاسات الضوء الساقط من
ثريات السقف تتحوى حول المقام كتلة الخلق ، آلاف القلوب آلاف
العيون آلاف التنهيدات والآهات وصرخات العذاب والهيام ، طاقات
الزهور المشنوقة على شبك النحاس خنقت رئات وريقاتها بالأنفاس
الزاحمة .. الناس متلاصقون تماما كأنهم كتلة لحم واحدة بالآلاف
الرؤوس تلتف حول المقام من شبك النحاس اللامع ، جسد واحد
يزخر بكل ما يزخر به الجسد من وسوسات غريبة يلتقطها جسد
عبد العزيز المرهف .. فذلك الضوء الباهر عاجز عن الغوص بين
الناس وخلق المسام بين كتل اللحم المتراسة .. هناك تقبع وتتحرك
وتتململ كدودة وسوسات وهمسات لا يمكن السيطرة عليها ..
تسمى وتتحسس وتلتحم وتفرق فى الإبهام .

— مدد يا سلطان ..

هنا البؤرة المحمومة بأشواق تمتد فى دائرة قطرها عشرات
الأميال ، من هنا تخرج دفقات الوجد تتفرغ وتنقسم وتدق تسبح
وتسرى وتمشى فى عروق الريف فى المسك والحارات ومن قيعان
البيوت فى المنادر المضاءة بالفوانيس ، عبد العزيز فى ذلك الفرن
الساخن دائخ يكاد يقيء .. جفونه ثقال الحاج كريم واقف فى ردهة

بيت الخدمة قرير السرور يشير فتتحرك الصواني وينطلق طوفان
الشبق والتمطق الملتذ ..

خرج الجمع بعبد العزيز محمول على أكتاف قوية متزاحمة ،
طول عمره محمول على هذه الأكتاف تأخذه فى مسارها الذى تدقه
فى الأيام بملايين الأقدام المتشققة والأحذية المتهرئة عاجز تماما عن
المقاومة ..

إمام باب المقصورة نصب الذكر ، صفان لا آخر لهما المسجد كله
يهتز من جلوره من دق الأقدام وصوت بحات الحلق ، وقع مدوى
هادر ساخق لا يناقش ، لا تردد أزاءه ، يستلب كل رجوع مخالف ،
يطارد الهمسات والهسهسات بحات قلوب جاءت من أقطار الأرض
وتجمعت فى شلال هادر من الأصوات الانسانية يجتاح الصخور
ويحفر بيد فولاذية هائلة ..

الصفان يقفزان ويدقان الأرض بأقدامهما ، قلب طنطا ذبيح
تحت هذه الأقدام العريانة ، جسدها المصنوع من آلاف المنازل
القديمة والحارات الملتوية والشوارع المزوقة ينسحق تحت الكيان
اللحمى المدمدم ، لا مهرب من هذا الرعد الذى يمد أذرعه فى كل
الجنابات ويمشى فى أرجاء المسجد فى كل اتجاه .

بلاط الرخام مفروش بالناس جالسون جسد بجانب جسد
تنتزع رجلك من بين جسدين لتحشرها بين جسدين آخرين وتظل
تخوضى رمال الناس متجمعين دوائر حول وإبور جاز يوش وإناء
قهوه ضخم وقراقيش ودقه ورجال معمون بأشكال من العمائم
حمراء وخضراء وبيضاء ، يبذل الطعام والقهوة بسخاء ، ملايين الافواه
تأكل وتشرب وتدخن بلا انقطاع أشكال عن الوجوه تحت العمائم
الهائلة سراويل الحديد وسيوف الخشب والمسابع الكبيرة والصرخات

والتراتيل والادعية لكن بحة صوت صفى الذاكرين شاملة مسيطرة
شامخة فوق الرؤوس .. وعبد العزيز يبذل كل ما فى طوق اراده
انسانيه لكى ينفصل ويعلو ويقول (لا) لكن لا جدوى ..

مقرعة خفيفة على كتفه ، ضربه هينه ، التفت ليجد ازاءه وجهها
مشرئب الأنف لامع العينين يضحك فى تحد ساخر شامخ حنون ويمد
يده بحركة مسرحية •

— ولع لى

لم يكن معه سيجارة ليشعلها ناوله عبد العزيز سيجارته كالنوم
ضحك الرجل منتصرا ضحكه تدعو قلب عبد العزيز ليحلق

— الله يولع قلبك بمحبة السلطان

وانطلق ضحكه مجلجلا وهو يشق طريقه بين الجموع وعبد
العزيز يتأمل اكتافه التى تساق حركة اقدامه الماهره الخفيفه حتى
غاب ..

تذكر سميرة بقوة رنت فى داخله ضحكتها الرائفه النقيه
ونناياها اللامعه الصحيحه وعيونها المشرقة دائما .. لكن قلبه ثقيل ..
مشى خارجا من المسجد دلف الى الشارع من باب جانبى •

حتى فى الحوارى الضيقة المظلمة كان يرى اشباح الريفين ،
يسرحون فى دورة المدينة الدموية حتى الشعيرات الدقيقة وحلمات
الأعصاب ، الريف آلاف لف الأزرع حول جسد المدينة واحتضنه
وسرب انفاسه الى رثتيها فى لثم متواصل اكيد .. مشى .. مشى •

فى الاركان المعتمة نصبت اخبية الخيش ، صناديق يتفجر الضوء
من خروجها ابيضاً باهرا ، فى الداخل يتكدس الريفيون وينحبس
ضوء الكلوبات الباهر والدفوف والطبول والسباسب اكواب الشاي
السوداء عواصف الجوز تنطلق من بين الشفاء ، عيون تجار

الحشيش تبرق فى الاركان ، زار فوى الضربات يذبح القلوب ،
وعشرات القلوب تتقدم للذبح والبنت شاحبه تحت الطلاء الثقيل
الصناجات تطير فى محبس صندوق الخيش كعصافير ، الترتير
والبرق على جبينها يخطف البصر ، ثنيات جسدها فى ثوب الحرير
الأصفر ..

— مدد يا سلطان

خرج الى الحارات المعتمه الساكنه اطراف المدينه المظلمه التى
تقصر عنها وقده الكهرباء المتلاثنه فى القلب ، الكلاب والمومسات
ومخبرى البدليس ، امتلا خياله بصورة الحاج كريم مشوق العينين
على الطريق الى المحطة ، تلك هى المدينه التى يطير نحوها قلب الحاج
كريم وعيونه البنية الهائمه ..

— أنت هناك

صبيحة تسقى الظلام كفرقة السوط ، تساؤل صارم قاطع
كالاتهام الحاسم الذى لا يدفع ، أحس — عبد العزيز بأحاساس
الفريسة يريد أن يهرب يلتئم بالجسد الهائل السائر باقدام ثقال
ترج المدينه شوارب الصراصير المخبؤه تحت البلاطات رفعت رؤوسها
من العفن واقبلت عليه تهاجمه يكاد يختنق ابله زجاجى العينين
كالخروف الذى ذبح أمام باب الخدمة .. جرى باسرع ما يستطيع
حتى لا تفتقرسه الخيزرانات المشرعة لأعلى جرى حتى انتفخ كبده
وعميت عيناه بالمجهود ..

· بدأ يصعد درجات السلم الى الباحة أمام بيت الخدمة مهدهما
مسحوقا ، والحاج كريم واقف فى الصدر عباءته سابعه على جسده
المكين .. يستند على عصاه وعيناه جليلتان بالصفاء والرضى وشفتاه
تهينان بالتراتيل المبهمة والرجال على الحصر مجهدون اثر جولات
الذكر فى الليلة الكبيرة ، زحام هائل من الذاكرين المجتهدين يمسحون

العرق في المناديل وذبول الجلايب صوت محمد كامل يجلجل يقترح
الفواتح للاخوان والصحاب والشبابيك مزدحمة بالنساء المتفرجات
وضحكاتهن الطائره .. وجاءت الصواني محملة باكواب القرفة
الصغيرة ودارت على الناس ودار السرور والزياط .

والحاج كريم واقف في مكانه شامخا يتأمل ما حوله في سرور،
عبد العزيز يتطلع الى أبيه لكنه لا يدري لماذا يذكره مكان الحاج
كريم بموقف عنقرة العبسي في كتب السيرة اذ نصب جدته الميت
على فرسة قبالة الاعداء ، فظل هيكله المنصوب يلقي الرعب في
قلوبهم أياما .. حتى استفتزت الفرس وقفزت وانهار الهيكل
الجليل ..

رجال الخدمة كلهم يتكلمون في نفس واحد ويضحكون الكل
متكلم ومستمتع وضاحك في نفس واحد والشيخ جالس على حشيته
يبتسم في رضى صانع القهوة يسلم سمعه لوش الوابور العايق
يكرج بالضحك ويكشف من اسنان أهلكتها الكيوف والعراقي
يتلفت حواليه ويضحك بلا معنى واحمد بدوى يسأله عما يضحكه
ويشتمه ومحمد كامل يبتسم في رضى ..

والنسوة بجوار البوابير الهامدة والحلل الفارغة رشيدة تبتسم
وتحكي عن الطبخ وكيف شرب هؤلاء الناس ترعة من الملوخية وامرأة
محمد كامل أو مطلقة محمد كامل واسعة العيون بنوع من البله
لا تكف عن الثرثرة بالوان التساييح والصلوات على النبي .

وفي الغرفة الأخرى العيال والبسات و « سميره » بينهم
ضاحكة تعابث البنات الريفيات وتضحك من قلة معرفتهن ..

والحاج كريم جالس على خشبة وسط الصالة وحوله الناس
- كل سنة وأنتم طيبين ياولاد

فرح طيب دمت وهم يحيطونه باطار الابتسام والوجوه الفريرة
لكن كيف ينامون هذه الليلة ..

- حصير الصيف واسع ياولاد .. كل واحد يميل مطرحة

هو أيضا سينام حيث ينتهى به المكان يطوى ذراعه تحت راسه
نام عبد العزيز يتأمله وهو يجذب آخر أنفاس سيجارته ..

ودون مقدمات حى أحد الناس عبد العزيز من ركن قصى
- كل سنه وانت طيب يا سى عبد لعزير

وعبد العزيز لا يعرف ما الذى فجر فى صدره سسخطا عارما
اجنا ، ربما أرتال الرائحة النتنه من المرحاض ربما جموع
حشرات وقد بدأت تشرئب شواربها من الشقوق بعد أن هدأت
ركة الناس لم يكن يدرى سر سورتها المفاجئه لكنه أحكم السيطرة
على نفسه متصابرا وصوت الرجل يسر سب الكلام كالنعيق ..

- كل سنه وانت طيب ياسى عبد العزيز .. المولد السنه دى
ان ماشاء الله .. حاجه عمرها ما حصلت .. مدد يا سلطان ..
الخلق ايه أمم .. أمم

لم يعرف عبد العزيز كيف انفجر ، لكنه كان أعمى بفضب
عالم ..

- أمم من غير عقل .. من غير تفكير .. أمم بتدوس زى البهايم
.. متس عارفين رايحين فين .. متس عارفين جايين مينين ..

كل كيانه يصرخ صرخات ترن فى بيت الخدمه شدهت الوجوه
خرست كل اللسنه تعلقت به الابصار والافواه مغفوره وفى
العيون ذلك الذعر الذى تصنعه كلمات الواقع حين يصرخ فى
الناس ، انتابه الخوف وبردت اطرافه لكنه استمر فى الصراخ ..

- بتعملوا ايه .. رايحين فين .. جايين متين .. ياعباد
الأصنام

ارتجف صوته لكن بقوة خارقه منع دموعه من الانهيار وجه
الحاج كريم قائم السمره ينظر اليه بثبات ويتكلم بقوة عارمة .

- ناسك .. أهلك .. بهائم يا عبد العزيز .. خلق الله اللى
جايه من آخر الدنيا فرحانه .. خطوتهم ينهز لها العرش .. يا جاهل
.. وسع من طريقنا .. ابعد عننا يا بولباس نجس .. ابعد
لا تدوسك الرجلين وتسويك بالأرض يا كافر ..

انتهى عبد العزيز تماما كأنما هو راقد وملايين الأقدام تدوس
صدره ووجهه وتسحق مخه واحشائه وتخلطها بالتراب ، هو ميت
قاعد .. وصوت الحاج كريم متهدج الى درجة البكاء ..

- عباد اصنام .. ؟ !! الله يلعنك .. احنا قلوبنا مليانه بمعبة
أولياء الله ..

وانتشرت الهمهمات ومصمصات الشفاء فى الأركان
- لا حول ولا قوة الا بالله

- اسكت يا حج كريم .. اسكت

- استغفر الله يا راجل .. ما تلعنش ابنك

- لا اله الا الله .. لعنة الوالد وحشه .. غضب الوالدين من
غضب الله ..

- ساعة غضب .. اللهم لا تسمع

- ولد طيب .. لكن الشيطان شاطر

وعلى خليل فى الركن القصى اصفر كاوتى والعايق ذليل
الوجه ككلب واحمد بدوى ينظر الى عبد العزيز دون تصديق ..

وعيون محمد كامل تسبح بالدموع .. يرفع يديه ومن خلال
دموعه ..

- الفاتحه يا رجاله .. الفاتحه ان ربنا يهدي عبد العزيز ابننا
وبعد عنه الشياطين ..

اغضت العيون وبدأت هسهسه القراءة ، الحاج كريم يقرأ
رافعا يديه فى ابتهاج ، انهمرت دموع عبد العزيز بلا حساب مشى
بجرجر نفسه مبتعدا ..

بدأوا يتساقطون يفرش كل واحد لفاعه ويطوى ساعده تحت
رأسه وينام رجال ونساء واطفال بلا تمييز وبدأت الضجة تخبو
رويدا رويدا .. عيون قليلة ساهرة وثمالات احاديث متباعدة فى
الأركان والحاج كريم يدور بسوى مراقد النائمين ويقضى الحاجات
ويرشد السائل ثم يجلس متهاككا يمتص آخر انفاس سيجارته ..

دخل عبد العزيز غرفة العيال، ابعد جسدين ونام بينهما ، طوى
ساعده وأراح رأسه .. ثمالات الحديد فى أرجاء بيت الخدمة حزبه،
لأنوم .. دموعه تسح .. تساقطت الكلوبات واحدا وراء الآخر حتى
ساد الظلام أنفاس الخلق الرتيبه دبب حشرات الليل .. وهولا ينام
كانما هذه الحشرات تمشى داخل دماغه لا نهايه لهذا العذاب لا نوم
مع الوحزات فى داخله ، جسده مجهد لكن رأسه يقظه بشكل
كامل .

بدأت الغرفة تستضيء بضوء باهت خابى ياتى من شقوق
الشباك رأى وجه سمرة بجوار وجهه ، تبتسم فى نومها . حلوة ،
طفلية الوجه ، أحبها من شفاف قلبه ، تحدثت دموعه ساخنة ،
قلبها بشفتين مرتجفتين ، قبلها فى فمها ، أنفاسها رتيبه ساجيه ،
تأمل صفاء وجهها ، .. لقد عرت نفسها من حرارة الغرفة أول مره
يرى جسدها عاريا هكذا ، خمري ساج اللون فى هذا الضوء

الكأبي ، جسد متميز ممتلىء متناسق رفيق ، ضمها اليه
طاوعه جسدها النائم ، وضع رأسها على ذراعه وضمها اليه أكثر ،
ملتصقة به تماما بشغف عميق مد كفه تحسس بطنها العاري
طرى ناعم دقات قلبه تسرع قرب وجهه من وجهها ليقبلها ، ثم فجأ
فتح عينيه كانت تنظر اليه بثبات والدموع تنهمر من عيونها ..
انتهى كل شيء .. سقطت يده ، تحول الى لوح ثلج ، قام متثاقلا ينقل
رجليه بين الأجساد النائمة حتى خرج من باب بيت الخدمة ، رؤوس
تفزع تنهض تنظر اليه بعيون مستفهمه يتجاهلها فتعود الى النوم ..
الشارع ناعس مصابيح متباعدة مومسات يتسكعن في الأركان مخبرو
بوليس يسرون بنشاط كنسمات فجائية عساكر الدرك يتمشرون
في عناء ..

وفجأ اندفع سكير طويل مقوس يسير متخططا ويصرخ بأعلى
صوته

— يا داهيه دقي .. حوشوني يا خلق هوه

وخلفه بضعة عيال مشعتى الشعوى يلبسون ائمالا غريبة ،
لصوص وجامعو أعقاب سجنائ يطاردونه بالحجارة تتساقط عليه
كالطر .. وهو يصرخ مستغيثا بأعلى صوته فى لمحات انقض عليه
المخبرون والعساكر بالمصي وكعوب البنادق حتى سقط فى مكانه .

الوداع

أصبح الشرود جزءاً من طبيعة عبد العزيز ، ينزل عما حوله
يفرق في تصوراته ، لكنه يفيق كل آن على حديث أبيه مع ابنة
خالته حبيبه •

— سوق اتنصب •• الى كسب كسب •• والى خسر خسر ••
ربنا يطلعنا منها على خير •

— بدرى يا حج كريم

— جوار ربنا أحسن يا حبيبه

— بس الفراق صعب

الموت هو النتيجة النهائية للصراع بين عوامل البقاء وعوامل
الفناء •• حقيقة صغيرة وثابتة وأكيدة •• فلماذا الألم ؟ لأزال في
صدر عبد العزيز قلب ذلك الطفل الصغير الخائف والعيال متكومون
على ظهر القرن حول اختهم الكبيرة والمصباح عين ساجية مرسومة
على الحائط وكلاب القرية جميعها تقيم مناحة هائلة في جوف الليل
وتقول الأخت الكبيرة هامسة

— الكلاب ماسكة •• لازم حد حيموت الليلة دى

فان عزرائيل اذا الم بالقرية لا يراه الآدميون وما تبصره الاعيون
الحيوانات •• ويتسم عبد العزيز للذكريات القديمة

الحاج كريم يتأمل ما حوله بامعان شديد ، الكنبات التى بليت
اكتبتها ، البساط الباهت ، الآلة القرآنية •• ينظر للأشياء
في الحجرة القديمة محدقاً كأنما يراها للمرة الأخيرة ••

المادة لا تغنى ولا تخلق من عدم لكن اذا مات الحاج كريم فانه سوف يفنى فانه ليس حالة من حالات المادة انه جوهر فرد ، انه الحاج كريم . عبد العزيز يحبه كما لم يحبيه ابدا .

لكنه يا للأسى ، الحقيقة العلمية خالية من الشعر ، بسيطة وقاسية عرف عبد العزيز كثيرا . . تعذب أكثر ليؤمن بما يعرف لكنه لا يستطيع أن يجلس على الدكة فى ردهة الدوار وحوله الرجال منصتون . . وجوههم مضاءة بضوء الفانوس وهو يصفق باطن قدمه ببسطة كفه ، يحكى والرجال حوله مشدوهون .

فرغ الحاج كريم من فنجال القهوة وما عاد الا السلام والوداع - ابقى تعالى يا حاج كريم . . كل ما تزور السلطان ميل على - ان كان فى العمر بقية يا حبيبه

- لو كان بايدى كنت جيت لك كل يوم

- طول عمرك وداده يا حبيبه

كان الحاج كريم حكى لعبد العزيز كيف كان طفلا صغيرا يجلس خائفا على مصطبة الكتاب يتلو قصار السور مع كورس الاطفال الخائفين من عصا الشيخ الطائفة فى الهواء الواقعة على اجسادهم تستحثهم على مزيد من الصراخ . . وحكى ان عينيه دائما كانت على باب الكتاب تترقب مجيء حبيبه ابنة خالته ، تاتيه كل يوم فى جلبابها المورّد وشالها الأزرق والصرة الصفيرة فى يدها ، تستأذن الشيخ وتأخذ كريما فى ناحية ، تفرد صرة الطعام امامه تطعمه وتذهب خوفه ، تحدّثه قليلا ثم تتركه راجعة . .

كانت تاتيه كل يوم الى ان زوجها ، ويوم زواجها راح الى هناك ، احتضنته الى صدرها وهى فى ثياب العرس ، لازال يحس حريرها على وجهه ، بكت وضمته الى صدرها ، انفلت من ذراعيها مخنوقا بالدموع وعاد الى قريته ، الى دار ابيه دار كبيرة

مأجدة بالعيال والنساء والبهايم لا يآلف فيها أحدا ولا يآبه له فيها
أحد .. ماتت أمه يوم ولادته .

هكذا تكون الزيارة ، قصيرة دائما لكنها أبدا مشحونة ، نزلا
على السلم المعتم المتآكل الدرجات يستندان على السياج ، لحبيبه
هذا البيت القديم فى طنطا ، ولها أولاد كبار يطيفون بها أحيانا
للزيارة والسلام .. عبد العزيز يسند الحاج كريم من تحت ابطة
كم صعد هذا السلم جريا وهو بعد صبي وكم سار خلف ابيه مؤدبا
والآب يدك الدرجات بخطوة المكين .

فى ضوء الشارع ابصر عبد العزيز وجه ابيه مذبوحا بخططين من
الدموع خجل الرجل لما احس بنظرات عبد العزيز ، مسح دموعه بكفه
وشفتاه ترتجفان بما يشبه الابتسام .

— أنا بعيط يا بنى زى العيال الصغيرة

أرضع كريم الصغير من اثناء نساء كثيرات لكن لبنان الغريبات
لا تبلى حرقه الرضيع ربما كان يبكى حرقته التى لم تبلى أبدا ..
ربما كان يبكى العبرات التى كتتها يوم عرس حبيبه .. لكن عبد
العزيز يحبه كما لم يحبه أبدا ..

مشيا يصعدان فى حارة رطبة ، يتجشنان الحفر التى تكونت
أمام البيوت من القاء الماء القذر اصول الجدران متآكلة تماما حتى
لتكاد البيوت ان تسقط من علوها ، لكنها هكذا دائما ، تبهظ
القلوب باحتمال انهيارها ولا تسقط أبدا ..

شارع سيدى مرزوق خال الا من بقايا ريفيين مسرعون بسلالهم
وعيالهم ونسائهم الى المحطة وعلى ابواب الدكاكين التجار ينظرون
ناحياتهم فى تعب وخوف والعيال يلاحقونهم بالشتائم .

— وسختوا البلد يا بهائم

جمل عمر فرهود الهائل بارك عند أسفل السلم الحجري أنفه
الطويل الضخم المتكبر وعيناه الواسعتان وشفتاه المتهدلتان على
فكه الأسفل فى لا مبالاة وازدراء .. وفى أعلى الشارع جمال أخرى
حملت صحاحير أخرى ومشت تنقل كلاكلا ثقالا وتمضى راحة .

عمر فرهود يدور حول الجمل البارك يعدل العدة على ظهره
ويفرد الحيال ويستوثق من الاربطة واذ يرى الحاج كريم يشرق
وجهه ويقبل مسلما .

- كل سنه وأنت طيب يا فرهود .. تعود له بخير

- وأنت طيب يا عم الحاج

ويصعد الحاج كريم درجات السلم الحجري وثبدا مستندا على
عصاه فى الواجهات الثلاثة النسوه اللآتى بقين هنا سنين وستين
تهدلت الصدور تترجرج خلف شيت الثياب لم تعد الضحكات
مجلجلة مقناجه .

- نهاركو سعيد يا سات

- سعيد مبارك يا خويا .. النبى عليك نور يا حج .. مدد
يا سيد .. البنات الصغيرات كبرت كثيرات منهن تزوجن وتفرقن
والباقيات قلقات لم يعد لهن مكان هنا .. لم تعد هذه بيوتهن يردن
أن يطرن يخلينها لزوجات الاخوه .. ريح الرحيل تهب على كل شيء
الرحيل عن الأماكن العزيزه والحاج كريم فى وجهه أسى الفراق
يخالطه الأمل فى الرجوع مع دورة العام .

- العوده بخير يا أهل الله

- ألف عوده يا حج

وصعدت السلم فتاة سمراء فتيه تضرب على دف فى يدها
أبوها العجوز يتفخ فى سبب

العادة يا رسول الله
العادة زى عمول

ويقف الحاج كريم هنيهة يتأمل فى المغنيه الصغيرة وأبيهسا
العجوز منذ سنين وهذا الرجل يأتى فى هذا اليوم بالذات ليطلب
العادة تأملهما الحاج كريم مبتسما متفائلا ونادى على العايق

— اديلهم يا عايق .. اديلهم .. ربنا ما يقطعناش

ويلا العايق حجره كسرا وقراتيشا ويعطى الرجل العجوز
والأطفال من عيال الحارة يتقافزون ويطلبون الخبز والقراتيش
والحاج كريم يبتسم

— اديلهم يا عايق اديلهم

ويوزع العايق لقما صفارا فى الاكف الصغيرة وهو يسر سب
الكلام

— خدوا .. خدوا كام مره .. مش نخلى حبه للناس اللى طول
مدة المولد مغلبينهم .. هاتى حلتك .. هاتى برادك .. هاتى
وابورك ..

العايق يرتدى نظارة سوداء رخيصة بصره يستلب رويدا رويدا
ولا احد من الذين يدور عليهم يسألهم دواء أو وصفه عرفو لذلك
سببا عيونه تظلمان بعض الناس يقول : لموت الجازيه .. من يوم
ماتت لم تقم له قائمة وبعض آخر يقول بما أكل من حرام .. لكن
عبد العزيز يرقب فناء نور عينيه بحزن

— حملوا يا عمر ، حملوا يابنى .

وانطلق عمر فرهود داخلا الى بيت الخدمة ووقف الحاج كريم
وسط الباحة مستندا على عصاه ضامًا عبائته الى صدره وخرجت

أم طلعت من الباب تحمل كرسيًا ناولته لعبد العزيز قدمه لآبيه الذي
نظر ناحيتها شاكرًا دون أن يتكلم وجلس على الكرسي واضعًا
عباءته على حجره وكفيه على عقفة عصاه ناظرًا إلى الأمام وعبد
العزيز واقف خلفه .. وأم طلعت جالسة على درجة السلم الأولى
فيما يلي باب البيت مباشرة والنساء في الشبايك .. أصوات
تناد أو صرخات عيال لكن ثمة صمت جاثم خلف الأصوات المتقاطعة
صمت مكني لا يناقش كإرضية سوداء قائمة تحمل نقوشًا ملونة
متباعدة .

خرج الرجال من باب الخدمة يحملون بينهم الصحارة الكبيرة
مشوا بها ويديدين ثقيلًا على الأقدام على الأرض ونزلوا بها على السلم
الحجري ووضعوها على أرض الشارع بجوار الجمل المبارك ، وعادوا
صاعدين ساكتين ليأتوا بالصحارة الأخرى وعراقي الأرض يتبعهم
نازلين صاعدين لا يحمل معهم نقط وجهه غارق في الاهتمام وشفتاه
تتحركان بكلمات لا تسمع وعيناه تكادان تقفزان قلقًا .

كدست أشياء بيت الخدمة حول الجمل ثم حملت عليه واثق
الحمل بالجمال وبعد الرجال متحلقين حول الجمل العظيم أطلقه
عمر فرهود من عقاله وصرخ فيه والرجال يهتفون باسم الله والسلطان
ويدلون الجمل بالقباب الأعزاز والتمجيد والجمل لم يخيب رجاءهم
الملهوف في عيونهم فنهض بالحمل نهضتين ثم قام شامخًا رافعًا
رأسه إلى الأماك وفرك الرجال أيديهم مبتسمين وسلم عمر
فرهود على الحاج كريم وقبله بين عينيه .. تندتا بدعة صغيرة
أجهش عمر فرهود بالبكاء ورفع ذراعاه داعيًا .

— يارب أنت الرب واحنا العباد .. الطف بنا

وأبى عبد العزيز أن يسلم عليه من مكانه نزل معه السلم
الحجري ومشي معه قليلًا ..

ذلك الانسان الطيب امرأته مريضة من زمان على فراش صغير على مصطبة وسط الدار ناحلة المعصم تهش الذباب عن وجهها بحزمه من خوص النخيل وابنهما الوحيد ازهرى فاشل يرهقها بالعراك والمطالب .. الرجل يلزم جملة طوال النهار .. لو كان يتكلم لربما كان استغنى عن الناس أجمعين .

رجع عبدالعزيز يصعد السلم الحجري الرجال يخرجون من بيت الخدمة في يد الرجل سلالة وطفلة وخلفه امرأته يسلمون على الحاج كريم ..

- كل سنة وانت طيب يا عم الحاج .. الف عوده
ويتأمل الحاج كريم وجوههم المتحلقة حوله ويتنهد
- أنا خلصت يا ولاد

وتقيم الوجوه بسحابات الحزن
- يا عم الحاج ما تقولش الكلام ده .. الدنيا من غيرك
ما تنسكن
- يا عبيط طول ما فيها فاس .. فيها خير

يسلمون ويمضون يتحدثون على السلم الحجري نازلين .
ها هم آييون في السلال بعض الحلوى ولبة للطفل قلوبهم ثقيلة يتاملون على الجانبين وجوها معادية وفي أدمغتهم التساؤلات اترى خدعوا فيما اشتروا ام لا ..؟ وسوف يظل التساؤل بلا جواب، لا شفاء لهذه المخاوف انها هذه المدينة الغريبة تتركهم دائري الرؤوس منذ فجر غد سيكونون على رؤوس الغيطان اقدامهم غارقة في الطين وايديهم ملتزمة بواطن اكفها من القبض على الفاس والعرق يندى الجبين من جديد دوامة الكدح والعناء لكن لبضعة أيام آتية ستكون ثمة حكايات وضحكات، جلسات على اكوام التراب وعلى المصاطب أمام الدور وحديث عما جرى وكان في أيام المولد ومنذ هذه الجلسات

ستولد بذرة الشوق الى سفر جديد .. بذرة تنميتها أيام الكد
والشفاء تحت وطأة الظهيرة حتى يدور العام وينادى المنادى لمولد
السلطان ..

اتت رشيدته ووقف كسيرة بين يدي والدها
- أنت مروحه يا بنتى

- كل سنه وأنت طيب يا با .. الف عوده .. أطبخ لرجالتك
الف عام

- بنت أبوكى يا رشيدته .. الله يبارك فيك
ويخرج من جيبه ورقة مالية

- هاتى حاجة من السكة لولادك .. أبوكى محمد العايق
هيوصلك انتى واخواتك لحد المحطة ... ركبها يا عايق .
-حاضر يا سيدى

العايق يحتاج من يقوده لكن تلك هى العادة .. العادة التى لا
يريد أحد أن يخل بناموسها ولو فى تفصيل دقيق .. تسلم رشيدته
على أبيها وتقبل يده مرات كثيرة ويعرف عبد العزيز انها ستقضى
الطريق سائحه الدموع ..

الحاج كريم ينظر ناحية المسافرين ساهما عيناه مسافرتان
وراءهم لكنه التفت الى يمينه ونظر مليا حتى ادرك أخيرا أن هناك
محمد كامل واقفا يحمل سلالة وفى يده طفلة صغيرة .. ليس هو
محمد كامل الذى طالما وقف بين صفى الذاكرين طائر الذراعين تتدلى
اكمامه كنبى ليس هذا هو محمد كامل المنصت لحكايات الحاج كريم
ووجهه غارق فى ضوء الفانوس شخص آخر ضائق حتى بمراسيم
السلام يريد أن يخطف المصافحة ويجرى .. تأمله الحاج كريم
مذهولا هذه أول مرة يسافر فيها قبل الاخوان .. يسافر دون
زيارة الوداع للسلطان ..

- خنودع السلطان الليله يا محمد يا كامل

- سألناكم الدعا .. ما ليش نصيب

- مستعجل ليه

- الميه جايه الليله .. عاوز أروى

- خليك لبكره .. كل ناخيره وفيها خيره

- ارادة ربنا

لا محالة مد له يدا يضافحها أفبل محمد كامل على اليد الممدودة
وفى هذه اللحظة فجأة اصفر وجهه كوجه ميت وزاغت عيناه ثم
اندفع ناحية السلم جاريا لا يلقى على شيء .. لا بد أن دموعه تجرى
الآن على وجهه تفكر عبد العزيز ، ألم يكن من حق الحاج كريم ان
يرى هذه الدموع ؟ .. تمن صغير لأيام العمر ، للسهرات والأسفار
والكلام الطيب ...؟

وكانهما مقبوض عليهما يدفعان من ظهورهما تقدما الى الحاج كريم
وخلفهما ابنهما الشحات ، الشركسى النجار عجوزا ناحلا كثيبا
زيتونى الوجه يستند على عصاه وامراته طويلة فحلة جهمة الوجه
وجه الشحات وجه مجنون حاجبه الأيسر يميل على عينه حتى
يطمسها فكه الأسفل هائل مندفع الى الأمام شفتاه رقيقتان مزومتان
وجلده مبقع غريب تذكر عبد العزيز كل ما يقال عن الشراكسة هذا
الشاب بؤرة جمعت كل اشعاعات الخيال .. كلمة عبد العزيز .

- مستعجل ليه يا شحات

- كده

- طب سافر انت وخليهم

- لا

ثم استدار لعبد العزيز كفاه متقابضان خلف ظهره وفوق كتفه
تجتمع عضلات عظيمة تكون ما يشبه الحدة .

مد الحاج كريم يده للمسافرين دون كلام ، كان وجهه قائما
نهض داخلا الى بيت الخدمه أسسنده عبد العزيز
من تحت ابطة احس انه مختنق لا يتنفس بسهولة مغلب مسموم
اعتصر قلب عبد العزيز مند متى والرجل مريض لكنه لا يستشير
طيبيا فقط يسال الاخوان والحكماء ..

- يابا روح للدكتور

- يابنى ما تشغلش بالك .. حاجه بسيطه

البيت خال مريعان كبيران من القذاره المتراكمه مكان الصحارتين
اللتين كانتا مركز هذا البيت تخرج منهما ارجفة الخبز واحفنة
القرايش دون انقطاع للناس ..

جدران الصاله وسخه متقاربة يسمع وقع اقدامهما فى
السكون كأنما يمشيان فى فراغ سحيق .. قبالتها احمد بدوى
وراءه امراته ، صاربها حفايا فى الفترة الأخيرة بعد ان تركهما ابنهما
الى القاهرة سيوصلها بنفسه الى المحطة ساكن الوجه يمر بالحاج
كريم دون كلام يشير له الرجل برأسه ويعمى .

بجوار الحائط يجلس على خليل عيناه بؤرتا حزن
وجهه شاحب شحوب الموتى ، طول عمره يكابد
العلة ، شىء فى داخله ينمو ليهدم هذا الكيان ربما كان ثمة
ادراك غريزى وراء انطلاق كورس الدراويش عقب كل حضرة ..
» اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت انك على ما تشاء
قدير « ..

ادراك غريزى لهذه الكائنات الدقيقة التى هى جزء من حياتهم
والتي تلتهم هذه الحياة يعزمون على حيواتهم العزائم لكن
لا راد للمصير ..

- قاعد لوحذك ليه يا على ؟

قام على متسندا مشيا معا الى غرفة الشيخ جلسا على الحشية
بجواره ، جلس عبد العزيز عن كئيب ..

طول عمر الحاج كريم وسط هؤلاء الرجال وسط خشيش
القماش الخشن .. هاهم حزاني بانسون المستكاوى يسمل حتى
يكاد يلفظ روحه ..

— آه يانى .. رحمتك يارب .. جوارك احسن .

وعباس لا يفتى فى امور الدين يخرج من جيوبه صنوف
الزجاجات الصغيرة ويتأملها ويحدق فيها ثم يستخرج منها بلاييع
صغيرة ويزدريدها، اما صنائع الرقى فهو تمثال شاحب لا يريم، وصانع
القهوة يخرج من جيبه منديلا محللوايا ويمسح عيونه التى تسح
منها الدموع بلا انقطاع ..

— الحمد لله قضينا أيامنا على الاعتاب ..

وخط الشيب رأس الشيخ متكئ على حشيته سارحا صوت
حبات مسبحته يعمق الصمت ..

سمع صوت صديقه المخبول ..

— مالناش فى نفسنا حاجه .. نعمل ايه .. نعمل ايه ..

حل الصمت بلفتوا الى بعضهم صامتين اخرج صانع الرقى
قلمه وورقة صغيرة وكتب رقيه مديد بها للشيخ باركها وناولها
للحاج كريم ربما هذه اول رقية مجانية يصنعها هذا الرجل فى
عمره .. اخذها على خليل الذى لا يكاد يقوى على القيام ..
خذاها من يد الحاج كريم وقام الى صديقه اخذها من معصمها ،
وخرج بها ربما يطيف بها حول مقام السلطان ثم يركبها قطار الى
البلد .. كانوا ساكنين ودموع حسن افندى تسح بلا حساب ..

اجتمع شملهم جميعا بعد ان أب احمد بدوى وعلى خليل، جلسوا جميعا ساكنين الثلة الحبيبة .. تطلع الحاج كريم بعيونه البنية المشتاقة ..

— أن الاوان يا عمى .. تقوم تودع السلطان .

— ايوه يا حجاج كريم .. انشاء الله ..

قام الشيخ سوى جلبابه وأخذ عمامته الخضراء من الشباك وحبكها على جبينه ومشى وثيدا خارجا من الغرفة الى الردهة الى الباب وخلفه الحاج كريم وباقي الاخوان فى الباحة التى امام البيت .. وقف الجميع هنيهة وتبادلوا نظرات ساكنة ثم بدا الشيخ ينزل درجات السلم الحجرى والجميع وراءه .

لم يعرف عبد العزيز بعد لماذا تثقل هذه الساعة من النهار قلبه بالكآبة حينما تشحب الشمس وتمتد رقائقها الذهبية على الأشياء ، جماعة الرجال متكسرة الظلال على أرض الشارع تذكره بظلال النخيل امام شرفة الدوار ساعة الاصيل .. يومها رآهم آتين بها من طنطا كان الكل يعرف ماعدا هى .. الكل يعرف أن اليوم ستزوج سميره من شاب من الفلاحين .. وفى المساء كانت تصرخ كلبؤة حبيسة بين جميع النساء فى غرفة دارهم رافضة أن تصرح لوكيل يزوجها لهذا الرجل الذى يريدون يومها بقى ينظر ناحيتها حينما قال لها :

— وكلى ياسميره .. وكلى ماتوفيش الرجاله .. بلاش فضيحه ..

لم يكن يدرى مايقول ، كان فاتر النفس ثقيلنا نظرت اليه من خلال دموعها ..

— طيب وكلت خالى ..

ثم لم تبك بعد ذلك ابدا .. الى اليوم وعرف بعد ذلك انه كان
بوسمها ان تقول طول عمرها لا .. من اجله ..

ظلال الرجال على ارض الشارع طويله متكسره كانهم يشيعون
ميتا تقدم اليه احمد بدوى محاذرا ..

- سرحانه الغزاله اوى ياسى عبد

.. -

- قللى لى ياسى عبد .. لو متنا .. تفكرتفرا لنا الفانحه

- كل يوم

- الله يرضى عليك

اختزنت الارض حرارة اليوم والان تبوح بها انفاسا زخمه
بالوساخه والماء المرشوش امام الدكاكين التجار قاعدون فى كسل
او متنادون عبر الشارع، جرسون المقهى يزرق بالمطاليب القليلة
المتباعدة امرأة تنادى من الشباك على بائع او تنشر ثوبا مبلولا
او تدس يدها فى سلة تاخذ بصلا لطبيخ العشاء فتاة تسرح عيونها
بعيدا لا تقعان على شيء واجهات لبيوت قدبمه فقيرة بالحياة ..

تري اسعيد محمد كامل الآن ام تعيس ، غارق السيقان فى
الطين ملتهب الكف بالفاس وحيد دون الاخوان .. ظهر القرن ملء
بالعيال بعد سنين من الصمت لكن عيون امراته خاليه من الحنان
والمحبه مهمومه بالمعاش .. هل يذكر صديقه .. هل يحن الى مباهج
الطريق التى يجافيهها الان الانسان .. الدم واللحم والعظام
واخلاط العصارات كيف تفرز كل هذه الحيره والالم هل بجهل
كل شيء ام نعرف كل الاشياء ام ان علينا ان نكدح ايام الحياة
كلها لكى نعرف اقل القليل ..

انحرفت الجماعه فى درب الحمام طويل معروش معتم

ملء بصانعي الدفوف ، اكداس من أشلاء الجلد والخشب من
هذه الاكوام تصنع الدفوف خالقة الحياة فى الليالى ، الصناع
متكاسلون يتحداثون ويضحكون قليلا ..

من الدرب تتفرع سكة صغيره تقود الى باب الحمام الواجهه
مزينه بتهاويل تمت الى العصر الفاطمى والباب كتله صاده من
الخشب مزينة برؤوس غلاظ المسامير كم فتنت هذه الواجهة
والباب عبد العزيز وحكايات النساء العواقر وزيارتهم للحمام
بحشا عن الخصوبه وعن الرجال موجوعى الظهور وعن بركة الماء
الهاب السخونه ..

ثمة قبالة الباب الغربى لمسجد السيد البدوى بناء آخر، تحفة من
الرخام يقولون كانت ساقيه تمد الجامع بالماء وكان تدور فيها
ثيران النذور ليلا نهارا، المسجد والساقية والحمام، ماذا كانت جغرافية
المكان فى الزمن القديم وكيف كان الناس والكلام والبيع ربما تلك
الثلة من الرجال يمتون بأرواحهم الى العصر الفاطمى أكثر مما
يمتون الى اليوم .. لكن هذه العمائر السخيفه زحمت الميدان
وضيعت رواءه ..

انفتح الزقاق الضيق على رحابه الميدان ، المقام ، المصاييح
فى صدره بدأت تنبثق فى لمعة الفسق ..
وجهه الحاج كريم طائر كحمامة برية سمراء مشتاقة الجمع
يهتز بالهمهمات والتحية والدعاء .. وعبد العزيز حائر وحيد وهو
معهم لا شئ يهز قلبه بارد هامد يتلفت مكسوبا ..

أحس العايق انهم بازاء المقام هتف مولولا
— يا سيد .. طول عمرى أنور لياليك .. نور عينيا يا بو قراج
الميدان هادى خال تقريبا حجم المسجد المضاء الجوانب بمصاييح
الكهرباء له جلال، وسيطرة ونفاذ شء فى صلادة الجدران ولمعة

الضوء على شبابيك النحاس الهائلة وهم يمشون ويبدون نحو المقام
وجه العراقي منصب على الجامع ٠٠ مخبولا يهينهم بفتات حروف
لا يكون معنى كأنما لبست جسده روح ماردة فهو يرتجف بعنف
خارق رغبة خرافية في الالتحام بهذا البناء الضخم المكهرب ٠٠ كان
وراء الانسانية الخرساء رغبات كهذه جعلتها تمت المدائن على وجه
الأرض .

كان عبد العزيز طفلا صغيرا حينما رأى لأول مرة في حياته
رجلا يطا بساط الجامع لابساً حذاءه، حينئذ أصابه الفزع وسأل أباه
وعلمه الأب أنه طالما كان الحذاء نظيفاً فلا بأس في أن تداس به بسط
المسجد يومها كان هذا الرد مسكناً لكن المسألة ظلت كما هي نمة
من يدوس بسط الجامع لابساً حذاء البللور الشفاف الذي صيغ منه
عالم عبد العزيز شابه شرخ طفيف كبير واتسعت عيونه أصبح يرى
عدداً أكبر من التعلات تطرد صفاء روحه توقعه في التسك والالم
أصبح يستنكف من الدوس حافياً على بلاط مسجد
السلطان الذي توسخ من عشرات الآلاف من الفلاحين . .
لكنه استبقى حبه لهؤلاء ويقوا دائماً هنا ينظرون بطيبة وحب إلى
كل الأشياء .

خلع حذاءه وحمله في يده ومشى وراءهم صامتاً يرفع قدميه
أخرى من البلاط اللزج بالساخة .

لعله سر الإبهاء الشاسعة والعمد القائمة والسقف العالي أنها
تحيل الهمهمات واللفظ والتنادى والتشاحن والترتيل والصحاح تحيل
فوضى الأصوات هذه إلى شيء آخر . . تخلطه كله وتجعله له اصداً
وابعاداً وترداداً ٠٠ تخلق منه صوتاً واحداً جليلاً مهيباً يصيب القلب
٠٠ إبهاء مسجد السيد البدوي أول ما يملك القلب بعد أن يخلص
الداخل من المشى الصغير الذي يلي الباب ٠٠ والذي يصطف على
جنبه حراس الاحذية وصناديقهم ذات الخانات ٠٠ مشوا جميعاً

عبد العزيز يعرف ما يهز هذه القلوب من الأعماق فلكم ذاب قلبه
من جلال الاصداء في المساجد الكبيرة .. شيء في مؤخرة دماغه
يبتسم في حزن ، وداعا لمسرات الطفولة المسرات العميقة ..

هؤلاء الشيوخ على الجانبين يقارعهم خدم المسجد حراس الابهاء
الجليلة العالمون بما يحرسون يخطون الناس بالمقارع خبطات هينة
يقصدون القلوب يريدون تسليما تاما لا يريدون نظرة شاردة أوزائفة
أو فيها جسارة ..

— أذكر الله ياراجل ما تغفلش

ويضيق عبد العزيز بهم يراهم لزجين اكسبهم الطعام الكثير
والظل سمانه مرضية مقززة ويراهم قلقين ويرى في عيونهم شراة
وربما كراهية عميقة لهؤلاء المتدققين على المقام الكهان ثمهم هذه
القروش التي تودع في ايديهم فيسرعون بها الى جيوبهم ..

لكن الرجال لا يلتفتون ، لا يعانون ما يعانيه عبد العزيز
بعضون الى ابهاء المسجد .. هؤلاء الذين عاشوا لآلاف السنين
في أكواخ الطين ممثئين حنينا لروعة الابهاء وروائها .

بهذه اللفة والاقبال والخلوص بهذه الايدي
الخشنة شيدت القباب والعمد والابهاء نحتت المعابد في
صميم الصخر ، خلق الظل الطرى في حميم الصحراء .. وقفوا
هنيهة ساكنين قلوبهم تهر هريرا بالتساييح والدعوات تبادلوا معا
نظرات وابتسامات مسروره ..

— ما شاء الله العظيم

استخفت أحمد بدوى فرحة طفوليته

— الخورنق كان فيه وتلاتين طابق كلها من عمدان الرخام

نظروا له ساكتين الفرحة تزدهى فى وجهه كطفل لم يرد عباس
أن تفوته المناسبة ..

— المساجد جنة الله على الأرض

وعاجله المستكاوى

— دا حديث ولا قرآن ده يا عباس

لكن الشيخ والحاج كريم مضيا فقطرا وراءهما باقى الرجال .

المصراعان مرونان على الجانبين والباب مفتوح على آخره عن
هيكل النحاس البراق المتلالى، فى ضوء النريات الهائلة المحملة
بمئات العيون الباهرة الضوء وقفوا فى فتحة الباب هنيهة خاشعين
ساروا دائرين حول المقام يسكون بشبك النحاس ويمرغون الوجوه
ويبتهلون بالدعوات كان عبد العزيز هنا فى الديلة الكبيرة كادت
جموع الفلاحين أن تخلع المقصورة من مكانها أما الآن فان أشباحا
قليلة تمر متكسرة حولها وهى فى الوسط شامخة مهيمنة متلألئة

مال أحمد بدوى على الركن ثمة صخرة عليها رسم قدمان
هائلان هنا وقف النبي حافيا فلان الصخر له كرامة وقفزت الى ذهن
عبد العزيز بشدة صور الاقدام الغليظة الخرافية للجوابين فى الريف
هذه الاقدام التى تمثل تحدى للمسافة وسخرية من العناء والمشقة
هل يلين لها الطريق وتنسحق تحت وطئها الحصباء، أحمد بدوى
يبحث عن عالمه فيما يرى حوله ذلك العالم الذى اصطنعه لنفسه
من صحائف الكتب الصفراء وكلما وجد شيئا استنخفه الفرح يلثم
الحجر وينظر لعبد العزيز ، لا يدري ماذا فى راسه لكن شيئا فيه
يجذبه ويجيره

جلسو بجوار الحائط فالمغرب وشيك وهم عازمون على الصلاة
فى المقام بهاء المقصورة مسيطر على الحاضرين تماما مصطفىون بجوار

الحائط معلقى الابصار بها ، كل يرتل هامسا بالادعية والتسابيح
لو كان محمد كامل هنا اكان يستطيع أن يجمع اراداتهم على رغبة
واحدة يجهررون بها أمام المقام، اكان يقترح الفانحة لعلة على خليل
الاكيدة العاتية التى تبدو ضراوتها فى التماجة عينيه تمسكهما
المستमित بالحياة ٠٠ أم بصر العايق السليب أم لمرض الحاج كريم
اكان يجلس بجوار الحائط يهمهم وحده بالدعاء .

اصطفوا حول الامام لصلاة المغرب تحت القبة الكبيرة وحينما مد
جار عبد العزيز له يدا للمصافحة بعد انتهاء الصلاة
كان سارحا ، خجل من شروده لكنه سلم على الرجل
فى سكون وحينما بارحو المقام كانت روح الحاج كريم
مازالت هناك وكانت عيناه نديتان بالدموع ٠٠

جمعهم قليل يسرون على أرض المسجد يتلفتون يحملون نعالهم
فى ايديهم ويدبون واهنين عادت عيون الحاج كريم تحقق فيما
حولها بامعان نظرة يعرفها الحكماء من أهل القرية فى عيون الرجل
الميت اعتصر الالم قلب عبد العزيز .

خلصوا الى ممشى صغير معتم، طرقوا بابا فتح الباب شاب صغير
أمرد يطل الأدب والرقه من عيونه ، غرفة شاشعة مفروشة بالحصير
فى الصدر اريكة هائلة يجلس عليها رجل عار الرأس
مرسل اللحية والشعر كأنما هو من أهل السكف عليه
جلنباب وحيد فقير متسخ حالما رأى ضيوفه قام مرحبا

— أهلا بالافاضل

واصر على تقبيل يد الشيخ

— بضعه من رسول الله ٠٠ بضعه من السلطان

وكلما ذكر اسم السلطان قمص وتثنى كأنما برزعود من الحائط
من ناحية المقام وغمزه فى جنبه، كان شيخا فى المعهد الدينى الثانوى

فى طنطا لم استغرقه حب السلطان وحرفه عن عمله وبيته وانهى به
لان يعتكف هنا ..يجرى عليه من اوقاف السيدرزق قليل ويخدمه
فى عزلته هذا الشاب الأمرد الرقيق ..

فيه جلافة وخسونة وطلاقة أسرته أقبل عبد العزيز على حديه
بشغف، شخصية خرافية انطلقت من جوف الكتب الصفراء، فصنح
البيان واضح العبارة كنبى مسيطر ينبش ويهيل عليك تلالا من لون
خاص من المعرفة يبهرك عمقه وذواقه وعاطفته وصفاءه .. احمد بدوى
يكاد يطير فرحا لكن عبد العزيز بدأ ينصرف من حديثه رويدا رويدا
ويراقب هذه القمصنة ينتظرها ويضحك منها فى نفسه لولا هؤلاء
الرجال لكرمع بالضحك لكن كيف وهم حول الرجل غارقين فى
الانبهار ..

خرجوا الى الميدان مرة أخرى رحب قليل العابرين والمقاهى من
حول مشحونة من داخلها بالضوء وبعض الرواد مشوا ينظرون
ساكتين .. ماذا صنعوا بشوارع السكة الجديدة .. هدموه .. وانشاوا
مكانه شارعا واسعا، بقروا بطن الرواء القديم ، لازال يذكر صفى
الدكاكين القديمين وسقيفة الظلل الممدودة من الجانبين على واجهات
الدكاكين للشارع عتامه وانفلاق حميمين هدموا كل هذا أصبح
مفضوحا للشمس بنيت على الجانب المهدوم عمائر صغيرة سخيصة
قميئة .

كانوا يدرجون من المحطة الى المقام فى شارع مستقوف له عير
يرقق النفس .. الآن يتلفتون فى عراء غرباء عن الشارع تجار جدد
أو بعض القدامى فى دكاكين جديد لم يالفوها .. بعد يرتبون اشيائهم
مرتبكين .

مضى يعتمد الناس هذا الشارع الجديد ويألفوه
ويحبوه وأي ناس سيكونون ليس هؤلاء الرجال على أى

حال تلك الشله غريبة عن هذا الشارع انما هم عيون تبحث عن شيء كان لهم فيه مسره قديمة ..

ذاهبون لزيارة الصاري تحذروا ليجتازوا النفق تحت كوبرى سمند فى عنقوان المولد يرتج هذا النفق بالآف الاقدام وصغير الشباب وصرخات العساكر والباعة اما الآن فان الظلام يسود وقلة من العابرين ومتسولون يرددون القرآن بآليه وترداد ٠٠ وهم يسرون صدى اصوات اقدامهم يرن رنيناً كثيباً فى الجدران ٠٠

انكشف النفق عن الخلا الشاسع الذى يكون فيه مهرجان المولد عملية هدم شاملة تثير الفزع الرجال يتقافزون كالقروء على النصب التى كانت شامخة يلمون اقبال لمبات الكهرباء والمناديل والاعلام واللافتات التى كانت تحمل عبارات صارخة وصورا غريبة تجمع الآن وتكوم على الأرض اجزاء الخيام وخشب الاكشاك السرقات تفك مفاصلها وتكدس اشلاها الرجال والنساء الراقصات المهرجين الذين كانوا مزركشون فى الحرير الملونه يلعبون على اراتك العرض ٠٠ الآن يرتدون أى شيء ويشغلون كفعله خشنون كثيبون متوترون ساخطون يشتمون ضائقون بالعيون القليلة التى تتاملهم فى دهشه وفصول *

— سوق قام ثم انفض ٠٠ آمال يا عم ٠٠ زى الدنيا

يسمون هذا الشارع (شارع الفرجه) من هنا مر مئات الألوف (يتفرجون) والنصب الشامخة الصخابة على على الجانبين اين هؤلاء الآن ليروا الهدم الشامل هم الآن فى القرى على المصاطب أمام الدور أو على الكيمان فى ضوء القمر يحكون عن المولد فجأة ومرة وحده يرجعون يتركون المولد فى عنقوانه لا ينتظرون ليروا هذا الهدم ربما يريدون أن تبقى فى اذهانهم صورة وقده المولد فى أوج ونفعالها يظنون يحكون عنها على مدار العام وفى الشوارع

يتفابلون الذين لم يذهبوا فى عيونهم نظرة استطلاع واستفهام
والذين ذهبوا فى عيونهم فرحة من رأى وشاف وعلى الأرض المتربة
فى قيعان الحارات تتناثر أوراق الحلوى الملونة وقشر الحمص وفى
أيدى بعض العيال زمامير وشخاشيخ والآخرين ينظرون فى حسرة ..

أصبح الطريق سائرا فى مهمه من الظلام مصابيح مخذوله متباعده
سقيفة النجوم متلألئة باهرة الخلا الشاسع تتنفس فيه نسمات
رهيفة لكنك تدرك انها عملاقية جبارة .. سائرون الى الصارى .

ربما الصارى هذا شيء من الزمن القديم حيث كان قائد الجيش
يرشق حربته أمام خبائه أو عصا طويلة وسط المعسكر يعلق فيها
رايته أما الآن فقد اختص الشيوخ بالصواري لكل شيخ صار ..
عود طويل من الخشب يرشق فى الرحبه من الأرض التى يقام عليها
المولد ويختلف الصارى ضخامة وقماء حسب مقام الشيخ فى
الأولياء ..

فكيف يكون صارى السلطان .. ؟ عملاق هائل من الخشب
مرشوق فى قاعدة مكينة . من الاسمنت يصعد نحو السماء حوله
حشد من الجالسين متحلقين حوله أو الطائفين به فى استمرار
لا يشوبه كلال ..

كلوبات خافتة ، باعه ناعسون .. ثم حشد من الجوايين لا
يقرلهم قرار يرقصون حول الصاوى رقصة غريبة تطير هراواتهم
وصرخاتهم فى السماء ، الأهازيج والصيحات فرحة وغضب و ثورة
دموع والم الصارى عمود مولد السلطان وروح سره ..

وقفت ثلة الرجال ساكنون ييسملون بالدعوات ويرفعون ايديهم
وعيونهم نحو السماء حيث يشمخ الصارى بعيدا .. ها هنا فى
قلب الليل فى عزلة عن الدنيا يقف هذا النصب وتلك الكلوبات
القليلة والرقصات والأهازيج الغريبة .. انبثق الرجل المسربل
وطلع عليهم فى هيئة مرعبه شاخ وجهه لكن عيونهم فى الليل والاضواء

الشتيته اكتسبت بريقا اذا ٠٠ العرق يسيل من وجهه خطوطا
والحديد تحت ثيابه له صليل رائحة العرق تفوح منه نفاذه ٠٠
نظر في وجوههم بشده ثم انطلق يرقص على قدم واحده ويلوح
بهاوة ثقيلة من الحديد ويصرخ

حت الجبال يمة الهادي وطا طت ليه

صاح النذير في الفلا عدى إلبحور والنيه

دبح الحبيب قلب محبوبه بدمع العين

وعند كل مقطع كان ثمة كورس هائل من الجوابين يصرخ بقوة

حسى ٠٠ ٠٠ ٠٠

ثم انخرط السربل في بكاء حارق

— آه يا سلطان ٠٠ يا حبيبي

الطريق

من المحطة الى الدار ، سكة في القلب كم قطعت ذهابا وأوبه في
زحام الرجال وخشيش الثياب المفسولة والضحك والوجوه المزدهية
بالسرور ، وكم قطعت ذهابا وأوبه في الوحدة والسكون ..

وحيثما نزل عبد العزيز من باب القطار الى عتبة الرصيف
اختنق قلبه واستدار ليرى القطار ينسحب متمهلا ، مربعات الضوء
تجرجر على حصباء الأرض والقطار يمضي ، العربات مكنونه على
الضوء وحديث الركاب وصمتهم اختنق قلب عبد العزيز حينما بعد
القطار وماتت ضجته .. وبدأ يلقي بنفسه في قلب الظلام ..

مهمه عميق من الظلام مرقط على البعد بنقط صفراء ، اللمبات
ذات الشعل تتحرك متباعدة ، الظلام الثقيل يتنفس .. جرجرة
النعال المتعبه نخرات أنوف البهائم الآيبه من الحقول شبعي ..
نقيق ذكر من الضفادع مهجور او جندب كسير الجناح ..

ألقي بنفسه في قلب الظلام فهو لا يخافه ، يشرع وجهه للأمام
ويفتح عيونه التي لا ترى ويمشي ، يعرف الطريق وقع أقدامه فيدق
المسارب وينحي الحصباء وحينما يرتفع الطريق فوق تل صغير أو
ينزل الى وهدة غير عميقة فانه يبصر ذلك في قلبه وينزل أو يصعد
عارفا مطمئنا .. ثقیل القلب .

انفرش له الطريق ، ازادا عرضا واستواء ! وأسرعت قدماه
تنتقلان في خطوة تكاد تكون ركضا وعلى جانب الطريق ازدادت
الرقطات الصفراء في الظلام تشق مساراتها وثيدة وبدت هياكل

الأكواخ وقمم النخيل والأشجار أكثر عتمة في الليل الأدهم ، القرية
الأخت .. توأم قريتهم رابضة في الظلام تنضح ريحا دافئة منتنة
تخالط ريح الليل البارد ..

نحن قليلون ويعرف بعضنا بعضا أو يحس بعضنا ببعض وحينما
يتميز شبح القادم قليلا وتخلص حدوده من قلب الظلام فانت تعرف
من القادم وهو يعرفك ..

- السلام عليكم

- عليكم السلام ورحمة الله

وبين السلامين تحكي الحكاية ويتقلص القلبان .. ويختنق
عبد العزيز ما يستطيع استخلاص الهواء لرثيته وتتفجر الدموع في
ماقيه ويسرع كأنما يهرب ومن ورائه مصمصة الشفاء تأتي وتخز
القلب كأبرة مسمومه مسلطة .. ابصر النجوم للمرّة الأولى بيضاء
لامعه طائرته في جو رقيق من ضوء شفيف يالللجمال وتحدثت الدموع
نهر ساخن يغسل خدوده لم يمسحها .. تركها تسع تنزل على
قلبه تواسيه ليس ما هو أكثر حنانا من الدموع ..

الذب الأكبر ترك ذنبه على الدار والنجم القطبي رائع البريق ..
لقد مات الحاج كريم ، وتسمع .. الليل الأخرس ذو الأنفاس
الرثيبة ألم يستحضروا ميكروفونا ومقرنا .. أعماه السبعة .. ؟
والرجال ؟ الأخوان والصحاب رفاق عمره .. اذن ماذا ؟

كان الوقت ضحى حينما جاءه ذلك الرجل ، دق جرس الباب
ودخل صامتا يرتدى بذلة وقميصا متسخا دون ربطة عنق ، عليه
صدار ريفي يضع على رأسه طاقية صوفية وعلى وجهه قناعا
كثيفا من الحداد ، بين شفته السفلى وصف ثناياه فجوة مليئة
بدخان المضغة ..

- قوم سافر

- ليه

حاجباه كشيغان بارزان كقرد وغيونه مستديرة ، يعرفه . طبيب
الى حد البله لا بد أن يقول له ماذا هناك

- ليه

- ما فيش

- أبويا مات

- لا .. بس تعبان شويه

لكنه لا يصدق .. أسرع يكاد يجرى ، ماذا ياربى ..

الشارع بين صفى البيوت مفتوح كذراعى أم عجوز نحيله عمياء،
لقى بنفسه فى العتمه البيبان مفتوحه ظلت مفتوحه ابدأ فى تجاوزيف
الاكواخ الضوء الشاحب للمبات ذات الشعل، الى الصدرالفرن هاند
كرنه معطله وعلى المسطبه كومه العيال وفى السفف عند عريشه
الحطب الحماثم فى البناني راقده تبرق عيونها محاذره وعلى البيبان
جماعات النساء ..

- مساء الخير

- مساء الخير يا خويا

يعرفنه فى الظلام

- يا عقلى يا خويا .. يا ضنايا يا بنى .. ياروحى .. شد
حيلك .. يجعلك خلف خير .

ومصمصة الشفاه .. يجرى كالمطارد .. يوغل قى الطريق ..
ماذا ؟ ماذا جرى .. ؟

وفجأة ينتصب أمامه من العتمه رجل يمد له يده ويشد على
كف يده خشنه قوية ووجه صارم حانى العيون

— أنت جيت ، الحمد لله على سلامتک ٠٠ مين اللى قالک ٠٠؟

— سليم

— ربنا كبير يا سى عبد

— الحمد لله

ويخلص جاريا ٠٠ ومن بعيد يحسها واقفه على باب دارها
وقبل أن ينحرف تجاهها يجيئه صوتها يشق طيات الظلام اليه

— عبد العزيز ٠٠ أخويا

ويأخذها الى صدره ، رأسها تحت ذقنه ويضمها اليه ، هذه
الانسانه الدقيقه الحجم الراجفه بالحنان كالقلب يود لو يستوعبها
داخل كيانه ويلجأ الى صدرها كطفل خائف ٠٠

— أبوكى مات ٠٠؟ ماله يا رشيد ٠٠؟

— ما فيش حاجه يا روى ٠٠ ما فيش حاجه يا ضنايا ٠٠ أبوك
جرى له أيه ٠٠؟ ولا حاجه أبدا ٠٠ حلو يا خويا ٠٠ حلو ٠٠٠ هيا
الناس ما بتعيش ٠٠؟

وانهمرت دموعها وبدأ جسدها ينتفض بالنشيج وتضاماً مرة
أخرى وكلاهما ينشج بقوة ومن حولهما فى عتمة الليله المصمصات
والتأوهات وكلمات الرثاء ٠٠

خلص عبد العزيز من عناقها وانطلق جاريا

— على مهلك يا عبد العزيز ٠٠ حاسب ٠٠ انا جايه وراك جرى
حناء البيوت المضاء بالضوء الشاحب النساء والرجال المصمصات
وكلمات المؤاساه ، يمشى فى غابه من القلوب الحبيبة ودموع قلبه
تجرى ويمد له عمر فرهود يده

— ألف حمد الله على السلامه يا سى عبد ٠٠ ألف حمد الله على

السلامه

كسير صوت عمر فرهود مهديم العامه فى جلبابه العانم ، فعمل
داخلا داره وعبد العزيز يجرى دكان على خلبيل معلق ، لابد ان
اللبه نمرة ١٥ الآن باردة معلقه فى السفف كجه المشنوف ، مات
على خليل ، الموت فى الزوايا المظلمه يطل بعيون عمياء على عبد
العزيز .

على البعد الدار ، الباب الكبير الانسباح داخله خارجه ومربع
الضوء فى شباك الغرفه غرفة الحاج كريم ، دفع الباب داخلا وجوه
أخواته الذابله الغارقه فى الظلال والضوء الشاحب تطل عليه من
انحاء الدار ، أندفع الى الغرفه ، مزدحمه بالرجال أفسحو له مكانا ،
الحاج كريم سجد على السرير النحاسى الكبير ، اللحاف محكم حول
جسده ، لا يبدو سوى وجهه ساكنا مغمض يتنفس بصوت مسموع
الذى عبد العزيز بنفسه عليه وتدفق البكاء من كل كيانه من كل عمره
نشيجا وولولة كالنساء .

— آه يابا . .

مسكت يد قوية بساعده ، رفعوه تأمل حواليه وهو يشرق
بدموعه حلقة كثيفه من الوجوه الصلبه الذابله العيون غارقة فى
الظلال لا يصيب ضوء اللجه الشاحب سوى قمم الأنوف والوجنات
والجباه .

أخوان الطريق شواهد العمر تحت عيونهم أشرقت شمس
ايامه وغربت معهم ضحك وبينهم بكى اليوم هم حوله فى بلائه العظيم
قلبه ذبيح

— ان كان عاليط . . أهم الجماعه الحريم عيطو كبير

لائم يشير الى بكاء النساء . . من أين بأنى الصوت لا يعرف
صاحبه ، عميق كأنه روح صنعت من حزنهم جميعا وتكلم
نيابة عنهم

- احنا مش باعتين لك عشان كده .. احنا بعطنا لك علشان
تشوف حالك

وها هو الآن « يشوف حاله » .. أى حال .. ؟ كلما خلا الى
نفسه من الهموم المتزاحمه تذكر ذلك المساء حينما خلاه القطار على
الرصيف ومضى .. وخاض هو الظلام الى ذلك البيت حيث انهار
كل شئ ، يمتلىء قلبه بظلام ذلك المساء واللميات ذات الشعل
تتحرك فى مساراتها وثيده وجماعات النساء على البيبان والرجال
يبرزون من الظلام يشدون على يده ويؤ اسونه ..

وتذكر رشيد . اصبح زوجها هرما عملاقا منحنيا هشا مصدورا
يجلس طول النهار على المصطبه لا يتكلم يدخن ويمتص الحلوى وهى
طول النهار تشتمه وتسبب تبذيره وتستحثه وهو هامد جامد يبتسم
فى بلاده وهى طول النهار تعمل فى الدار رثة الثياب على راسها
خرقة باليه وشعرها الابيض ضائق بالعصبه الوسخه تعمل فى الدار
طول النهار تسوى التراب تحت الجاموسه وتحمل روثها وتعلف
حمارتها الهزيله وتطعم الافواه العديده تخبز خبزا وطبيخا رديئا
وتخرج بالبهائم لتسقيها وتعنى بابنها الكبير كريم الطويل النحيل
الملىء الأمعاء بالدود تنظر اليه بحنان وخوف دائرة طول النهار فى
ساقيه العذاب وفى المساء تأتى الى الدار الكبيرة دار الأب تجلس الى
جنب عبد العزيز ..

- ازيك يا روحى .. البركه فيك يا حبيبى

ثم تثوب الى دارها لتنام على ظهر قرن عار وتلتحف حرام
الصوف الخشن .. ربما تطيف أحلام الزمان الماضى ، أحلام
كسيرة ، أيام طنطا والمولد والخيز وامسيات السرور .

عبد العزيز يبتسم فى مرارة ففى ذلك المساء عانقته وقالت له

- أبوك حلو يا خويا

وفى قاع الكلمة كانت المأساة التى يعيش عبد العزيز تفاصيلها
الآن .. كم ضحكت رشيدته وكم ضحك معها عبد العزيز والآن كم
يبكيان معا

ليلتها كان يجرى وهذا هو ما وجد فى الدار ، لن بهرب ،
سيحمل النير على رقبتة ويسير مثل بقرتهم القديمة السوداء كسير
هو مثل فرهود لكنه يسير حاملا قلبه فى صدره .

ليلتها سلم عليه ، فرهود ثم استدار ودخل الدار .. أى دار ..
فقد ماتت امراته الحاجة ، الموت قدر لا يرد يقطع من القلوب حباتها
المرأة ذات الكيان الدقيق النظيفة اليدين الضيقة العيون المتسمة
دائما عن صف أسنان دقيق أبيض كان عبد العزيز وهو صغير يأتى الى
دارهم وهى تنظر لعمر فرهود بحنان باسم

.. الصبح تتكل على الله بالصباحير يا عمر .. فى الصلاة
البدرية .. ؟

ويهبز محمد فرهود رأسه فى رضى

.. ان شاء الله ..

ويقف عبد العزيز على حافة ودهما يتفرج ، صغير لكنه شاعر
بهذين القلبين الحبيين .

لقد كبر ابنهما .. فشل فى دراسته فتركها
.. وهو الآن سمين أبيض له سنه ذهبيه وهو احمق متسرع قاسى
تزوج بفتاة سمينه قاسيه العيون لها ارداف تمشى تدق الأرض وهو
يجتاح الدار وأبيه بالصياح ..

وعمر فرهود مسكين فى ركن الدار جالس أمام جملة البارك
يطعمه لا شئ سوى هذا الجمل ..

يشبك مقوده فى ذراعه ويسير وراءه ، عملاق طيب شامخ الراس

ذلك الجمل وفرهود متهدم الكيان ذليل العيسيين يتأمل مواقع
أقدامه ..

عالم يهوى تتساقط لبناته كبناء قديم .. التراب زحف على
المكان الذي كان نظيف أمام باب دكان على خليل .. وكنس الريح
القش والقذاره وكدسها هناك حيث المصطبة ومجالس الرجال ..
نمة الآن رجال آخرون يجلسون في أماكن أخرى ، باب الدكان
مغلق كعين جنة مغمضة .. لقد مات على خليل ..

قالو هو في الدار يقىء دما في تلك الغرفة على السطوح ،
والغرفة النظيفة والباحة أمامها والسلم الطيني الضيق والكانون من
حيث صعدت الصواني للدراويش محمله بالطعام حيث امتلات الغرفة
بالرجال والسرور حتى لتكاد تقع .. هناك جلس يتلوى ويميل يدلق
الدم على الجانبين وحوله الرجال .. قالو للحاج كريم أنه في الدار
يقىء دماء العرببة تأخذه الى طنطا وتأتى به والعربة تأتى بالطبيب
من طنطا وتذهب به والرجال يسربون شاحبين حزاني الى صالة
الدوار والفانوس مدلى من السقف على خليل يقىء ، وتعلق عيننا
الحاج كريم بالفانوس ولا ينبس ببنت شفه .

كان على عبد العزيز أن يعرف حينئذ ، شيء بدأ ولا شيء
يستطيع أن يوقفه لكنه لم يدرك ذهب الى الاسكندرية
الى كليته يدرس ويناقش ويضحك وينشر أحيانا اشعارا حزينة في
مجلة الحائط ويرسل الخطابات الى أبيه يطلب النقود .. لماذا لم
يفهم لماذا لم يبق هنا معهم .. كان ثمة شيء يجب أن يعمل .. صرخة
أو كلمة أو دمعه لكن أن ياتيه رجل صغير الحجم طويل الذراعين
ويجلس أمامه ساكنا ثم يقول له

— قوم سافر

ثم يبدأ كل شيء ... لا ، لكن ذلك ما حدث ثم خاض الظلام

لا يرى الا الاشباح وقطرات الضوء الصفراء تسير لتعمق ابهامه
وبهمته .

لا يزال الليل بهيما لا يدرك منه سوى حقائق شاحبة
لا يستطيع الامساك بها ، ضرب على أم راسه حتى لا يكاد يرى ..

جلس الرجال حوله فى وسط الدار ، الكل صامت وعلى الرف
الطينى فى الحائط مصباح يرسل من الظلال أكثر ما يرسل من الضوء
وفى الخلفية تتحرك الأم وبنات الحاج كريم فى مسارات مبهمه وهمهمات
غامضة تنوش هوامش وجدانه ، الحقيقة تنزف الى وعيه مؤطره باطارات
الحداد والغموض ..

اتى به من المحطة محمولا على أذرع الرجال ، سرق من
جيبه حق العنبر ، كل هذا الطريق من المحطة الى الدار
محمولا معروضا على العيون يدا مريبه تدس بين جلبابه الكشمير
الكبير وصداره الشاهى لتفتش أشياء ..

وينكش أحمد بدوى الأرض يعود فى يده وهو متربع على الأرض
دون فرشته

- أنا كنت معاه

ذهب الى المركز ، الى بنك التسليف ليقترض مبلغا من المال لا
أرض كانت قد بقت تقدم بحيازات اخوته للضمان صرخ فيه
الموظف الشاب وقف ذليلا أمامه يستمع للشتائم ويقول أحمد بدوى
- قلت له يا فندى عيب ما يصحش .. دا راجل كبير له قيمته

وصرخ الأفندى

- أطلع بره

وسقط الحاج كريم ..

ربما يكون هذا ما قد حدث أو ربما غيره .. لم
يمد عقله يبحث عن التفاصيل .. لقد غفل عن الحقيقة حينما
بدأت تتكون فعما يبحث الآن ، كان عليه أن يدرك من الاول أن
عالم الحاج كريم بدأ ينهار .. حينما كان يجلس وحيدا لساعات
طويلة في شرفة الدوار والناس يمرون في ظلام المساء يقرئون
السلام في همس ثم يواصلون السير .. حينما يجلس وحيدا ..
صامتا لساعات طويلة وهو الرجل الذى صناعته الكلام والموده ..
كان على عبد العزيز أن يدرك وقتها ، لكنه غفل فاذا عما يبحث
الآن .. أصبح كل شيء قليل الأهمية .

انعقدت مجالس الرجال بجوار الحيطان على الكيمان .. وعلى
المصاطب فى طراوة العصر أو عذوبة الضحى أو طلاوة القمر .

- أبوك شطب قبل ما يقع .. رنا معاك .

احضروا له الطبيب وصصف له ادوية كثيرة وقال يأكل
الفراريج الصغيرة والخضروات المسلوقة .. لكن لا شيء الآن فى
الدار .. لا شيء ، كلهم يأكلون الخبز والجبن وهو يأكل الخبز
مغموسا بالسكر .. لا شيء عندهم سوى هذا .

ليلتها أخذته أمه الى غرفة المعاش .

- عندنا كل حاجة يا خويا

قصيرة سمينه مكينه الجسد نشيطة عيناها با حثثنان لا تنظران
لأعلى أبدا ، تدور فى الدار لا تكل تنقل هذا وتشيل ذاك تكنس
وتفسل تخبز وتعجن لا تقول لا أبدا دائما

- طيب حاضر

نظر الى غرفة المعاش الاوعيه فارغه الا من بقايا هزيله تريد أن
تخدعه لكنه يعرف .

- عندنا كل حاجة يا خويا

- طيب

وحلقات الرجال المحيطة به على المصاطب او الكيمان أو بحوار
الحيطان

- بيع القراطين اللى فاضلين .. مالهمش لزمه .. مانزرعوش
.. كفاية فدائين الوقف دلوقتى .

والدائنون ، باعة جائلون واصحاب دكاكين وفلاحون كلمهم
لاترد .. يعرف عبد العزيز انهم لا يكذبون ، لا يكذب أحد فى حو
الحاج كريم أبداً، كل لحظة يسدد دينا جديداً .. القناة تنضب بأسرع
مما يتصور وهو يعمل ذهنه لتدبير ذلك البيت الكبير .

لكن ما جدوى أن يسلم الانسان نفسه للهم ، هذا هو النهار
يطلع ، نهار جديد ، مواجهة جديدة للكروب تمهل عبد العزيز وهو
ينزل السلم الى وسط الدار ليس متسرعا لخوض العناء لماذا لم
يخلق على شاكلة أمه .

انها لا تفكر أبداً طول عمرها هكذا حازمة جهمة تنهض من
فراشها لتجد شيئاً بجوارها تعمله وتبقى طول نهارها تعمل حتى
تصمت الحياه من حولها وتسلمها للنوم .. الا تفكر .. ؟ الا
تفترسها الهموم وتسلمها لان تفتح عيونها فى الظلام سحابة
الليل .. ؟

نزل عبد العزيز درجات السلم متمهلاً ، الدار شىء جديد
يمرفه ويصحوا عليه كل يوم ، الأم والاخوات يدورون كالذنانير
الحمراء .. الوجود متعبه قانطه وغازبه ومغمه بالخوف والمرارة
والاب جالس على المصطبة كتف انحل من الآخر قليلاً وأكثر ميلاً
ووجهه مغبر ربما من غبار الطريق الذى يقطعه كل
يوم الى المحطة بلا كلال لكنه غبار لا يعالجه الغسل الدائب ..

يداه متعاثقان فى حجره وعصاه بجواره ، لم يعد يستغنى عنها وقد بقى له الشلل النصفى بعد صدمة المرض الاول .. وذلك الدهول فى عينيه ، عيناه البنيتان البارقتان بشوق لا يبل فيلتفت حواليه كطائر مطارد صرخ حينما رأى عبد العزيز .
- افتحوا الباب .. افتحوا الباب .. سيبنى فى حالى ..
عاوز اسافر ..

تمزق قلب عبد العزيز للمرة المليون اسرع الى ابيه ، لم يعد النبات يحتملنه اصبح يشكين منه ومن عذابه لهن .. اثنان فقط الام وعبد العزيز يترضيانه بلا كلال .. الام تسرع نحوه وتقف امامه كأنما تفرد معه شال العمامه وتساله عما يريد وتترضاه وعبد العزيز يجلس الى جواره ويحدثه عن الطريق والاخوان ومزارات الاولياء ويخرج به يمشيان على هذا الطريق طويلا ثم يعودان .. هكذا بلا كلال ..

لكن عبد العزيز فى هذا اليوم فرغ صبره توجه نحوه

- يا بابا ما يصحش كده

قالها صارخا بكل ما فى قلبه من الم ويداه مرتفعان فى شكاية مريرة ، لكن الاب المذهول تصور ان عبد العزيز بهم بضربه ذعر ورفع يده السليمة مدافعا عن وجهه ومال مرعوبا .. انقلب عبد العزيز منهارا طعين القلب وهو يموى من الالم ولو عاش عبد العزيز بعد ذلك الف عام لما غفر لنفسه ان ترك الحاج كريم يتوهم ما توهمه ..

خرج ، جلس على المصطبة أمام باب الدار طلب من احدى اخواته ان تعد له الحمامة السوداء الكبيرة ، لا تزال صابره ، عجوز وصابره ، وضع على ظهرها عدة الساقية وركب عليها وناولوه جبل الجاموسة ، كان داب الحاج كريم ان يقتنى كرائم البهائم

وتلك الجاموسة فريدة فى البلد ، لا يزالون يحتفظون بفدانين فى
أرض الوقف واليوم موعد الرى .

ركب عبد العزيز الحمارة السوداء وسحب الجاموسة وأمامه
على الظهر الطويل عدة الساقية وسرح الى الفيض ، يرتدى جلبابا
ريفيا وطاقيّة صوفية حمراء والطريق أمامه يصعد بين الحقول
وشمس الطباح طرية مغرية ..

قال الاطباء لقد ضاقت الشرايين والدم يعانى لكى يتدفق فى
هذه المسارات الضيقة فتضخ الشعيرات الدموية عند منتهى
الأوردة ماءا يتجمع فى بحيرة صغيرة فوق المخ فيعطله ويربك
دوره .. ولا بد من ان تحقن الأوردة دائما بمحلول الجلوكوز ولا بد
من اتباع نظام تغذيته دقيق ولا بد من عقاقير كثيرة لتعمل على
توسيع الشرايين .. من اين .. لا يملكون شيئا .

اصبحت الحقائق عاربة أصبح الحاج كريم شرايين وأورده
ومخا ترقد عليه بركة صغيرة من الماء أصبح الحاج كريم مذهولا
صائحا شبيه مجنسون ودارت الايام حتى زعر من تلويح
عبد العزيز بيديه فى الفضاء، لن يغفر عبد العزيز هذا لنفسه أبدا ..
المعرفة والالم والعجز ، المخ والشرايين والأوردة والمأساة ، اين
العالم الماضى .. اين الكرامات والأولياء ودعوات الرجال والنساء
سيبقى البيت مفتوحا .. ستبقى دارا للطعام والضيوفان .. لاشيء
يأكله الحاج كريم ، انهار العالم بلا رجه تمزق بقسوه .. ما
العمل .. لا شيء .. سواد وقهر لا يوصف ..

حمارة صديقه سمراء ، طيبة تعراف المكان ، قبالة الساقية
وقفت .. نزل عبد العزيز عنها واطلق مقود الجاموسة وانزل عدة
الساقية على الأرض تنهدت الحمارة تنهدا عميقا .. مسح عبد
العزيز على رقبتها وتامل كابة وجهها « مخلوق آخر وحيد » ركن

رأسه على رقبتها واغمض عينيه ثم احتضن رقبتها وهي ساكنه
تتنفس ببطء ، ربطها فى الشجرة ركب العدة فى الساقية علق
الجاموسة وربط العصاة على عيها وزعق فيها فانطلقت دائرة
بالساقية وصوت التروس المحتاجة الى التشحيم وانهمار الماء
فى المجرى يصنعان الحياه فى قلبه ، جاموسة رائحة مكتنز
سوداء لامعة الجلد متناسقة التكوين عامرة البطن بجنين ..
ستلد بعد فترة وجيزه .. ضحك قلبه ربما ياتى الخير ويشمى
الحاج كريم فالاطباء يقولون شفاءوه ممكن مجرد ضغط دم وهو
سليم فيما عدا هذا ، غنى عبد العزيز وصوته غارق فى ضجيج
الساقية ..

الحلو لما نعس صحوه بالقانون

والورد لما دبل رشو عليه لون

ثم ضحك لخفة عقله وسار متتبعا مجرى الماء فى القناة مشمر
الذيل والاكمام يطهر مجرى القناة امام تيار الماء .

تلك هى أرضهم - تملكها الأميرة فاطمة هانم - لكنها أرضهم
صفراء كالذهب بجذور أعواد القمح المحصود ، منشقة
واسعة ذات سمرة مذهلة الثراء .. رقد على بطنه مدد
ذراعاه وساقاه على آخرها يريد أن يشتمل أرضهم فى حضنه
فى بطنها آلاف العروق والقنوات الدقيقة كونتها المسافات بين
ذرات الفرين الأسمر البراق ، رئة هائلة تتنفس وتخصب وتجدد ..
ياربى .. هو ابن هذه الأرض وهؤلاء الرجال ..

جلس ضاماً ركبتيه الى صدره من بعيد رأى محمد كامل مقبلاً
فى سرواله وصداره متمنطقاً بشمله من الصوف وجهه مدبوغ
بالشمس ..

- سلامو عليكم يا سى عبد

- اهلا ازيك يا عم محمد يا كامل

له عذوبة الصوت القديمة، العمق والرقّة، الصوت الذى اسر
عبد العزيز طول حياته وفى وجهه تلك الطيبة التى لا حدود لها .
لكن شيئاً ما قد تغير شيئاً مالا يستطيع عبد العزيز أن يمسك
به .. ذلك الجار فى الأرض وفى الدوار رفيق مجالس الاخوان
طول العمر ..

لقد طلق فاطمة منذ مده وتزوج امرأة أخرى ، امرأة ممثلة
كبيرة الانداء .. ملأت داره بالعيسال امرأة لا تكل ، منذ الفجر
على الأشجار كالغراب لا تدل الحفر يديها فى الأرض ، شددت
محمد كامل وراءها لم تعد تراه جالسا أبدا ، طول النهار فى
الحقل بسرّوالة وصداره متمنطقا بشمّلتة الصوفية ومنحنى يضرب
بفأسه فى الأرض لا يتكلم كثيرا .. وإذا تكلم فبنفس الصوت القديم
لكن عيناه لم تعودا تحلمان ينظر الى الأرض فى انكسار ويحمل
فأسه ويسرح الى الحقل قلّقا قليلا وأحيانا ماهوجا قليلا ثم خجلا
وضاحكا فى تردد هذا الوجه ليس من صنع الفانوس فى صالة
الدوار بل من صنع شمس الحقل القائظة فى وقدة الظهيرة لم
يسأل عن الحاج كريم وإنما كلم عبد العزيز .

— حاتروى النهاردة ياسى عبد

— انشاء الله

— ربنا يعينك يابنى

— هقف على الحد اللى بينا وبينك .. مافيش ولا نقطة ميه
هتيجى عندك .. انت خضرت بدرى ياعم محمد .. ميتنا مش
حتعدى عندك

استندار ومشى وهو يقول

— كل شىء بيد الله .. ماتتعبش نفسك .. أدبنى هنا .. وربنا
المعين

عبد العزيز يتأمل الماء يبرق فى الشقوق كعينون
مختفية .. سار على شاطئ القناة حتى الساقية ، الحمارة
ساكنة بجوار الشجرة والجاموسة دائرة فى ضجة الساقية
مكتنزة عارفة زعق بها فتسمعت عبياء العينين ثم اندفعت تدور
لكنها قفزت الى اعلى ثم سقطت على اربع ثم وقفت ساكنة
رافعة يدها اليسرى عن الأرض ..

وقف صرير التروس وبدأ الماء يتمهل فى تدفقه .. ثم بدأ ينز
ضعيفا كالدموع وقف عبد العزيز مذهولا مغفورا الفم ثم جرى الى
الجاموسة فحل عصابة عينها .. وفك خناق رقبته وازاح النير
عن كتفها وقفت فى مكانها لا تريم سحبها من مقودها عجزت عن
الحركة تحس كنفها عند اتصال ذراعها بجسمها تمللت من
الآلم انشقت الأرض عن فلاح شاب لم يعرفه عبد العزيز ساعتها
فقد كان أعمى لا يرى ..

— اوعى انت

وبيد خبيرة قصد موطن الداء

— الجاموسة انكسرت

سحق عبد العزيز .. سحب الشاب الجاموسة من عقودها
مشيت على ثلاث تكاد تقع ، خطوتان ثم وقفت تماما ..

— لازم عربية عشان نروحها البلد

لم ينظر عبد العزيز ناحيته ، حل وثاق الحمارة ركبها عارية
الظهر وسار بها ناحية القرية ظهرها طويل وهو فى وسطه تماما
ساقاه متدليان كهندى احمر ، والحمارة الحكيمة تمشى متراخية
ربما تعرف الا جدوى من العجلة ..

لم يكن ثمة شئ فى رأس عبد العزيز ولا فى قلبه خفيف
الراس لا يعى ثم فجأة تدفق من كيانه الغناء

كنا بنعمة وكان السعد خادمنا
صبحنا نقول يامين يتاوى الغرايب
غريب يا ولدى
.. .. آه

ثم ضحك بأعلى صوته ، وحيد هو والناس على شطآن الترع
ومن المسارب الصغيرة بين الحقول يجرون نحو الجاموسة المكسورة
لا تدري كيف عرفوا الخبر لكنهم بالمثلات ذبول ثيابهم فى اسنانهم
وسيقانهم تسابق الريح والحمارة تسير به رخية الخطوة مدلاة
الراس وهو على ظهرها يخضه سيرها الوئيد ويترنج كانه مصنوع
من هلام ..

وقت طويل بلا نهاية حتى وصل الى مشارف القرية وامام
باب دار أحد أعمامه جلس هذا العم وحوله الرجال ،
تجاوزتهم الحمارة حاملة عبد العزيز دون وعى ترجل وتركها
تمشى الى الدار وانشقت الأرض عن امرأة نحيلة دقيقة معروقة
حولاء مشعشة الشعر اندلعت فى وجهه ، يداها مشرعتان مفرودة
الأصابع كأنها ستخنقه وصرخت فى وجهه

— ماتخافش يا خويا .. فذاك .. فى دهية يا خويا .. لولك
مخطوف ليه كده يا خويا

فى هذه اللحظة افاق عبد العزيز وادرك كل شئ وسالت
دموعه على خدوده مسحها بباطن كفه الملوث بالطين .

اظل من باب العمار ، دائرون كالذئابير الحمراء المسمومة ،
تمة شئ غير عادى وجوهم منفعة كل واحد على وشك الصراخ
رجع والتقى بجسده على المصطبة .. هنا كان يشرب قهوة العصر
وكان ياتيه ابراهيم الجمل بالجريدة حاملا له خبر المولد ترك ابراهيم

لجمل القرية دون سلام ترك فى النفوس شيئا لكنه مشى دون
سلام .. ، اللعنة على كل الأشياء .. اين الحاج كريم

خرجت اليه احدى اخواته

— ابوك طلع المحطة

طيب .. ثم ماذا .. اقتلونى ..

— ومرات ابوك سابت الدار ومشيت .. عند اختك .

احمد ابناء اعمامه مشى وثيدا متجها اليه وساعته فى يده
بملاها ببطء وينظر فيها ثم يضعها فى جيبه

— هيه .. يا عم عبده .. زهقت ؟ ..

وابتسم له

— انا بس .. هيه .. على راي المدايح

لو كنت يابين تدادينى .. تتدادينى

الا انت يا بين بتكيل وتدبنى .. وتدبنى

— قوم شوف ابوك .. زمن المداحين راح

نعم راح زمان المداحين .. وراحت اشياء كثيرة ، دون سلام ،
كما راح ابراهيم الجمل ، مشى على الطريق الى المحطة ، الناس
مشغولين ، لكنهم يلقون عليه نظرات عاطفة ويمصصون شفاههم
ويمضون ..

فى دكان على خليل يقف ابنه الصغير .. نسخة صغيرة
خضراء من على خليل يزن فى تردد ويعد النقود فى حرص وخلفه
امه تنظر اليه فى قلق وحنان كما كانت تنظر الى على خليل ..
ابتسم عبد العزيز ..

وهنا دار عمر فرهود ، هو جالس امام الجمل يطعمه بلا كلل
والجمل يمضغ واسع العيون مستطيل الانف كابله صغير ..

وهذا زوج رشيدة اين هي ربما يشغلها امر من امور الدار
انتهت صفوف المنازل وانبسط الفضاء والطريق ماش فى اعتدال
الى المحطة وهناك يمشى الحاج كريم فى وقدة الشمس يتسند
على عصاه صغير الحجم مائل الكتف وذراعه المريضة جامدة فى
جنبه متعثرا على الطريق الطويل الذى يمتد وراءه وامامه يمضى
لا ينحرف ورأسه مشرعة الى اعلى دق قلب عبد العزيز اسرعت
خطاه حتى ادرك اباه مد يده وسنده من تحت ابطه جسده هنس
متهاك ووجهه مغبر لكن ملامحه هادئة رقيقة وعيونه البنية مليئة
بشوق يقطع القلب ..

- رايح فين يا بابا

وتكلم الحاج كريم بصوت رقيق هادىء النبرات كأنه موشك
على البكاء

- مسافر يا بنى ارواح الشرقية .. اشوف الناس .. بقى
لى مدة ماشفتهمش يا عبد العزيز ..

حاول عبد العزيز برقة شديدة ان يغير مسار أبيه ويعيده
راجعا على الطريق ، الناس فى الحقول يتركون فتوسهم وينظرون،
على الطريق وبضعة عيال يلعبون يتركون لعبهم لحظة ثم يفرقون
فى الضحك ويفرون هاربين ..

- سبنى يا عبد العزيز .. سبنى اسافر يا بنى .. حرام
عليك

- لسة بادرى عالقطر يا بابا

- استناه .. استناه يابنى

- طيب .. مش تغير هدومك .. هتسافر كدهه .. فى
الهدوم دى ؟ ..

- آيوه .. زى مانا كدهه .. هيجرى ايه ..

ويمود به .. تهدم الرجل تهدم الكيان كله وبقت العيون
المشتاقة عبد العزيز يسير به كأنه طفل يحتاج الى رعاية
ويستريحون قليلا على مصطبة رشيدة وتنظر الى ابوها وقد
عجزت عن كبح دموعها فتبكي وجسدها يرتجف بالدموع .

— ايه اللي جراك بابا .. يا حسرت قلبى بابا ماتفسلهاش
مية النيل ..

وينظر اليها الأب ..

— تعيطى ليه يا رشيدة .. هو انا جرى لى ايه انا عاوز اسافو
سيبوني اسافر .. حرام عليكم ..

ويأخذه عبد العزيز من تحت ابطه ويسنده عائدا الى الدار
ويتجاوزان دكان على خليل وفجأة من حارة جانبية تبرز روايح
ساحبة العايق الذى عميت عيناه ، تسرع به وهو يتعثر ويتخبط
ويتحسس ماحوله بعصاه .. تصرخ روايح :

— حبيبك أهه .. الحاج كريم أهه يا عايق

وتدور بدا العايق فى الهواء بحثا عن يد الحاج كريم ويأخذ
عبد العزيز يده الى يد الحاج كريم ، عيناه بعيدتان لا تنظران الى
العايق تتجاوز انه الى بعيد والعايق رث الثياب يربط راسه بخوذة
متسخة ويستر عيونه بفضلتها .. يصرخ ويجهش فى البكاء ..

— انا عميت يا حج كريم .. انا عميت يا حج كريم

وتولول روايح فى نفس الوقت

— طول عمركم حبايب .. كنتم متورين البلد

ويقبل العايق يد الحاج كريم والحاج كريم يتكلم بصوت
خافت

- متميطش يا عايق .. عاوزين نساfer .. عاوزين نساfer
يا عايق البس هدومك وتعالى

وتسحب روايح العايق وتمضى به وياخذ عبد العزيز الحاج
كريم ليعود الى الدار

كانوا يحلمون بموت روايح وبالريش ينبت في وجهها جزاء
ما سرقت من دجاج وها هي تسحب العايق الاعمى وتدور طائرة
اللب صارخة في الشوارع والحارات .

ترك عبد العزيز الحاج كريم يدخل الدار وانهار جالسا على
المصطبة ليس في كيانه ذرة واحدة قادرة على المقاومة ركن رأسه
على الحائط وأغمض عينيه لكنه فتحها مرة أخرى على صوت
يناديه

- قوم كلم عمك

نظر الى الولد في سكون الولد يبادلُه النظرات في خوف ثم
مضى وقام هو يجر جر اقدمه نحو مجلس الرجال

على كوم التراب امام باب دار عمه جلس الرجال ، لا يتركون
الكارثة تذهلهم فهم رجال يقظون غارقون في التفكير ينكتون
التراب امامهم ويرسمون عليه الأشكال ، افسحوا له مكانا فجلس ،
الجاموسة غير بعيدة راقدة تجتر حملت من الحقل على عربة بجرها
بغلان فكت عجلتي العربة من جانب ودحرجت الجاموسة على
الأرض وها هي الآن راقدة تجتر ..

هؤلاء رجال غير رجال ابيه ، صارمون يضحكون بقوة ، يجلسون
في العصاري لكن ليس حول حديث طيب ودود بل حول المذايع
يستمعون للنشرات ويعلقون ويتكلمون بحماس مليئون بالمرارة
ومتعجلون وصارمون

على اطراف المكان ابصر عبد العزيز وجه الشركسى النجار
اصفر صفرة الموتى وذابل العيون ناحل وجهه جلد على عظم
يعانى من الكبد منذ سنين والآن مع كل نفس ربما تخرج
روحه . . ورأى احمد بدوى ، وجهه مبتسم ابتسامة تنطوى
على القنوط والازدراء ولكنها بسمه حنونه فيها روح الايام الماضية
طاف عبد العزيز بوجوههم وبادلوه نظرات مؤاسية . .

اقبل الرجل على الجالسين راكبا ثم نزل عن حماره وسلم
وسلمو عليه

— اهلا . . ازيك يا معلم محمد

قام هادئا ونظر الى الجاموسة ثم طلب من الرجال ان يقيموها
هجمت جموعهم عليها دسو العصي الطويلة تحت بطنها ورفعوها
حتى قامت تحسس الرجل مكان الداء . . سهم قليلا ثم نفخ يديه
بعضها واستدار للرجال

— مافيهاش رجا . . الفتيلة اللى رابطة لوح الكتف انتقطعت
لا كى ولا خزام . . ممكن تعيش كدة . . تقوم وترقد بالرجالة تحلب
وتعشر بس ماتقفش . .

وتكلم العم بحزم

— ماعدتش تلزمنا

ورد الرجل

— عوضكم على الله

كان عبد العزيز يتفرج على مسرحية غريبة دس العم يده فى
جيبه واخرجها مطبقة . .

— حق الدخان يا معلم

— عافينى ياسيدى . . الحاجة اللى مافيهاش رجا . . مانخدش
من وراها حاجة . .

اتجه الى حماره

— استنى ناكل لقمة

— بالهنا لكم

ثم ركب حماره ومشى كأنه الطيف وتكلم احمد بدوى

— الجاموسة دى تندبح وتتفرق علينا وكل واحد يدفع الى

ييجى عليه نجمد حق جاموسة سليمة .. يتفرق علينا حتها وهى
سليمة ..

ورد العم بحزم

— استنى يا احمد

وبكأنما خجل احمد بدوى من رايه

— الحاج كريم كان بيعمل كده .. كان بيدبح بايداه ويفرق ويلم

الفلوس ويشترى جموسة احسن من اللى وقعت

ورد العم متنهدا

— مفيش داعى

— نشوف الخراب ونتفرج

— ربنا كبير

وانتفت الى الجزارين الجالسون ينتظرون

— صلى على النبى فى الجاموسة ياسعودى

وتلملم الرجل وبادل زملاؤه النظر

— الحاج كريم خيره علينا

— انا ماقتلكش انصل الحاج كريم

وتجاسر الرجل اكثر ومرت سحبات بوجوه بعيدة

— الجاموسة عشار .. العشر بيخسر اللحم
— حتخلط ؟ .. الجاموسة لحمها ذى الذهب الأبيض
واغمض عبد العزيز عينيه وسرح وافاق على يد عمه تضع
فى يده النقود

— مبروك عليك فلوسك .. وانت يا سعداوى مبروك عليك
جاموستك ..

نظر عبد العزيز الى الجاموسة لا تزال تجتر راقد لم تعد
لهم كانت امه تهمس خائفة وهى تراها عائدة من الحقل شبعى
فحلة مكتنز حافلة الضرع

— بسم الله ماشاء الله

وكانت تهمس وهى تنظر اليها سارحة تخور ملهوفة على
السروح

— بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم النبى يحرسك
وكانت تجلس تحتها القرفصاء والشلية على ركبها واللبن
يشخب من الضرع حتى تمتلىء الشلية واللبن مختوم بالرغوة
الفائرة وعبد العزيز جالس فى المزود امامها يداعب راسها واذنيها
ما عادت لهم .. ولا لانسان غدا تعلق لحما فى خطاطيف الحديد

كان عبد العزيز سارحا يبتسم فى اسى يشغله احيانا وجه
الشركسى النجار كم كان ذى رواء تحبك عليه اللبدة البيضاء فى
اناقة ، الآن هو نصف ميت .. لكنه ينحدر فى الشارع متسندا على
عصاه حتى يلحق بمجتمع الناس على كوم التراب لا أحد يحس
به يجلس فى منتهى المجلس نصف نائم لا يستطيع طرد ذبابات
ملحاحة شرهة تنوش وجهه .. الناس ضائقون به ربما .. أو ربما
هم ضائقون بعبد العزيز ذاته ..

الشمس اصفرت للمغيب وقد آن أوان الرواية المسلسلة في المدياع وربما صاحب المقهى قد فرش دكتيه بالحصر ورش الأرض بالماء ونصب براد الشاي على الوابور وجهر القوالح للجوز ، لابد أن الشوق في قلوبهم الآن للقيام هناك سيتكدسون في تلك الغرفة والمدياع هائج بالصراخ وأوراق الكوتشينة تصفق على الطبالي المرسومة على الأرض والنار تتوهج في قمم الجوز والحديث الذي لا ينتهى لانك لا تعرف كيف بدا ليس حديثا ولكن سوق كلام وزباط وهيصه ..

ربما هم ضائقون به الآن ويحاولونه بالجلوس قليلا معه في كارتته حسمها العم في كلمات والآن هذا موعد مقهاه .. كان الناس في الماضي يتحدثون بتؤدة ويحيون دونما جلبة اما هؤلاء فانهم ضاجون ضائقون .. السياسة الجمعيات التعاونية .. الاقطاع .. الظلم .. كينسدى .. خرشوف يجب ان يقوم عبدالعزيز ..

لكنه يتباطأ .. فان جلستهم تروقه .. وانه ليود أن يزول ذلك الحرج الذي يستشعرونه وينطلقون بمرارتهم وسخريتهم .. لكنهم متخرجون .. نهض عبد العزيز .. وتلفت حوالبه وهو نصف قائم فوجد أحمد بدوى ينهض أيضا ..

بعد انتهاء البيوت يفرش الفضاء واسعا يصعد متدرجا بالحقول البنية وخطوط الأشجار الذهبية حتى يلتحم بالسما عند الأفق الشمس لينة الظلال تمتد طويلة متعثرة في الحصباء ، تنهد أحمد بدوى .

— ليه ياسى عبد .. الدنيا بتغزل

القامة القصيرة الوجه الطفولى ذى العيون الضيقة
انزاحت الطاقية عن بياض يكتسح سواد الشعر كل شيء يسقط

من حول هذا الرجل وهو لا زال يبتسم ، حتى ابنه الكبير أخذ
امراته وترك القرية الى القاهرة لا يرسل خطابا يتأمل الحياة حوله
مذهولا لكتته يبتسم ابتسامته الطفولية دهشا ..

— هو ايه اللي جرى ؟ .. الله ! شيء عجيب

ولا زال يرتاد مجالس هؤلاء الناس يجلس فى الدليل ؛ وحينما
يدار الكلام ينصت دهشا ميتسما وحينما تبلغ دهشته ينتهاها
يتكلم ، يتكلم كأنه جالس فى الدوار فى ضوء الفانوس الكبير ..
لكنهم يرفضون كلامه .. فيسكت مغلوبا .. يبتسم دائما .

تسأل عبد العزيز

— الشركسي النجار .. باين عليه تعبان خالص

ويسهم أحمد بدوى قليلا ثم يقول

— بعد موت الولية .. من نهارها ماقامتش له قامة

كان يوما غريبا ضحكت القرية فى اوله حتى التوت الامعاء ،
كل قادم من السوق كان يحكى كيف رأى الشحات الشركسي يقتاد
أخته العانس كبيرة السن أمامه وكيف يلاحقها بالرفس واللسمات
وكل قادم من السوق يحكى عن ولولة البنية وشكوها المضحك ،
وعن شتائم الشحات المخولة وقبوتاته الحيوانية ، وكنت تسمع
الحكاية على عشرات الأوجه .. لستفكك فى النهاية تعلم ان أم
الشحات رأت ان تباع دجاجة رومية وتشترى بثمنها خبزا تطبخه
فقد أصبحت وليس فى الدار كسرة خبز ، لكن الدجاجة ملك
زوجة الشحات أهدت اليها من أهلها فى أحد المواسم يحكون
وبالفون فى الحكى عن ولولة مراة الشحات حينما اقتنبت
ومعيتها فلم تجدها وعن ثورة الشحات وهزولته الى السوق باحثا
عن الدجاجة والأخت وعودته بها على ذلك الطريق مضروبة مشتومة
مهانة تحمل على رأسها دجاجة مدهور تصيح ..

ضحكت القرية على هذه الحكاية فى الصباح وفى العصر انطلق
الصراخ معلنا عن موت امرأة الشركسى النجار أقبلت تدفع الشحات
عن ابنتها فرفسها فى بطنها تقيأت دما وقالت لناس وهى تلفظ
نفسها الا يؤذوا الشحات قاتلها .

وفى المساء اقيمت المعزى وجلس الشحات بين المعزين جهما
حاجبه ساقط على عينه يطمسها فكه هائل مندفع للأمام شفتاه
رقيقتان مزمومتان وجه مبقع الجلد وعلى كتفه تجتمع عضلات
عظمية تشبه الحذبة

— ياسى عبد انا مانيش فاهم حاجة .. كان متهاىلى انى ناصح
جاء الشركسى النجار الى الطريق مشتاقا للولد ولبست امراته
طوق الحديد حتى يemiş الشحات ها هو جالس فى المعزى ينظر .
لم ياكل عبد العزيز شيئا طول النهار اكتشف أن بطنه خاويه
لكن نفسه لا تطلب الزاد .. نودى عليه استأذن من رفيقه وكر
عائدا ..

فى دار أخته كانت زوجة ابيه متربعة على المصطبة مرتدية
ملابس سفرها السوداء الحريرية وطرحتها محبوبكه حول وجهها
وتسند ذقنها على يدها وابنتها واقفه بجوارها صامته كسيفه
جلس على المصطبة دون كلام ..

— امك يا عبد العزيز شتمتنى وهزاتنى

وبكت اجهشت فى بكاء مر عرف انها تبكى اباد ظلت سنين طويلة
جالسة فى ركن الدار ترقبه فى سكون عله مرة يكلمها
أو يعرف الطريق الى غرفتها التى تفرش باعتناء يوما بعد يوم
وتنام فيها وحيدة دون رجل .

— أنا مسافرة يا عبد العزيز .. لى أهل .. الدار ماعدتش
مطرحى

دموعها تغسل وجهها ذابل متغضن هرم لم يعد ثمة ما يدمو
لفسيله بالصابون النفاش .. ابتسم عبد العزيز ابتسامة مرة
فى داخله تدخلت اخته بنبرة هامسة

— تسافر يومين .. تروق شوية .. وتبقى تيجى

وعرف عبد العزيز انها لن تعود عيونها مهاجرة كالطيور الغريبة
خرج هو واخته يودعانها ، وحينما ضمته الى صدرها فى حنان
عرف ان هذا هو الوداع الأخير ثم لم يرها بعد ذلك ابدا ، ماتت
عند أهلها ..

كان نهارا غريبا تفكر فيه عبد العزيز وهو جالس على السطوح
يتأمل صفاء الليل النجوم تتلالا فى سكون ، نسمة شمالية
ورقاقة ، حزم الحطب تتكدس على السطح فى الدور .. قم
اشجار الصفصاف . وهامات الجميز القديمة .. الفرفة الوحيدة
القديمة خزائن اللبن والمعاش مخازن الحبوب الطينية مثلذنة
المسجد الجامع القصيرة الفليضة القبيحة ، قبة زوجة جده فى
مقبرة القرية البعيدة

كان نهارا غريبا ماتت الجاموسة ، الآن زريبتهم خالية ما عدا
الحمارة السمراء الكبيرة لعلها الآن فى جوف العتمة مدلاة الرأس
تنهد فى حزن ..

مدد رجله واستراح فى كرسية فرشوا للحاج كريم مرتبة
نام عليها ودثروه باللحاف أنفاسه رتيبة تحدث صوتا وهم حوله
صامتين

ام عبد العزيز متكومة على نفسها وغارقة فى النوم اذا لم
تجد ما تشغل به يديها افترقت فى النوم لم يراها ابدا سارخة

تفكر .. او جالسة تحدث الناس وتستمتع بالحديث لولا تخرجها
لتركتهم ونزلت الى غرفتها ونامت ..

رشيدة والبنات جالسات ساكنات لكنهن يقظتات الرؤوس
كالبوم القابع على الأشجار فى العنمة .. ماذا يفعل عبد العزيز
ثمة شئ يجب عمله ، هل يترك دراسته ويبحث عن وظيفة
ثم يحملهم جميعا الى المدينة .. أيقوى على أن ينشئ دارا فى ارض
جديدة ؟ .. هل يرحل وحده ويراسلهم بالنقود والرأى ؟ ..

مجلس تكون فيه رشيدة والحاجة شوق لهو أبهج المجالس
ابتسم عبد العزيز فى مرارة وهو يرى شبحها قادما .. الحاجة
شوق

— مسا الخير ياولاد

وردوا عليها هامسين انتبهت أم عبد العزيز تماما كأنما هي
متوفرة للعراك وجلست الحاجة شوق على الحصر ساكنة ، نظرت
ناحية الحاج كريم مدثر باللحاف ساكن .. سلام على الأيام
الطيبات والكلمات الودودة والنظرات الطافحة بالشوق والخذود
المزدهية ولت الأيام ..

— آدى حال الدنيا

... التى كانت يوما .. هى الآن مغرمة بضروب العطاراة وصنوف
النباتات والأعشاب الغريبة والأشياء السحرية الصغيرة .. لكن
لا شفاء لصداغ رأسها ولا لسوء مزاجها وكأبة نفسها تعلق سمكه
ذهبية فى منديل رأسها وحجابا فى طرف غداثرها وتربط ورق
نبات خاص على أصدافها .. أشياء تغليها وتشرب ماءها على
الريق أشياء تدلك بها نفسها شبكة من الوصفات والتعائم والعقدة
حناء المقاصيص البيضاء المتدلية على الأصداغ ، لا تريد أن تشيب
ابدا مدت يدها بشئ الى أم عبد العزيز

— خدى يا ست ام عبد العزيز .. تظليه وتدعكى به ايده الى
بتوجهه .

— طيب ياختى

اخذت منها اللغافة ووضعتها باهمال بجوارها باهمال وعدائية
قامت لم يرد أن يستبقها ربما تكون أقل كآبة بين أشيائها واحفادها
— افوتكم بعافية

واللغافة ملقاة على الحصرة ، كانت هذه الاشياء ذات جدوى
ربما فى الزمن القديم .. ابتسم عبد العزيز فى داخله .

ذات ليلة جاء العراقى يعود الحاج كريم فى وعكة المت به .

— مالك يابا الحاج

ويشير الحاج كريم الى رأسه الموجوعة ويصبح العراقى

— رأسك مفتوحة يابا الحاج

ثم يطلب مفتاحا خشبيا ومنديلا كبيرا وبخورا وشمعا وزيتا
يتقافز ويجرى طقوسا وقراءات بلسانه المهشم تميت الجالسين
من الضحك وأخيرا اطلق البخور وذلك بالزيت المسخن على الشمع
وعقد المنديل وادخله حول رأس الحاج كريم ثم أواج المفتاح فى
العصابة وبدأ يديره والعصابة تضيق على الرأس حتى صرخ الرجل
الما فصرخ العراقى فرحة وانتصارا لاعادة غلق الرأس ومسات
الحاضرون ضحكا ..

الآن لا شيء من هذا يجدى ، المطلوب ادوية غالية ونظام
تغذية وزيارات طبية متوالية .. ولا شيء فى الدار ، لا شيء يجدى
وصفات شوق أو طب العراقى حتى حياة العراقى اصبحت دورا
هزليا لا يشير احدا يطير على عجلته ذاهبا لعمله .. ويطير راجعا
لا يلتفت ناحية الدوار ، الارائك عليها التراب لا احد يجلس هناك

كان نهارا غريبا يتأمل النجوم الحائرة الدب الكبير يدور حول
النجمة الالامعة الوحيدة الصاعدة نحو الشمال كعيون ابيه هداة
الليل ثم الفجر ثم نهار جديد بعناثه وشاكله ..

سمع خفق شبشب على السلم ، وبدأت سميرة طويلة القامة
مليئة تحمل ابنها على كتفها ويعلق بها بصر عبد العزيز ، ساهما
شاردا ، ليس في رأسه فكرة واحدة ..

— مساء الخير

وتأتى الردود هامسة مترددة

— مساء النور ياختى أهلا وسهلا

ثم تبصر عبد العزيز وتهتف ..

— عبد العزيز

وتسرع ناحيته ثم تلقى بنفسها على ركبتيها امامه واضعه
يديها على ركبتيه ..

— عبد العزيز وحشنى اوى يا عبد العزيز .. يا سلام نفسى
أشوفك بشكل

تتكلم وتضحك صوتها طلق رائق وسط السكون من حوله ،
باهر كالنجمة الزاهية الوحيدة فى بحر الظلام ، شئ سقط فى
روح عبد العزيز ثم بدأ ينتشر ويسرى فى كيانه دمعته رائقة لم
يعرفها منذ وقت طويل بدأ تشمله وتهزه وضع يديه على يديها
المستريحتان على ركبته ..

— أهلا سميرة .. أهلا

وهى تواصل اندفاعها المنفرد فى صمت الوجوه من حولها
لكنها تلتفت فجأة وتكتشف وتحس . انها تصيح فى جبانة ساكنة

الشواهد تسكت مكسوفة وتدور تبحث عن شبيبها حولها تلبسه
وتستدير نازلة ويتأمل عبد العزيز ظهرها وهي ماضية ويحس
بأن سروره الذى غمر روحه يستلب منه ويفرب عنه وهي تمضى
برويداً ، هتف متشبهاً

— مستعجله ليه يا سميرة

— معلى

نهض من مكانه لم ينظر الى الجالسين متعلقين كآبى صامتين
وانما كان كل احساسه بها وبها وحدها ..

— استنى جاى معاك اوصلك

ظلال الدور على ارض الشارع حالكة السواد وضوء القمر
اخضر زاهى على الحيطان ، حطب العرائش رطب بالندى يشدلى
اهداباً من السقوف المساء عذب وروح عبد العزيز مشوقه للانطلاق
— ازيك يا سميره ..

— حلوه ازيك انت

طويله تكاد كتفها تصل الى كتفه مشيا فى هذا الشارع فى
البكور ليلحقا قطار الصباح الى المدرسة ، كبرت لكن قلبها لايزال
ابتسامتها واسنانها اللامعة المصفوفة طلاقتها وصفاء روحها ازداد
حينئذ لان تلذوب الاثقال الجاثمة على صدره .

— زى ما انت شايفه ياسميره .

ازدحم صدره بالضحك ..

— اول امبارح كنت فايت .. شفتك فى الشارع عماله تجرى

.. قلت يا ترى ايه ..

.. وضحكت من قلبها ..

- - والنبي شفتنى صحيح .. يادى السكسوف .. دا انا
 كنت حافيه وراسى عريانه ..
 وضحك من كل قلبه ..
 - آدينى شفتك .. كنت بتعملى ايه ..
 - كنت ياخويا بجرى ورا المعزة .. جتها داهيه .. مغلبانى
 .. فى رجليها ستين عفريت ..
 وتفرق فى الضحك ..
 - بتاكل ياخويا حاجة الناس والناس فاضحانى .
 ثم تهدأ قليلا وتعروها جدية طفلية ..
 - والنبي يا عبد العزيز انا فى غلب .. معيز وخرfan وبهايم
 وعجول .. وانا طول النهار دايبه تحت رجليهم ..
 وفجاء تفرق فى الضحك ويضحك عبد العزيز معها ويفرق
 دون ان يعرف لماذا ؟
 - أسكت على اللي جرى أول امبارح .. دخلت الزريبه ..
 لقيت البقره راقده وممدده رجليها على الآخر وعينها مغمضه ..
 قلت يا نصيبتى البقره ماتت ورحت راقعه بالصوت .. ساعدت
 ما صوت راحت البقره ناطه وقايمه واقفه .. يا حوستى ..
 اتارى البقره كانت نايمه .. الناس اتلمت عليه .. اقولهم ايه ؟
 بقيت فطسانة على روحى من الضحك .. والناس عاملين يضربوا كف
 على كف .. وويقولوا البت اتهبلت ولا ايه ..
 ومات عبد العزيز ضحكا لم يضحك هكذا من زمان ، لو يعانقها
 ويضم ضحكها الى صدره ويدخله فى قلبه ..
 - قولى لى يا سميرة .. لسه فاكركه حاجه من العلوم بتاعت
 زمان ..

— والنبي يا خويا .. اسكت .. راسي انقلبت والواد ابني
آجى اقله يا واد ورينى كتبك .. وان ما كنتش عارف حاجه
افهمك .. يقوللى يا امه اسكتى .. حاجات زمان بتاعتكم
ما تنفعش معنا ..

— بقى كبير يا سميرة .. سيبه لوحده

— سايباه يا خويا

— ولايسه الطوق الحديد عشان يعيش .. بتصدقى فى
الخرافات يا سميرة ..

— يا خويا الناس بتقول كده .. بخاف عليهم يا عبد العزيز ..
والنبي عيالى حلوين اوى بس لما تقعد معاهم كده وتجاريهم فى
الكلام ..

اوصلها عبد العزيز وكر راجعا فى الشارع الظلال اكثر حلكه
وضوء القمر اكثر بهاء صوت وقع اقدامه واضحا فوق قلب
الصمت يمشى خفيفا ، يتأمل وجه القمر يغرس عيونه فى صدره
كانما يهم بان يرفع عقيرته مفسيا لم يرد ان يعود الى الدار لا يريد
ان يدفن فرحته فى غرفة العذاب على السطوح .

انحرف فى زقاق جانبي طويل مظلم تماما لا يرى طريقه ولكنه
يسير ، حتى أحس بأن الزقاق انتهى ، مال ، عتبة الباب منخفضة
جدا عن أرض الزقاق تحدر نازلا استند على سقف الباب بيده
دخل وسط الدار ، مظلم تماما لا يرى شيئا تخبط فى الظلام ،
باب فيه شروخ تتقصد بضوء أبيض باهر .. دخل الى المقهى ، غرفة
صغيرة وقده من ضوء الكولوب والصياح والزياط والهياج ، حزمة
من الحياة الصخابة مدفونة تحت صمت القرية لكنها قوية انفسح
له مكان بين رجلين دون أن تتردد الضجة المندفعة المدياع على آخره
وصوت المطربة المسرع يندفع فى خط مواز لهيصة الجالسين

الارائك بجوار الحيطان مزدحمة بالجالسين والارض المفروشة
بالحصر والزكائب لامكان فيها لقدم .

الطباى وحولها لاعبى الكوتشينه ورشقات الشىاى وكركرة
الجوز ، الجو ساخن خائق .. ومن الكلوب ووش الوابور القهوجى
واقف أمام المنصة يصب الشاى ويرص النار على الجوزة ومع كل
كوبة يناولها لرجل يصحبها بشتمة بشعة عارية .

نحيل وسخ الثوب ذابل العينين لكن وجهه الشاحب دافق بالحياة
اسنانه سوداء ووابتسامته وقحه قويه ناول عبد العزيز كوبة
الشاى دون تعليق .. ساخنه قويه زائدة السكر، رشف عبد
العزيز منها ، قبضت فمه ، لكن طعمها عبقرى مرارتها تذوب فى
سكرها وتشرح فى كيانه كالسرور ذابت وحدته فى الضجة السائده
عنه يصفق اوراق الكوتشينه فى الطليه ويشتم رفيقه ويهدده
يتكلمون فى كل شىء وفى نفس واحد وبمرارة وقوة واستياء
وغضب ..

- ضير المحطه ياوله خلينا نسمع النشرة ، سد حنك المره
الى بتغنى دى .

ويعد القهوجى يده الى الراديو ليدير مفتاحه ولكنه لا ينسى
أن يرد .

- النشرة .. سياسى اوى زى الى جابك .. ملعون ابوك

- عاوزين نفهم يا بجم .. هنتنى طول عمرنا حمير

وقورا صوت المذيع ووالضجة كما هى كاتما لا احد يسمع
ولكنك بعد حين تسمع تعليقات من هنا ومن هناك على ما يقول
وتعرف انهم يتابعون .

» وصل السير ...»

— جای بعمل ایه ابن الجرمه .

— انا لو هناك كنت تفتيت في وشه ورجعته ..

ووجد عبد العزيز نفسه يتكلم .. هادئا ثم منفعلا صارخا .

المديع يتكلم وهو يفعل والضجة هادره والكل يتكلمون ويعلق
واحد على كلامه ويرد الآخرون مشتبكون في كلام او عراك او
ضحك وشتائم .

انفمس فيهم في قلبه مثل ما في قلوبهم من المرارة والفضب
والآلم تندى جبينه بالعرق وهو لا يكف عن الهدير بالكلام امتدت
يد بالجوزة اليه جذب منها نفسا عميقا كثيفة ثرية صعدت الى راسه
بقوة داخ وسعل لكنه لم يتوقف عن الكلام وعاد اليها مرة ومرة
طعمها رائح كانما مائة سيجارة في نفس واحد .. تدفق الدخان
من فمه أزرقا كثيفا وتدفق الكلام حادا صارخا .

فهرس

٤	الاهداء
٥	الحضرة
٤٧	الخبير
٨١	السفر
١١٣	الخدمة
١٤٩	الليلة الكبيرة
١٧٥	الوداع
١٩٩	الطريق

صدر من هذه السلسلة :

- | | | |
|----|----------------------------------|-------------------------|
| ١ | فتحى غانم (قصص) | ● الرجل المناسب |
| ٢ | عبد الرحمن فهمى (قصص) | ● دموع رجل تافه |
| ٣ | أبو المعاطى أبو النجاة (قصص) | ● الجميع يريدون الجائزة |
| ٤ | بهاء طاهر (قصص) | ● بالأمس حلمت بك |
| ٥ | شكرى عياد (قصص) | ● رباعيات |
| ٦ | عبد الفتاح مكاوى (مسرحتان) | ● من قتل الطفل |
| ٧ | جمال النيطاني (قصص) | ● منتصف ليل الغربة |
| ٨ | محمد المخزنجى (أقاصيص) | ● رشق السكين |
| ٩ | فاروق خورشيد (قصص) | ● وحل الأرض السلام |
| ١٠ | عبد الحكيم قاسم (رواية) | ● الأشواق والأسى |
| ١١ | جميل عطية إبراهيم (رواية) | ● والبحر ليس بملان |
| ١٢ | سحر توفيق (قصص) | ● إن تحنلر الشمس |
| ١٣ | محمد مكاوى (رواية) | ● لا تسقى وحدى |
| ١٤ | شكرى عياد (قصص) | ● كهف الأغيلر |
| ١٥ | لدوار الخراط (قصص) | ● عطة السكة الحديد |
| ١٦ | محمد إبراهيم أبو سنة (م . شعرية) | ● حصار القلعة |
| ١٧ | عفوف عبد الرحمن (قصص) | ● أربعة فصول شتاء |
| ١٨ | يحيى حنى (قصص) | ● سارق الكحل |
| ١٩ | بهاء طاهر (قصص) | ● أنا الملك جث |
| ٢٠ | عبد الرحمن فهمى (قصص) | ● تاريخ حياة صنم |
| ٢١ | عبد جبير (قصص) | ● الوداع : تاج من المشب |
| ٢٢ | محمد الورداني (أقاصيص) | ● النجوم العالية |
| ٢٣ | عبد الرحمن الشرقاوى (رواية) | ● قلوب خالية |
| ٢٤ | إبراهيم عبد المجيد (قصص) | ● الشجرة والمصافير |
| ٢٥ | سليمان فياض (قصص) | ● عطشان يا صبايا |

٢٦	عبد الحكيم قاسم (رواية)	● طرف من خير الآخرة
٢٧	جار النبي الحلو (قصص)	● طعم القرنفل
٢٨	شفيق مقار (رواية)	● السحر الأسود
٢٩	حسنى عبد الفضيل (قصص)	● تعلق الجدار الاملس
٣٠	محمد المنسى قنديل (قصص)	● احتضار قط عجوز
٣١	عبد الله خيرت (قصص)	● رحلة الليل
٣٢	عالية مملوح (رواية)	● حيات النفتالين
٣٣	عمود دياب (مسرحة)	● أرض لا تثبت الزهور
٣٤	عبد الفتاح الجمل (رواية)	● الخوف
٣٥	عفوف عبد الرحمن (مسرحة)	● ما اجلنا
٣٦	يوسف القعيد (قصص)	● لم يعد الضحك ممكناً
٣٧	فارهق خورشيد (قصص)	● حبال السام
٣٨	أحمد الشيخ (قصص)	● الحنان الصيفى
٣٩	ابراهيم اصلان (قصص)	● يوسف والرداء
٤٠	يحيى عبد الله (مسرحة)	● مسألة لبنى
٤١	يوسف ابورية (قصص)	● عكس الريح
٤٢	محمد جبريل (قصص)	● هل
٤٣	نعمان عاشور (مسرحة)	● عفاريت الجبابة
٤٤	علاء خصباك (قصص)	● الطائر والنهر
٤٥	علاء الديب (رواية)	● زهر الليمون
٤٦	أمير ريان (قصص)	● الطواحين
٤٧	سامى فريد (قصص)	● رائحة البحر
٤٨	عاطف الغمرى (مسرحة)	● حضرة صاحب الدولة
٤٩	خيري شلبي (قصص)	● اسباب للكي بالنار
٥٠	بلر الديب (قصص شعري)	● السين والطلسم
٥١	محمد زفزاف (قصص)	● الملاك الأبيض
٥٢	عبد الحكيم قاسم (رواية)	● أيام الانسان السبعة

العدد القادم :

● هذا ما كان

(قصص) محمد البساطي

في أعدادنا القادمة :

(قصص) محمد البساطي

- | | |
|------------------------|-----------------------------|
| ● الغرف الأخرى | (رواية) جبرا ابراهيم |
| ● أغنية حب حزينة | (قصص) طلعت فهمي |
| ● انكسار الحروف | (قصص) ربيع الصبروت |
| ● الشيء | (رواية) نهاد شريف |
| ● اخبار الدراويش | (رواية) عبد الوهاب الاسواني |
| ● نورسان أبيضان | (قصص) نعيم عطيه |
| ● فنجان قهوة قبل النوم | (رواية) صبرى موسى |
| ● ساعات الكبرياء | (قصص) ادوار الخراط |
| ● ورود سامة لصقر | (رواية) أحمد زغلول الشيطلى |
| ● الغيوم ونبات الشجر | (رواية) عبد العزيز مشرى |
| ● الصخرة والطوف | (مسرحيات) فؤاد التكرلى |

الاعداد الممتازة القادمة :

- | | |
|-----------------------|------------------------------------|
| ● المعبودون في الأرض | (رواية) طه حسين |
| ● خيوط العنكبوت | (رواية) ابراهيم عبد القادر المازنى |
| ● ابراهيم الثانى | (رواية) ابراهيم عبد القادر المازنى |
| ● نائب عزرائيل | (رواية) يوسف السباعى |
| ● فساد الأمكنة | (رواية) صبرى موسى |
| ● قصص مختارة | (قصص) يوسف ادريس |
| ● الجبل | (رواية) فتحى غانم |
| ● قصص مختارة | (قصص) يوسف الشارونى |
| ● أغنية الرياح الأربع | (دراما شعرية) على محمود طه |
| ● بحيرة المساء | (قصص) ابراهيم اصلان |

تطلب كتب هذه السلسلة من

- باعة الصحف
- مكتبات الهيئة
- المعرض الدائم للكتاب
- معارض الكتاب بداخل مصر والخارج
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم إيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٢٠١

SBIN٩٧٧-٠١-١٨٠٩-٥

هذه الرواية ، من العلامات الرئيسية والأولى التي أعلنت ميلاد جيل
(الستينات) ، في الأدب المصري خاصة ، والعربي بوجه عام . وهى تبقى واحدة
من أجمل إبداعات الرواية العربية دون استثناء .

هنا ينحت عبد الحكيم قاسم كتلة الواقع الاجتماعى والانسانى فى قرية مصرية
لم تكن قد رأيناها فى أدبنا من قبل مجسمة كل هذا التجسيم ، بكل ما يمكن أن
يسمى : أبعاد الحقيقة ، ولم تكن قد قرأناها من قبل أبداً مرسومة بكلمات العربية
الطاهرة المحملة بصدق هذه الحقيقة الشاملة للشعر « كتلة » الواقع هنا